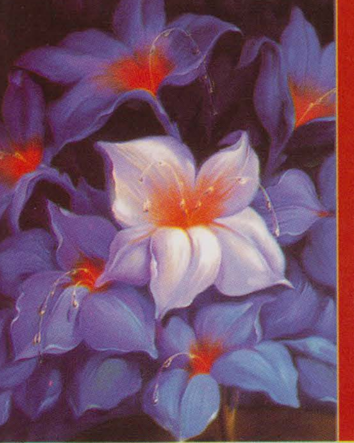
سلسلة الأخلاق والعرفان

1





التخلّي والتزكّي

آداب ومنازل التوبة
تزكية النفس

كريم محمود حقيقي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التخلي و التزكّي

تزكية النفس

آداب و منازل التوبة



سلسلة الأخلاق والعرفان
(١)

التخلي و التزكّي

تزكية النفس

آداب و منازل التوبة

تأليف

كريم محمود حقيقي

تعريب

زهراء يگانه



ابداع للنشر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت

Daralkatebalarabi@hotmail.com

الخطوة الأولى

التخلي

(حول آداب ومراتب التوبة)

التمهيد:

الثناء والحمد لإلهٍ، الثناء حقه والوصف لا يبلغ كماله، والأنام عاجزون عن عد نعمائه..

رب كلّ طائر الفكر الطليق عن التحليق والدنو من قاف «قربه»، وليس لآفاق معرفة صفاته حدود ولا إلى وصف ذاته المقدسة من سبيل.

وسلام، لا تسعه أفق، على رسول الرحمة الحبيب الأمجد الذي فتح أقفال أفئدة بني الإنسان الموصدة بمفتاح «الحب»، وحمل بشرى الهداية والسلامة إلى المغشيين بدياجير الضلال..

وسلام على ولي الله وحجته علي المرتضى وأبنائه الطاهرين عليهم السلام، فبمصباح هدايتهم يسترشد المعْتمون بظلام حب النفس، وبسفينتهم ينجو غرقى بحر المعاصي.

أما بعد:

ما يقدم لك هو قبس من الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن

الائمة المعصومين عليهم السلام يراد منها استئناس المتلهفين لبحر السعادة والوالهين بدرب المعرفة بآداب ومراحل السلوك الالهي.

تتضمن هذه السلسلة مباحث ثلاثة تأتيكم خلال أجزاء ستة:

(المبحث الأول): جاء تفصيله في جزء واحد يتضمن فصلين (أو بالأحرى خطوتين):

ـ الخطوة الأولى: (التخلي) (حول آداب ومراتب التوبة).

ـ الخطوة الثانية: (التزكي) (حول تزكية النفس من الصفات الذميمة).

(المبحث الثاني): (التحلي (في التزين بالصفات الحميدة). ويعرض في جزءين.

(المبحث الثالث): التجلي (في كشف الأنوار الالهية). وهو الآخر يعرض في ثلاثة أجزاء.

لا نهدف من وراء كل هذا، التعليم بل الاستذكار والتنويه إلى عهد أخذه الله على عباده في الأزل وأودعه فطرتهم، فحال داء الغفلة و «الأهواء والرغبات» دون انعكاس الأنوار الإلهية على قلوبهم.

ولكن أيها الأعزة:

حتى وإن عكّر «حب النفس والأهواء النفسية» أجواء قلوبكم، منذ عهد قديم، بضباب «اليأس» انظروا في هذا المؤلّف ودعوا كلامه المرسل يزف الرحمة لكل من أعضاء أجسامكم وفرائصكم، وغمام الحب الالهي ترسل إليكم أمطار الرأفة من رشحات الآيات والأحاديث.

لا نقاش في أن محض البيان لا يقدم علاجاً ووصفة دواء لشفاء المريض ولكن المطلوب «شوق» لنيل السلامة و «خوف» من التخبط في لجج «الملامة» ليتيسر أمر «الطبابة».

لا تأملن الخير في مواعظ أي واعظ هادٍ والهدى من طنطنات أي مدعي إرشاد!

فحتى اولئك الذين قضوا أعمارهم في تقصي علوم القرآن وصنوف الأحاديث ربما لا يكون بحوزتهم شيء سوى علم هو في واقعه «الحجاب الأكبر»..

مَثَل هؤلاء كمثل عطاشىٰ يحومون في شاطىء البحر. فأنّى لنا أن نتقصى أحوال الدر الدفين في صدف حب حضرة الحب (جل وعلا) من أمثالهم.

فاعلم أيها العزيز أن:

كاتب هذه الأسطر ما زال منذ أمد بعيد يسلك الطريق، معتصماً بيد القدرة الالهية، متفانياً في وجوده، معتزلاً غيره، قانعاً بالذوبان في لوعة حبه، صائلاً في سوح المشاهدة حتى ترشح ما ترشح من القلم بصدق ليثمر كلاماً في الثبات ويلفحك بنفحة من عبير داعب مشامه.

ونحن بذلك على ثقة أن هذا الخطاب سوف يدب اللهفة والأنس والمحبة في وجودك.

فيا عزيز النفس!

ما يحثك على مواكبتنا في هذه الرحلة حتى النهاية هو تردد ترانيم

نصوص قرآنية وروائـية وبـعض النـصوص الأدبـية والعـلمية عـلى مسامعك تتناغم مع نبض القلب وهي تشير فيما ينساق فيها من كلام إلى حبيب الأرواح وأنيس النفوس فتُطرب سمع قلبك مـنذ البـدايـة وحتى النهاية فلتسوقن راحلة شوقك بسوط «الذكر».

ومن المحاسن الجلية الأخرى في هذه السلسلة هو صقلها ما تراكم من غبار «الغفلة والركود» على النفوس وقلوب المتلهفين من سـنين مديدة فتجعلها تتهافت على امتطاء صهوة الوصل بعد تـزويدها بـزاد السفر والكشف لها عن الطريق الى المحبوب.

إذاً، ايها العزيز

إن داعبَت شامة قلبك رحمة من الرياض المحمدية، وعثرتَ على زورق أملك في ساحل القلوب الهـائمة إلى هـذا البـحر، وتـحاملت بغارات ارادتك على نـفسك، وانـطلقت عـلى بُـراق سـماء الحب إلى سرادقات جماله، فاسأل لنا ربك أن يوفقنا لنلتقي معاً على صفحات مؤلفات أخرى تهدينا السبيل.

فلنعتصمن بالملك المليك لنحقق دوامنا ونقصي مَن سواه عن حريم قلوبنا.

«مطلع الكلام»

يا مَن اسمه خير مطلع.

يا مَنْ نعمته مصدر القوى وبرحمته الأنفس تقوىٰ.

بحبه الأرواح تتلوع بلا أنين وتتحول شهداً عذباً مرارات سنين.

عذابه فوق الاحتمال وحسابه دونه الانتشال.

لا السبيل للقياه ميسر ممهد ولا بحر معرفته محدد

لأجله ننبذ الأغيار وبه نملأ الأغوار

لتجليات جماله غُشِيَ أمثال موسى كليم الله وأنبهر اشياع علي سيف الله.

هنا مصيدة القلوب وهنالك زاد النفوس. أرواحنا فداء لمصيدة جماله وقلوبنا لعطايا وصله.

ما دامت القلوب عالقة بمنهل وحيه تتصدع الصدور في طلبه وتتفانى نحل محبيه لارتشاف رحيق ولههم به.

وهل أدركت كنه حب محبوبك لك؟

لو فعلت لشهقت شهقة الموت من الثمالة وتبجحت على الملائكة فخراً.

واحسرتاه على كل هذا الوفاء منه والجفاء منك.

ما أسعد من نال الوصل في رياضه فتتوج بعزة «ما زاغ»[١]!

ما أسعد الذي خر صريع الوفاء لربه فسلتت من قدمه دخيلتها فما التفت وما اضطرب[٢]!

كفاك مؤونة أن تذكره ليذكرك[٣]..

وأن تدعوه ليستقبلك[٤].

وأن تكون له ليكون لك[٥].

وأن يشدك الشوق للقائه ليحب لقاءك[٦].

أما بعد

---

١ ـ إشارة إلى الآية (١٧) من سورة النجم: (ما زاغ البصر وما طغىٰ) النازلة في شأن النبي محمد (ص) شهادة لكونه ظفر بقرب الله فما حوّل بصره عنه إلى سواه ولا اخترق حدوده قط.

٢ ـ يقصد الإمام علي (ع) حيث سلتت من قدمه سلتة نبل، اخترقت عظامه وهو يصلي فما التفت إلى ذلك.

٣ ـ اشارة إلى الآية (١٥٢) من سورة البقرة: (فاذكروني أذكركم).

٤ ـ اشارة إلى الآية (٦٠) من سورة غافر: (ادعوني استجب لكم).

٥ ـ اشارة الى الحديث: «من كان لله كان الله له».

٦ ـ قال رسول الله (ص): «من يحب لقاء الله يحب الله لقاءه».

ايها العزيز!

تعلم ان كريم النفس ذاك كان له معراج وقد نوه للمؤمنين بان لكل منهم معراجه ومعراجه في صلاته.

لو كنت راغباً في الظفر بالمعراج لا تؤد الصلاة إلّا وقلبك معك حيث أن «لا صلاة إلّا بحضور القلب»، ولكل صلاة طهر وطهر المعراج وضوء لا يتحقق إلّا بشق الأنفس.

فما أيسر وضوء الصلاة وأعسر وضوء الحضور!

في مخروبة الحب، الأبواب لا تفتح بوجه كل من هب ودب، وليس للجميع فيها نصيب من زاد. فإن كان الحلول في هذه المخروبة غايتك إلغ ذاتك وتطهر من ذنوبك.

إنك ماض في سبيلك منذ بداية حياتك، لا تلتفت لنداء «توبوا إلى الله» يتناهى إلى سمعك.

أتعلم ممن تفر. الأطفال يتسللون من دورهم ولكن مع حلول موعد العشاء تختفي نوازع الفرار والتخفي من الأمهات عندهم. عشاؤك قريب والدجى آت فشمّر همتك ويمم وجهك صوب دارك.

في حضرته قمة الوفاء وعندك منتهى الجفاء!

يريد لك ذروة الرحمة والهناء، وتلقي بنفسك في شدة الضنك والعناء، ما دمت والهاً بغدك تواصل التفكير به فما بال اليوم وما ذنبه عندك لتنبذه بكل هذا التزمت؟ فماذا لو لم يكن الغد بانتظارك؟ وإن كان فسوف تسميه عندئذ (اليوم)، فمتى يحل موعد ذلك الغد يا ترى؟

ايها العزيز!

تعلم أن «التوبة» تعني الإنابة والعودة. فإن مضت السنون تتقدم خطى عشراً وتتراجع عشراً، فأنت ما زلت تراوح حيث كنت. هذا ما كان من أمر توبتك حتى الآن.

كل أذكار «يارب» رددتها في ليالي الجمعة ومناجاة «العفو» في الأسحار و «الاستغفار» في شهر رمضان، ماذا كان منها؟ عبؤك ما زال ثقيلاً. فأنت إن تجردت عن شيء منها حملت غيرها.

قال الإمام علي:

«آه آه لقلة الزاد وطول السفر».

فأنت إن كنت تعزم الرحيل تخل عن هذا السبيل، واستسلم لربك الجليل وبعزم راسخ عالج آلام قلبك العليل.

تغنى بأنشودة جديدة وتبنى التوبة بمفاهيم صحيحة.

أيها العزيز!

أَوَ ما رأيت عقربة الأبرة المغناطيسية كيف تشغف حباً بشمالها؟

خذ عنها درس الحب. اينما وُجِّهت تعود لتصوب اتجاهها نحوه، لا يردعها عن ذلك مانع ولا يثبط عزمها وازع، لأنها لا تعرف للاستقرار معنى إلّا في هكذا اتجاه. ففي عالم اليقين، كتابنا هذا دليلك الواضح وسبيل نجاتك هو هذا لا غير.

لو كنت راغبا أن تصحبني في رحلتي شد حزام جهاد النفس واثقاً، واعقد العزم حازماً.

سطور هذا المؤلف تتهامس معك همسة ناجاك بها ربك في الأزل.

لست آخذاً بيدك كما كان من الخضر ولا مدّعي ذلك.

بل أنير لك دربك. فاهتد بمصباحي لأفخر بعزمك.

إن اعتزمت بلوغ مأمنك فتوكل على الله، وإن قنعت بحياتك على نفس وتيرة قضيت وطرك منها، فدع عنك هذه السلسلة فليس لك منها وارد إلّا الحسرة. والخيار لك!

فيا صديقي!

المسافة بين عناء البُعد وهناء القُرب نقطة واحدة ليس إلّا. فهل عرفت بم تتمثل هذه النقطة؟

هذه النقطة هي الذات. تخل عنها وعن مطاليبها، استبدلها بمطاليب المحبوب. تجرد عن حبك الدنيوي واختر حب الله ليتحول عناؤك إلى هناء، هناء رحمته الوارفة لتظفر بوعده في الآية:

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾.

لو صممت على خوض الرحلة واعتزمت الهجران، فاعلم انك ماض في مراحل ثلاث، أولها الاغتسال وإلقاء كل دنس علق بك في فترة حياتك جانباً.

و لي معك كلام وكلام في هذا الاغتسال والتطهر يأتيك في فصلين: «التخلي» و «التزكي».

ثم أنه عليك بالتزود لهذه الرحلة الطويلة الزاخرة بالمعمعات

والأحداث لتصحب ذخراً يغنيك معاناة الضنك في كل المنازل والمحطات.

فهجرتك إلى عظيم لا يصح لقاؤه دون زينة وزاد. فلتتخذن لنفسك وجسمك وقلبك زينة كبهاء الملائكة، لتنال فخر الالتحاق بالملكوت الأعلى فتسمع نداء:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[١].

هذا ما نريد لك في المبحث الثاني: «التحلي».

واذا بلغت ساحة كبرياء محبوبك ومنالك اعلم أن لها آداباً خاصة.. في ذلك المنزل عليك غض النظر عمن سواه وإخلاء حريم القلب من الأغيار ثم تلبث بانتظار تجلي المحبوب وظهوره لك. في ذلك المنزل تنتهي رحلتك. هذا ما نحدثك عنه في المبحث الثالث «التجلي». لعلك تظفر باللقاء فتحل حيث يحل الانبياء والمرسلون والأولياء والصالحون. ومن الله التوفيق والهجران إليه والهدى منه.

كريم محمود حقيقي

---

١ ـ سورة الفجر، الآيات ٢٨ ـ ٣٠.

لمن يتوجه خطاب الكتاب؟

هنالك فريق من الناس لا يؤمنون بالآخرة وما زالوا حيارى في تفسير وتحليل أسرار الخلق، يحسبون خلقهم إنما كان عبثاً.. ونحن لا نخاطب هؤلاء في هذه السلسلة..

وفريق اهتدوا إلى سبيل الرشاد وعرفوا حقيقتهم وهم الآن يتزودون بزاد الطريق استعداداً للرحيل فهنيئاً لهم حياتهم الهانئة. ولا ندعي عزمنا على إسداء خدمة لهم فإنهم في غنى عنا.

إننا نتحدث في هذا الكتاب إلى جماعة اهتدوا إلى السبيل فوقفوا في أعتابه وقد صمموا على الانطلاق منذ أمد بعيد ولكنهم ما أن يتقدموا بضع خطى إلى الأمام حتى يعودوا أدراجهم مئات الخطوات، فقضوا أعمارهم على هذا المنوال. فهذا الكتاب هديتنا إلى أمثال هؤلاء الأشخاص.

انتهجت في كتابة كل قسم من الكتاب طريقة الاستشهاد أولاً بالقرآن ثم بأحاديث رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام لتكون نبراساً

يضيء درب السالك ونوراً وهاجاً فالسلوك متعذر فيها دون دليل ومصباح.

من هنا نعتبر هذا الكتاب تفسيراً موضوعياً للقرآن. فللجميع نور يقتبسه من القرآن واليوم لا نور يضيء لنا الدرب سوى هذا المنير.

ايها العزيز!

كان لي في عهد الطفولة معلم يطرح لنا مسائل في الجمع والطرح. كان يقول دوماً: هنالك حوض يسكب فيه في كل ساعة كذا مقدار من الماء ويطرح خلال منفذه السفلي نفس المقدار من الماء. كنت كلما أمعنت التفكير في المسألة أغلبية الليالي التفت إلى أنه لم يكن في الحوض ماء قط. كنت حينها في عجب، ما الغاية من مثل هذا العمل العابث؟!

واليوم أعود الى نفسي فاتنبه وأنا أتذكر حكاية الحوض انني ما زلت مشغولاً بمثل هذا العمل مدة مديدة. ندخر شيئاً ونفقد شيئاً وأنت أدرى الى مَ يؤول المصير:

وضع هؤلاء الفقراء إلى الزاد لا يحسدهم عليه حتى الكفرة الذين تسرد حكايتهم الآية: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه واللهُ سريع الحساب﴾[1].

فيا عزيز النفس!

---

١ ـ سورة النور، الآية ٣٩.

أتفهم حال الظامىء الذي قضى أياماً في ضراوة الحر يسير بحثاً عن الماء، فيدرك في نهاية المطاف وهو يصطلي بمنتهى العطش والحاجة أنه ما كان يقصد إلّا سراباً واهياً!

هذه المحنة الأولى والثانية هي وقوفه أمام رب كان هدفه ولكنه أشاح عنه بوجهه طوال حياته فما أخزاه وأتعسه!

والمحنة الثالثة هي: مواجهة جزاء أبدي لغفلته وجهله فما أعظم حسرته وأسفه!

«اللا منهجية أعتى معاناة في الحياة»

ايها العزيز!

لو يخبرك طفل كاذب ليس له من العمر أكثر من خمسة أعوام: رأيت في فراشك ما يشبه العقرب. كيف تواجه نبأه؟ فكر بجد! هل لك أن تفعل شيئاً غير البحث والتقصي. أليس كذلك؟!

لماذا لا تقول في نفسك:

ـ إنه طفل..

ـ إنه كاذب..

ـ إنه لا يقول عقرباً بل يقصد ما يشبه العقرب. احتمال في احتمال في احتمال. حسناً، ولكن ما مبلغ الخطر المحتمل؟!

ايها العزيز!

واصل معي التفكير. منذ خلق الإنسان تتالت الأنباء عن حياة ما بعد الممات، التاريخ أنبأنا من جانب اناس صلحاء ولم يتكالبوا في دنياهم من أجل المال والمنال فقالوا: إن لم تحمل معك زاد آخرتك

تبتلىٰ بمعاناة أبدية سرمدية. قالوا ما قالوه بأتم ما يمكن من يقين وثقة لا بحساب الاحتمال والظن. ماذا يضيرك لو أوليت هذا الكلام اهتماماً على قدر ما يكون منك إزاء كلام ذلك الطفل؟ وحكايتك هذه المرّة أيضاً حكاية خوف ولكن مع الرجاء.

إن قيل لك: دار عُرِضَت جائزة لبطاقات يانصيب يبلغ عددها المليون. ثمن كل بطاقة يعادل ثمن العلكة. اقتن بطاقة عسىٰ أن تكون الفائز. سوف تنفد البطاقات خلال ساعة واحدة. فالجميع يدفعون الثمن الزهيد طموحاً للظفر بالدار.

واصل التفكير: لقد حمل الانبياء إلينا كل هذا النعيم الذي لا يرقى إليه خيال ولا يثمنه أحد على قدر استحقاقه: ﴿نعيماً وملكاً كبيراً﴾.

قال الله تعالى:

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾(١).

واحسرتاه على الإنسان يتمادى الى هذا الحد في رد احتمالات مخاوف الدنيا وفي التهافت على آماله فيها ويسهو بمثل هذا النحو عن داره الأخرى؟!

ايها العزيز!

هل رأيت قط فعل السحرة؟ إن كنت لم تشهد مثل هذه المواقف، فاعلم أن ما بك إنما هو سحر الشيطان دبّ في وجودك، حيث:

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلَصين﴾[١].

هل بك رغبة أن ترى حالك يوم تلقى الله؟ إلى مَ يكون مصيرك؟:

﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[٢].

آه آه من حلكة تلك الظلمات ـ المترشحة عن عمر قضاه الإنسان في أفعال ظلمانية ـ ومن مثل هذا اللقاء. فما أعظم مصاب الإنسان بمثله!

تعمق في الآية الآنفة، يسهل عليك تخيل مكنونها. زورق الإنسان يواجه إعصاراً. فتغشى رأسه أمواج بمثل هامات الجبال، دجى الليل عمّ كل مكان، سحاب حالك يحجب عنه نوراً ينبعث من كوكب ما، قد يُهدىء روعه. الساحل ليس بالقريب فما له إلّا الاعصار ولجة البحر وظلام يُعجزه حتى عن رؤية يده.

وقد يكون المقصود من اليد هو أقرب أعوان الإنسان، فإنه في ذلك الموقف لا يجد في الواقع أي نصير، أو ما في يده من مال ومنال وزوج وعيال، فكلها انمحت وذهبت عنه. هذا هو موقف كل انسان يرد على ربه يوم الحساب فقيراً الى الزاد. ما له إلّا مثل هذا اللقاء وهذه المعاناة.

---

١ ـ سورة ص، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

٢ ـ سورة النور، الآية ٤٠.

ولك من الله خطاب آخر في هذا المجال، في الآية:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّعَ بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾[١].

هذا هو مشهد آخر من مشاهد لقاء الله في ظروفها التعيسة، فيا أيها العزيز! ألم يحدث أن تنشغل لساعة بعمل شنيع ثم تتنبه فجأة لشخص يرقبك وأنت على هذه الحال؟ إن الله معك دوماً يرقبك وأنت لا تبصره. فلو تغافلت اليوم عن معيته، فتمهل حتى تتوثق منها يوم تنادي واحسرتاه:

﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾[٢].

ـ ﴿ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾[٣].

وحقاً على مثل أصحاب هذه الحسرة أن لا تفسح لهم أبداً الفرصة، ولكنها ما زالت أمامك لا سيما لو كنت تمسك بالشباب في قبضتك. فاعرف قدره.

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٩٤.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٣١.

٣ ـ سورة الزمر، الآية ٥٦.

«فكّر معي»

تقول بم أفكر؟ فكر بما أمرك به ربك في الآية:

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾[1].

ايها العزيز! إنك متى ما نظرت إلى الساعة لتعرف الوقت تكون لك معها نظرة. وأنت ترتاد محلاً لبيع الساعات لتقتني ساعة تلقي عليها نظرة ولكن من نوع آخر. أمهلني آتيك بمثال آخر.

مجموعة ترتاد بستاناً للترفيه ولقضاء يومهم في مرح:

أحدهم يقول: هل تعلمون ما قيمة أرض هذا البستان، وكم تبلغ مساحته؟ آخر يقول: هل تعلمون ما حجم المحصول السنوي لكل شجرة من هذا البستان وكم هو الدخل السنوي لصاحب البستان منه؟

ثالث يقول: هل تعلمون بأي ثمن تباع أخشاب هذا البستان اليوم؟ وأية ثروة تكمن في هذه الأخشاب؟

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ١٠٤.

هؤلاء ليس لهم حظ من متعة البستان بل نصيب من لوعة الحرمان. فليس في مثل هذه النزعة والرؤية استفاضة رحمة بل استزادة حسرة.

فالمتعة لمشاهد يرى «الرحيم» في ظل رحمة كل شجرة و «الكريم» في نعمة رزق كل ثمرة، و «المحيي» في سيلان مياه كل ترعة، و «مرسل الرياح» مع هبوب كل نسمة، ويلقي جمال الورد في قلبه ذكر «الجميل»، ويردد انفتاح ثغر براعم الأزهار في نفسه أنشودة «يا من هو أضحك» ويذكره ندى الورود باسم «يا من هو أبكى».

مثل هذه المشاهدات تأتي على قلبك بالرحمة وتزيل عنه الحسرة.

فما أن تزول هذه المشاهد ويمحى كل هذا الجمال، تفنى من البستان النعمات ولا يبقى منها إلّا الحسرات. وأما السالك فما دام مبتغاه من جمالها رؤية محبوبه، فبلوغه مناه يكون قد أرضاه:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

فغاية خلقك في هذا العالم لقاؤه دون سواه لا أن تأنس بغيره.

ايها العزيز!

لا أعرف ما إذا اضاء هذا الكلام مشعلاً في قلبك فأنا نفسي كتبت هذه السطور بمقلتين تكتظان دمعاً، فإن تسلل الدفء بهذه الموضوعات إلى قلبك أملك كبير في نفسك وإن كنت بعيداً عن هذه

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٢٤.

الأجواء فلا حديث لنا معك. فهذا هو سبيل السلوك وهكذا هي حال السالك!

فلو كنت تتقصى المحبوب في الآفاق فلك منه هذه البشرى:

﴿من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[١].

لا أدري هل تعرف أن ما يستهوي القلب ويفتنه يسمونه المحبوب الفاتن. فإن استهوى قلبك غيره فقد اتخذت محبوباً آخر، وبشرى الوصال في هذه الآية لا ترتبط بك بل تجد وصف حالك في الآية:

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا وباطل ما كانوا يعملون﴾[٢].

١ ـ سورة الكهف، الآية ١١٠.

٢ ـ سورة هود، الآيتان ١٥ و ١٦.

«أمعن التفكير في ملكوت الأشياء»

قال تعالى:

﴿أوَلم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾[1].

الغاية من التفكير العميق والدقيق هو النظر في الملكوت لتتخذه منطلقاً تحلق منه نحو الله.

فإن كنت متسائلاً: وما هو الملكوت؟ أقول لك: هو ما اراه الله تعالى لنبيه ابراهيم عليه السلام، حيث يقول:

﴿كذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرضِ وليكون من الموقنين﴾[2].

فالنبي ابراهيم الخليل عليه السلام صار من أهل اليقين إثر نظره في الملكوت.

فإن عدت للقول: ما زلت لا أعلم ما هو الملكوت؟ أمهلني

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٥.

لأحدثك عنه في المبحث الثالث من هذه السلسلة «التجلي».

الآن آتيك أيها العزيز! بالحديث من مجرى آخر، فاصغ لي:

تعمق في أنك لست موجوداً مائياً ومع ذلك فأنت بحاجة إلى الماء بدرجة ثانية بعد الهواء أكثر من أي شيء آخر و ٣/٤ من وزن جسمك يعود للماء. ولكن كيف وبأي نظام يصل ما تحتويه البحار والمحيطات إليك؟

إثر قانون التبخير يتصاعد الماء من سطح البحار وللشمس دور في ذلك. يأتيه ايعاز ان لا يصحب معه أملاح البحر لانك بحاجة إلى ماء نقي. بهذا القانون يتربع بحر من الغمام في أعالي بحر المياه المالحة ولا يفصلهما عن بعض إلّا الوزن النوعي للبخار والماء حيث يمنع امتزاجهما أبداً:

﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١].

ثم يأتي دور الرياح فتسوق الغيوم وينهال الرعد عليها ضرباً بسوطه وينير البرق دربها ليهديها إلى حيث وجهتها النهائية. وببلوغ بحر الغيوم محطته المحددة يحل موعد هطول بركات الله ودره.

﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[٢].

أتعلم ما هي درر الأمطار. لمبلغ غلائها ترى الجواهر رخيصة قياساً

---

١ ـ سورة الرحمن، الآيات ١٩ ـ ٢١.

٢ ـ سورة الرحمن، الآيتان ٢٢ و ٢٣.

معها. كأن الأمطار في بركاتها لؤلؤ والثلوج درر.

أنظر لطافة المطر، كيف يداعب بقطراته الرقيقة النباتات.

وهل تعلم أن كل من قطراته يحمل مقداراً من اليود يمثل غذاء رائعاً للنباتات، وأن الأمطار تمثل بالنسبة للمزارع والحقول غذاء وماء في الوقت نفسه؟

أمعن في الأرض فلولا تخلخلها النسبي ونفوذ المياه فيها لانمحى البر بعد عدة سنوات، وأبيدت بالتالي حياة الموجودات فيها. وإن كانت تزدرد المياه ازدراداً لانمحت جيمع الذخائر الجوفية من المياه. فوجود الصلصال في عمق مناسب من سطح الأرض يحول دون تغلغل المياه كلها إلى داخل الأرض. فجميع العيون والقنوات والآبار والارتوازيات محلها من بركات وجود الصلصال وفضلها فينا.

تعمق في قوة جاذبية الأرض التي توجه المياه في انحدارات معينة نحو المزارع لتواصل مسيرتها بعد ذلك.

انظر إلى جذور النباتات كيف تتغلغل في اتجاهات مختلفة داخل التربة وتخترق الأتربة المتصلدة طلباً للماء. البرعم يتجه نحو الأعلى والجذر نحو الأسفل بينما كلاهما ينموان من نفس الحَب.

انظر سيقان النباتات كيف ترفع الماء من الجذر، وأية قوة عظمى تدفع هذه المياه حتى ارتفاعات قد تبلغ (٢٠ ـ ٣٠) متراً في أقاصي قمة بعض الأشجار.

كيف تفهمت كل من الشمس، الرياح، قوة الجاذبية، حرارة الجو،

الصلصال، الجذور والسيقان والهواء بعضها البعض وإلى اية طاولة جلست لتعقد مفاوضاتها حول هذا الاتفاق؟! فلو خرج أحد هذه الأعضاء عن دائرة الانسجام لأفنيت الحياة من على الأرض! لأمر مَن ينصاع هؤلاء في طريق جدها؟ ولأي معبود خرت سجداً:

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾[1].

ماذا يخيل إليك؟ وكيف تحلل هذا النظام؟ من هو صاحب هذا التخطيط البارع وهذا الجمال والكمال في هذه الدار؟!

يقول تعالى: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2].

ثم انظر ايها العزيز إلى هذه الأرض:

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت. إن الذي أحياها لمحيي الموتى. إنه على كل شيء قدير﴾[3].

غيومه حملت المياه من البحار. شمسه أشرقت من السماء فتهبك دفئها وطاقتها. أرضه تدخر لك منذ ملايين السنوات مختلف أنواع المعادن والنفط و... وهي تصمد ثابتة تحت أبنيتنا المرتفعة الشاهقة ولكنها تتراجع بترهل وخشوع إزاء نعمتك من النباتات. تصنع لك

---

١ ـ سورة الحج، الآية ١٨.

٢ ـ سورة الروم، الآية ٢٤.

٣ ـ سورة فصلت، الآية ٣٩.

اعبق الأزهار من أنتن الأسمدة، وتنمي لك أمثل الفواكه وألذها من أكثر تربتها سواداً، لا تحدد رزقها لك بنوع أو نوعين من الحب والثمار بل آلاف منها، تُزيِّن بها مائدتك. ولم تتوان كذلك عن ادخار الماء لك.

قدّمت لأبنيتك جميع المستلزمات: هنا الحجر، وهناك الجص، وفي مكان آخر الكلس وفي رابع الرمل أو التراب.

ولصناعاتك كذلك: هنا الحديد وهنالك النحاس وفي موقع ثالث الخارصين وفي الرابع الرصاص وهكذا.

ولم تقص حياتك الاقتصادية عموماً عن مرامي نعمها، فرفدتك بالذهب في محل وبالفضة في آخر وبالنفط في ثالث، ولم تكتف باحتضان أمواتنا والائتمان عليهم بل تتقبل كل جثة حتى وإن ساءت ريحها وتمنحك بدلاً عنها مئات المعطرات المفعمة بالنشاط والحيوية:

﴿ألم نجعل الأرض كِفاتاً. احياء وأمواتاً﴾[1].

ألم تشق نفس هذه الأرض في أحضان ترتبتها وعلى سطوح مياهها طرقاً تفسح لك مجال السفر والترحال في أرجائها طلباً للفائدة:

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً﴾[2].

من أخضع لك هذه الأرض الذلولة المطاوعة إلى هذا الحد العظيم؟ ومن مكنك من السير فيها في منتهى الهيمنة والسلطان؟ ولكنه نوه لك:

---

١ ـ سورة المرسلات، الآيتان ٢٥ و ٢٦.

٢ ـ سورة طه، الآية ٥٣.

﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾[1].

ايها العزيز!

انظر إلى الفضاء. تعلم أن للأرض فيه دورتين:

إحداهما (انتقالية): وهي حركتها حول الشمس، وتتميز هذه الحركة عن حركة الالكترونات وأغلبية الكواكب السماوية بمسارها البيضوي لا الدائري. فلو كانت مسيرتها في دورتها هذه دائرية لما أوجدت فصولاً أربعة في السنة. فموقع الشمس في مركز الدورة البيضوية أضفى التنوع على المسافة بينها وبين الأرض مما افرز الفصول الأربعة.

وبحلول الربيع يستأنف العالم حياة جديدة والطيور تغريدها والأزهار فصل انفتاحها، الثلوج تترك قمم الجبال بذوبانها فتجري منها الأنهار.

ومع بداية الصيف تتأجج الحرارة فتنضج الفواكه والحبوب فيتضاعف مدخور الأرض فتجود به علينا. المحاصيل تحصد والأغصان تتنامى لتغدو من ثم وقوداً لفصل الشتاء.

ويحل بعده الخريف وبقدومه تتساقط أوراق الأشجار فتتجرد الأغصان عن زينتها وتتحول الأوراق سماداً. عندها تبدأ الطيور رحلتها.

ثم تزف الغيوم باطلالتها من الأفق الزرقاء بشرى مجيء الشتاء..

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٣٧.

الرياح تعصف، الرعد يصعق والغيوم تتباكىٰ والتربة تملأ مستودعاتها لتدخر لنا المياه، وهكذا دواليك تتكرر على قدم وساق هذه الدورة هذا النظام بما في أدق أجزائها من حكمة سديدة. كل هذه المظاهر تتأتى من الدورة الانتقالية للأرض.

﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾[١].

وأمعن كذلك في (دورتها الموضعية)، فللأرض خلال اليوم الكامل دورة موضعية حول نفسها يترشح عنها تعاقب الليل والنهار. فهل تثمن حظك من السكون والهدوء في ليلها؟ جسمك بحاجة إلى النوم والراحة. وهيهات للنهار ان يمنحك ما تناله في الليل من الهدوء والراحة. بينما يكون لك في النهار موعد مع النشاط لكسب الرزق والعلم والعمل في الزراعة والفن و... ماذا لو أبت الشمس أن تشرق عليك في النهار؟!

﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾[٢].

انظر إلى النباتات. فلكل منها فائدة: أحدها غذاء وغيره دواء. هذا يستعمل في البناء وذاك في النجارة أو الصناعة أو التجميل أو التلوين، كل منها منهمك بأداء مهمته.

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٢٥.

٢ ـ سورة الاسراء، الآية ١٢.

تعمق في هذا المصنع، كم عامل يعمل فيه؟ ومن هو مدير هذه المنظومة ومدبر شؤونها؟

تعلم أن لكل نبات ملايين الخلايا ويساهم في أداء مهام كل نبات ملايين الموجودات: موجود يوفر الغذاء وآخر الماء، أحدها يأمن الكاربون وغيره الاوكسجين. لمن يسدد هذا الفريق من الخدم والحشم خدماته، ومن خشية من يأبى السكوت حتى للحظة واحدة؟

جذران ينموان في نفس التربة، ينهلان من نفس الماء. والمسافة بين الشجرتين لا تتجاوز البضع أمتار ولكن الجذرين متقاربان وقد يؤول أمرهما إلى التشابك معاً، شجرة تثمر من نفس الماء والتربة تمراً في غاية الحلاوة وأخرى تثمر ليموناً في ذروة الحموضة، الأولى تعطيك الدفء والسكر والثانية البرودة والرطوبة.

وتعلم أن السكر ينشأ من الكربون والماء. ما زال بنو الانسان حيارى مدهوشين، تنبهوا إلى أن النباتات تأخذ الكاربون من انيدريد الكاربون المتوفر في الهواء، والماء يستمده من التربة. ولكنهم لم يفهموا حتى الآن كيف تصنع منهما السكر. لم يكتشف الانسان بعد السر في هذه القضية!

قال تعالى:

﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[1].

---

١ ـ سورة النحل، الآية ١١.

انظر الى النباتات ذات الثمار الثقيلة، مثل البطيخ والرقي، تراها زاحفة على الأرض، وصاحبة ما خفّ وزنه من الثمار، ترفعها نحو الأعلى فتحمل أغصانها من الثمار على قدر طاقتها.

انظر إلى النوى والحبوب فإنها كائنات غير حية ومع ذلك ما زالت منذ ملايين السنين[1] تثمر الأحياء متى ما توفرت لها الظروف المؤاتية. كيف تشق هذه البراعم غلاف تلك البذور والنوى وتخترق التربة لتستقبل السماء ضاحكة:

فاعلم

﴿ان الله فالق الحب والنوىٰ﴾[2].

انظر الى القطن ترى بعض ألبستك نسجت منه. في أي أرض يا ترى رفع نباته هامته؟ الخراف ترعى الأعشاب وتمنح الصوف، والنياق تتغذى من الأشواك فينمو وبرها، وهذه السيقان تسقى من ماء الأرض فتعطي القطن.

من أين للحبوب الزيتية ما يؤخذ منها من زيت، وللأزهار ألوانها كيف تنشأ كل هذه المواد الغذائية والفيتامينات والسكريات من باطن التربة؟

انظر إلى الحيوانات. مجموعة منها مفوضة لخدمتك أنت. تعمق فيما

---

١ ـ عثر في منطقة الأهرام الثلاثة بمصر على دنٍ محنّط منذ ثلاثة آلاف سنة مليء بقمح سالم أخضع للاختبار زرعاً فأثمر.

٢ ـ سورة الانعام، الآية ٩٥.

تسدده لك الخراف والابقار من خدمات. تبذل لك حليبها فتصنع منه اللبن والزبد والقشطة ومئات الأطعمة المصنوعة من الحليب. نعم، إنها تعطيك صوفها لتكتسي به وتصونك من برد الشتاء. تعطيك جلدها فتصنع منه الأحذية والحقائب والأحزمة ومئات الأدوات الأخرىٰ فتسد به حاجتك. تعطيك لحومها فتحولها إلى أنواع مختلف من الأطعمة تتغذى منها أسرتك.

أنظر الى النحل تسعى حثيثاً أياماً وأياماً لتزودك بعسلها:

يقول تعالى في هذا المضمار:

﴿وأوحى ربُك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كُلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[1].

***

انظر الى الدواجن الأهلية ينتهي المطاف بريشها في وسادتك، وببيضها في ما لذ لك وطاب من مأكولات، وبلحمها في مائدتك.

إلق نظرة الى الكلب كيف يخدمك ويحرس دارك ويرقب قطيعك ويرافقك الفراسخ، حسبه منك لقمة.

فكر في الحصان والبعير والحمار تنصاع لأمرك مع كل ما يميزها

---

١ ـ سورة النحل، الآيتان ٦٨ و ٦٩.

من قدرة.

يذكرك خالقها بفضلها في الآية:

﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم﴾[١].

انظر إلى البحر كم يبلغ عطاؤه السنوي لنا من السمك ومما نستخرجه منه من لؤلؤ ومرجان. سطحه ساحة لصولات سفننا، وماؤه مبعث أمطارنا:

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[٢].

تمعن في الرياح، لولاها لارتفعت نسبة التلوثات في الجو حتى آل أمر الجميع لا سيما في البيئات الصناعية إلى الاختناق والموت:

﴿.. وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾[٣]

فكيف للهواء أن يواصل حركته بمثل هذه الدورة المنتظمة. لولا الرياح لما عرفت بقاع غير سواحل البحار مفهوم الأمطار وسحبت الحياة أذيالها من البر. فالرياح تحمل إلينا هذه الأمطار مجاناً:

﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته﴾[٤].

١ـ سورة النحل، الآية ٧.

٢ـ سورة النحل، الآية ١٤.

٣ـ سورة الجاثية، الآية ٥.

٤ـ سورة الروم، الآية ٤٦.

ولولا الرياح لما تكونت أي من الثمار والحبوب، فما لطلع النباتات من وسيلة للانتشار سوى هذه الرياح:

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[1].

لولا الرياح لما حلت الأنسام اللطيفة محل النسيم الساخن، ولما تحركت السفن وأمخرت البحار، ولما انفصل الحب عن القش في الحصيد (الجرن). تحمل لك مظلتك وانت تحلق بها في السماء لتهبط بها نحو الأرض، وأحياناً تهز لك الأشجار لتطرب بمنظرها عينيك.

تعمق في عالم الألوان: ماذا يميز الفيلم الملون عن غيره من الأفلام؟ فجمال عالم الوجود الأخاذ يرتبط جزء منه باللون:

﴿وماذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذّكرون﴾[2].

منح وجنتيك الحمرة وشعرك السواد وبشرتك البياض. فما مبلغ جمالك بما وهبت!خلقت كل الحيوانات المتنوعة الألوان إلى جانبك. انظر إلى هذا الطائر الجميل، إلى جناحي الببغاء وريشه الأخضر. هل التفت إلى براعة تلوين الطاووس وما أكثر ألوان ريشه؟! ماذا عن جمال حمار الوحش؟ وهل ألقيت نظرة إلى ريش الديك؟

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من

---

١ ـ سورة الحجر، الآية ٢٢.

٢ ـ سورة النحل، الآية ١٣.

عباده العلماءُ، إن الله عزيز غفور﴾[١].

ألا تنظر إلى أجنحة الفراشة؟ هل تخمن عدد أنواع الفراشات التي رأيتها حتى الآن؟ أي عالم اهتديت لرؤيته من وراء ألوان وتصميمات هذه الأجنحة اللطيفة البديعة؟

كم هو عدد ألوان البراعم؟ كم يبلغ عدد ألوان ما رأيت من الأزهار؟ وهل تعرف جمالاً ورقة بمثل جمال بتلات الأزهار ورقتها؟ من اين جاءت الأزهار بهذه الألوان والعطور؟ هل من التراب الداكن؟ وكيف تولّدت عن أنتن الأسمدة هذه العطور الفواحة؟ لمن تبتسم البراعم منذ اوائل الربيع؟ من وهب العندليب هذا الصوت الأخاذ؟ أليس لكل فعل فاعل ينوه إليه فعله؟

هل حدث أن نظرت إلى السماء وهي ملبدة بالغيوم عند شروق الشمس؟ هل تأملت الأفق الغربي؟ هل أسكرك منظر السماء في ليلة بدرية؟ هل أصغيت لصدى رفرفة الطيور في سكون الأصباح؟ بم تحدثك دندنة الوقواق بترنيمته الثابتة؟ وأي لحن يعزف في أذنك صياح الديكة بين حين وآخر أثناء الليل؟

هل أرهفت أذنيك لسماع ترنيمة مياه ترعة ما في سكون ليلة بدرية؟ ألم يحدث ان تجلس على انفراد بالقرب من شلال ماء؟ هل تابعت تراقص ضفائر الصفصاف الباكي (شعر البنت)؟ أَما ركزت قط انتباهك في حركة الغربان وضجتها في الأصباح؟

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ٢٨.

وهل تاملت السماء وهي مليئة بالنجوم في هجوع الليل؟

حقاً ما أجمل العالم! وما اروع اللوحات الفنية التي ترسمها الطبيعة!

ايها العزيز!

إن أصابك الملل أو النصب من هذا السير الآفاقي، نتركه لنخوض سيراً في الأنفس. وهذه الرحلة لا يمكنك المضي فيها بقدميك الحاليتين، بل لسلوكه طريقة تهتدي إليها خلال حديثنا في بحث «التجلي». إذاً، أمهلني لنسير معاً في رحلة ليست في الأنفس بل في عين هذه الأبدان.

تعلم أن كل خلية تتكاثر فتولد مثيلاتها لا غير. فالجلدية منها تولد جلدية والدموية دموية والعظمية عظمية والعضلية عضلية. هل فكرت: إذاً، لماذا وكيف يولد منسل الذكور ومبيض الإناث خلايا لا تتماثل معها حيث يولدان بالترتيب الحيوانات المنوية الذكرية والبويضات الأنثوية. فهذان الموجودان اللذان لم يسبق لهما أن تلاقيا أو كانا على معرفة ببعض في عالم الوجود، ممن تعلما درس الحب في بيئة الرحم وكيف ظهر فيها الانجذاب إلى بعض:

إقرأ قوله تعالىٰ:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾[1].

حقاً عليك أن تفكر ماذا كنت وإلى مَ صرت:

---

١ ـ سورة الدهر، الآية ٢.

﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾[١].

قال عليم: لو يعود جميع سكان العالم إلى حالة حيوانات منوية لعبئوا في نصف كشتبان.

هذا هو بالضبط ما يشير إليه الباري عز وجل بقوله: ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.

والنهاية سوف تكون بالضبط مثل البداية كما تشهد بذلك الآية:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾[٢].

وهل التفت جيداً إلى وحدة الإنسان هذه في أولاه ووحدته وانفراده في آخره؟ من كان معك هناك ومن يكون معك في هذه.

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾[٣].

من كان يرافقك في الظلمات الثلاث قبل أن يكون حتى لنفسك وجود؟ ينبئنا عن ذلك ربنا الجليل في الآية:

﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك﴾[٤].

---

١ ـ سورة الدهر، الآية ١.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٩٤.

٣ ـ سورة آل عمران، ٦.

٤ ـ سورة الزمر، الآية ٦.

ماذا طلبت منه؟ ومن طلب لك ما اكتسبته؟ ماذا عن العقل والعلم والقدرة هل كان لك نصيب منها؟ الآن وقد وهبك العقل والفهم، وهبك السمع والبصر، وهبك الأعضاء والجوارح، ماذا تصنع:

﴿أَوَلم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[١].

ألم يخلق معك حبلاً سرياً يمدك بدم أمك ليتولى مهمة تنظيفك وتنقيتك ويقدم لك مائدة كاملة، مائدة تشبعك غذاء وفي الوقت نفسه أوكسجيناً؟

إذاً، عد معي إلى عهد هذه الضيافة، إلى موعد انقطع فيه اتصال أمعائك مع الحبل السري، عند انتهاء ساعات هذه الضيافة، من حرّك حجابك الحاجز في هذه اللحظة الحساسة لتتفتح رئتاك، فتبدآن عملية اقتناص الهواء؟ رفعت تلك المائدة ووضعت مائدة أخرى. ما أكثر هذه الأسرار إثارة للدهشة! فلا الأم تتنبه إليها ولا الأب ولا حتى الوليد نفسه:

﴿أفرايتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[٢].

وهل فكرت حتى الآن ما فائدة وجودك؟ ولمّا كنت لم تخلق نفسك فماذا كان هدف خالقك؟ هل خلقك لعبة أراد أن يتمتع بها أم كان خلقك عملاً عابثاً صدر منه (حاشاه):

---

١ ـ سورة يس، الآية ٧٧.

٢ ـ سورة الواقعة، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

﴿أيَحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنىٰ﴾[١].

ولمّا فتح طريقا آخر لتنفسك، هيأ لمأكلك ومشربك نبع الثديين الفياضين، يترشح عنهما الحليب حتى قبل ميلادك. لا الأم لها دور في رزقك هذا ولا الأب ولا حتى أنت نفسك، رزق طعام لا تجد له مثيلاً حتى إن جبت الآفاق!

لا أعلم إن كنت تعرف أن عدد خلايا جسمك يفوق عدد سكان العالم!

كل هذه الموجودات خلقت لتخدمك وتثابر وتعمل من أجلك. الأمر لا يقتصر على الغيوم والرياح والشمس والقمر والأفلاك، فأمر العالم كله على هذه الشاكلة!

إسال نفسك: كل هذا كان من أجلي، فلمن أنا؟

لا أعلم إن كنت تدرك ان كل من هؤلاء الخدم والحشم يفوق أي أخصائي علماً. فالكريات البيض جميعها ودون استثناء تواجه كل جرثومة ترد الجسم بنوع خاص من الأجسام المضادة التي ما زال بنو الإنسان في جميع بقاع العالم يعجزون عن صنع بعض أنواعها، فراحوا يستجدون من هذه الموجودات الدقيقة مصل لقاح الحصبة والدفتريا مثلاً، فحقاً:

﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[٢].

---

١ ـ سورة القيامة، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

٢ ـ سورة النساء، الآية ٢٨.

هل تعلم أن ملايين الخلايا تتعاضد وتتكافل مع بعض في قـلبك محدثة اهتزازاً رائعاً لا يتوقف آناً واحداً على مر حياتك، لأنها لا تركن للراحة حتى للحظة واحدة. فإن فعلت يتحول وجودك إلى فناء. فعلى أي لحن تهتز وتتراقص هذه الخلايا؟ ومن هو مـدبّر هـذه المشـاهد العظيمة؟ عسىٰ أن لا تكون ممن تتحدث عنهم الآية:

﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلّا كانوا عنها معرضين﴾[1].

تعجز أعظم مضخة فولاذية في العالم عن أداء وظيفة قلبك الذي يتولى يومياً على مر عقود من الزمن مهمة نقل حجم من الدم يأمـن تواصل حياتك يتجاوز استيعاب صهريج عظيم من صهاريج نـاقلات النفط.

لا أدري هل أواصل حـديثي فـيما يـخص عـينيك أم أذنـيك أم جوارحك أم دماغك وتفكيرك وعقلك أم ذاكرتك؟ فالكلام فـي هـذا المجال لا حد له ولا حصر وأخشـى أن أصـيبك بـالتعب إن عـدت للحديث في هذا السـياق. أخـتم بـحثي هـذا وأخـلص إلى النـتيجة المطلوبة مـن جـميع هـذه المـقدمات، فكـل مـنها مـدعاة للـتفكير والتمحيص. الآن فكر: هل يمكن أن يكون كل هذا الصنيع الحكيم لهواً ولعباً؟!

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٤.

«لم يُخلق الخلق لهواً ولعباً»

صاحب أي قلب واع سليم يحكم، بمجرد تعمقه لا في جميع آيات خلق الله بدءاً بباطن الذرة وحتى أعماق المجرات، بل بالتأمل في وظائف نبات ما أو نملة أو خلية واحدة من خلايا جسمه، بأن هذا الخلق المتقن ما كان بدافع اللهو واللعب!

يقول تعالى:

﴿ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنّا إن كنا فاعلين﴾[1].

فأي مصنع مصغر أو حتى مركبة بسيطة لا يمكن أن تحتوي على قلاووز واحد لم يكن في ايجاده حكمة وهدف. فكيف يمكننا أن نتصور أن خلقاً بكل هذه العظمة والجلال والجمال كان لهواً وعبثاً؟!

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[2].

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآيتان ١٦ و ١٧.

٢ ـ سورة المؤمنون، الآية ١١٥.

حقاً لو تحذف المنهجية والهدفية من حياة الانسان لغدا وجود الخلق في منتهى العبث والسخف. وما أتعس أناس غاب عن حياتهم الاتجاه والهدف!

لماذا يواصل مثل هؤلاء الأشخاص الحياة أساساً ما داموا لم يحددوا لأنفسهم هدفاً إلّا الموت؟ وبما أنهم يحسبون الفناء هدفاً ربما تجدهم يقدمون على إنهاء حياتهم بالانتحار:

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلّا بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[١].

فيا أيها العزيز!

لا غرابة في أن يقال لا هدف للخلق. أمهلني الآن لأواصل كلامي حول هذا الهدف وليس لي في تحديد الهدف إلّا ما أخذته عن الأنبياء من كلام صريح يزدان بمنطق صحيح. فإن كنت سائلي عن ذاك الهدف، دعني أحدثك على لسان القرآن الكريم:

---

١ ـ سورة الدخان، الآيتان ٣٨ و ٣٩.

«ما هو الهدف؟»

من أين ينبثق وجودنا؟

ما الهدف من خلقنا؟

وإلى أين ينتهي بنا المصير؟

اسئلة ثلاثة، بالإجابة عليها يتحدد لنا الهدف. تعلم أن القرآن صرح بأنك ارتضيت طواعية بحمل الأمانة وكنت المتحدي الوحيد من بين كل المخلوقات لدخول هذا المعترك:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[١].

سوف تقول: لا أتذكر. أخبرني ماذا تذكر عن حياتك وأنت في عمر الستة أشهر أو حتى السنة أو السنتين؟ ماذا عن سكناك تسعة أشهر في رحم أمك؟ تحديك لسائر المخلوقات حدث قبل هذه المواقيت، فهل

---

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

تتوقع أن تذكر ذلك؟

تعلم أن الملائكة بدورها أعلنت تحديها لك لما أعلنت ذلك فلوحوا إلى مساوئك بأن:

﴿قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء﴾[١].

ولما حدث ذلك الابتلاء من ربك تراجعت إثره وتقدمت أنت عليها عندما أفاض عليك الله بما أوسعك من الاستيعاب والاستعداد للإجابة، فقهرتها فصرت تصول في ساحة المواجهة دون منافس:

﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال الم أقل لكم إني اعلم غيب السماوات والأرض﴾[٢].

تتويجك تم في ذلك اليوم، يوم اصطفاك ربك على الملائكة وهو يريدك أن تعبده.. حدّثك عن ذلك التتويج في الآية:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[٣].

ثم خرت الملائكة سجوداً لك بأمر من ربها. هكذا أصبحت مسجود الملائكة:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا ابليس﴾[٤].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٣٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣٣.

٣ ـ سورة الإسراء، الآية ٧٠.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٣٤.

هل فكرت قط كيف حملت ما أبت الملائكة وجميع المخلوقات الأخرى أن تحمله؟ لم تتدبر أمرك، تخليت عن حكم عقلك فقد افتنك خالقك إلى حد لم يبلغه غيرك.

فالعاقل المتبصر لا يلقي بنفسه في المخاطر لبلوغ مناله. من هنا قال تعالى:

﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.

ولكنّ للمحب نهجاً آخر فلا عقل له سوى ما يريده لحبيبه غير مبال بالأخطار. هكذا تقدم الإنسان إلى حبيبه فظفر منه بكرمه وهو القائل: ﴿لقد كرمنا بني آدم﴾.

ربما ما زلت لا تذكر لأجل من مضيت في سبيلك. فلأذكرنك بعهد آخر قطعته على نفسك لحبيبك، عسىٰ أن لا تنساه فتذكره يوم لا ينفعك التذكار:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين﴾[1].

حسناً، بحسب هذا الكلام تكون في ذمتك أمانة وكذلك عهد وميثاق. والآن عليك وأنت تسير في هذا الطريق أن ترى كيف تسلك مع كليهما (الأمانة والعهد)، هل أنت ممن وصفهم الله في الآية:

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾[١].

أم مِن:

﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾[٢].

كان وعد الله لك بلقائه رداً على عهدك به بالإخلاص لعبوديته ونبذ الشرك به، فكيف لك أن تتوقع أخذه بعهده لك وأنت قد أخلفت عهدك معه؟ ما أظل تفكيرك!

﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾[٣].

ربك بانتظار رجعتك وانابتك.. أن تتوجه إليه وحده وتلتزم عـهده، عهده بان تتنكر للشيطان وتتعبد لله لا أن تركن لعبادة الشيطان فتشركه في عبادة ربك. ألا تسمع ما يقول ربك في الآية:

﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[٤].

على أية حال، هذا عهدك وهذه أمانتك، هذا المسار وهذا المنال، فان كنت فارساً صوالاً فتوكل على الله.

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٨.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٧.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٤٠.

٤ ـ سورة يس، الآية ٦٠ و ٦١.

«ماذا عن قدومنا إلى دار البلاء؟»

خلقك مزيج من الهبوط والعروج. العروج لتكن مركبة التراب في سبيله إلى التعالي، والهبوط لتتخذن التراب مركبتك في رحلة تعاليك. رحلتك إلى حيث بدأت منه الهبوط. فغاية هذا الهبوط هي العروج.

أوضح كلامي! ظهرت في التربة حركة هدفها العروج، فولدت النبات وأثارت في النبات حركة نحو العروج ولدت الحيوان، وفي الحيوان حركة أخرىٰ نحو العروج ولدت في جوف الرحم مخلوقاً تقبل النفس الإنسانية. وكان هنالك للروح الإنسانية هبوط عند إلتقاء مع الروح الحيوانية. يسمي القرآن هذا الموجود «خلقاً آخر» اعتبره أنت منتهى كمال الإنسان قبل أنسنته:

يقول تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة[1] فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا

---

١ ـ للعلق معان ومدلولات أحدها دلالة هذه اللفظة على الدويبة المعروفة وإن تم

←

العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك اللهُ أحسن الخالقين﴾[١].

بهذا الخلق الآخر تتم عملية الهبوط والعروج واستعداد المخلوق للسير والتوجه نحو الله. وبانتهاء هذه العملية بارك ربك في نفسه قائلاً: **﴿تبارك اللهُ أحسن الخالقين﴾**.

وعما سمي هبوطاً قياساً لرفعة الروح الإنسانية يحدّثك في إحدى آياته الأخرى.. يقول:

﴿ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[٢].

أزيدك إيضاحاً: تسقط حبة البرسيم الحجازي، الأصغر حجماً من الدخن، في التربة فتتأثر في التربة بجاذبية الكمال وسرعان ما تتخلىٰ عن طبيعتها الترابية فتتحول إلى نبات البرسيم بساقه وجذره وأوراقه، وتقضي أياماً هانئة بحياتها الجديدة حتى تنتهي بها حركتها الكمالية إلى جسم الخراف حيث تمر بها أيام أخرى وهي تعتلج الاعتزاز بحياتها تلك حتى تنقلها يد المشيئة الالهية إلى الجسم الإنساني فتتحول بالهضم إلى دم يجري نحو الرحم الانثوي أو المنسل الذكري

← تضخيم الحيوان المجهري لآلاف المرات تحت المجهر تراه أشبه ما يكون في عالم الشهود إلى العلقة. انظر كتاب «اشعاعات العلم الجديد في القرآن والحديث» للمؤلف.

١ ـ سورة المؤمنون، الآيات ١٢ ـ ١٤.

٢ ـ سورة السجدة، الآية ٩.

اللذين يولدان منها البويضات أو الحيوانات المنوية. وفي رحم الأم تطل على العالم الإنساني، وببلوغ هذه المرحلة ينتهي دور الأسباب وتبدأ حركة جديدة في المسير إلى الله.

ولنا إشارة أخرى إلى هذا الهبوط يجهلها البعض وهي أن هذه الحركة ليست هي حركة ميكانيكية بل حركة وتغيير في الحالات يشهدها قلب الماهيات. من هنا يسمى فاعله «مقلب القلوب».

فليس الهبوط هبوطاً من سماء المادة هذه ولا العروج عروجاً إلى سماء المادة. وهكذا كان معراج رسول الله ﷺ. فهذا الهبوط والعروج هو من أو إلى ساحة القرب الالهي لا المريخ والزهرة والمشتري، فمعية الله سبحانه وتعالى تتماثل في جميع السماوات والأرض.

يشهد بذلك قوله تعالى:

﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم﴾[1].

وانحراف الفكر إلى مثل هذه الرؤية هو المنطلق الذي جعل ذلك الجاهل، بعد انتهاء رحلته الى القمر وعودته إلى الأرض يقول بأنه لم ير الله حتى في القمر. وشاهد قوله بيت للشاعر الايراني سعدي:

خر عيسى گرش به مكه برند چون بيايد هنوز خر باشد[2]

***

١ ـ سورة الزخرف، الآية ٨٤.

٢ ـ معناه:

«بغلة عيسى أن تؤخذ إلى مكة، تعود وما تزال بغلة».

العروج موجّه نحو سماء لا سبيل لك إليه، سماء يشير إليها الباري تعالى في الآية:

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخِياط وكذلك نجزي المجرمين﴾[١].

وهذه السماء هي سماء الجبروت والملكوت، حيث يقول عز وجل:

﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾[٢].

على أية حال، دعنا لا نبتعد عن هذا الموضوع. تحدثنا وتحدثنا حول «تحديد الهدف من الخلق» حتى انتهينا إلى ها هنا. وما عليك إلّا أن تعرف أنك تقف الآن حيث يعتبر أمثل العوالم. فلو رغبت أن تعرف قدره اصحبك بمنطاد آخر الى عوالم ستة:

الأول: عالم الحيوان المنوي في منسل الأب

الثاني: العالم الجنيني في رحم الأم.

الثالث: عالم الدنيا.

الرابع: عالم البرزخ.

الخامس: القيامة.

السادس: الجنة أو النار.

إنك في خمس من هذه العوالم تفقد أي خيار إلّا في عالمنا هذا

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٤٠.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٥.

وهو عالم يصنع أبديتك، يتهاوى بكل نسيم. هيهات هيهات أن تعرف قدره.

تعمق في بذور الأزهار، فلولا سقوطها في التربة ما ظهر قـدرها، ولا تعرضت للماء والشمس والهواء، ولا تقلبت في أحضان الطـبيعة، ولا شهدت فيها السحق والتحول.

هكذا، فقط هكذا، يظهر لها ساق وأوراق وزهـور وألوان وعـطور وثمار.

كنت على هذه الحال ما دمت في عالم «ألستُ» فقبلت إلى هـنا لتكشف عن قابليتك، وتؤدي اختبارك، وتبين قدرك، تبيّنه بسلوكك في طريق العبودية، وطريقتك في استغلال أمانة حرية الخـيار؟ فـلك أن تخلد إلى أي من المحطات بين منحدر الفرار وقمة القرار، بين أعـلى عليين وأسفل السافلين.

واحسرتاه على الانسان إن هو أوقع نفسه في هاوية تجعله يـقول أحياناً:

﴿يا ليتني كنت تراباً﴾[1].

وهو القادر على أن يتبوّأ مكانه:

﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[2].

حيث يستقرأ من ربه السلام:

---

١ ـ سورة النبأ، الآية ٤٠.

٢ ـ سورة القمر، الآية ٥٥.

﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾[١].

ويتلقى الدعوة منه للعروج واللقاء:

﴿ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[٢].

وهل تعلم موقع جنته وما هو كنه الرجوع إلى جنته؟ وهل تدري أن هذا الوصال هو نفس الجنة؟ فاستمع الى الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام يقول:

«يا نعيمي وجنتي، يا دنياي وآخرتي»[٣].

على أية حال، لك ان تختار إتجاهاً آخر نحو مرابط الدواب إلى حيث تعذب، ويحكم عليك بالبعد عنه، فتهبط إلى ما دون مستوى الهبوط الذي أراده لك فتكون ممن وصفهم تعالى بقوله:

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، اولئك كالأنعام بل هم أضل، اولئك هم الغافلون﴾[٤].

تصور المسافة بين هذين الفريقين، ولك الخيار أن تمضي فيها وتتوقف حيث شئت. طريقك يطول إجتيازه وعمرك قصير أمده.

إذاً، ردد: مِن عنده مجيئي، والعروج والكمال هدف قدومي وإليه مآبي ومصيري وليس لحصول هذا الكمال، إلّا العبادة في ظل معرفة

---

١ ـ سورة يس، الآية ٥٩.

٢ ـ سورة الفجر، الآيات ٢٨ ـ ٣٠.

٣ ـ مفاتيح الجنان، مناجاة المحبين.

٤ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

يتزين بها سبيلي. من هنا حدد العبادة هدفاً لخلقك حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وما خلقت الجن والانس إلّا ليعبدون﴾[١].

وفي آية أخرى جعل الاختبار هدف حياتك حيث قال:

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[٢].

ولكن لا تحسبن نفسك ملزماً بأن تقضي أيامك ولياليك ذاكراً له، مصلياً، معتزلاً الحياة، فمن فعل ذلك يكون جاهلاً لمفهوم العبادة.

فلمفهوم العبادة في الإسلام آفاق واسعة تتضمن جميع النشاطات الدنيوية، فنبينا ﷺ يؤكد بأن طلب رزق الحلال ثلثي العبادة.

فلو عقدت العزم جازماً، وشددت حزام الهجران متيقناً، تغدو كل حركاتك وسكناتك، وحتى خلودك للنوم وللراحة عبادة. ألم تسمع رسول الله ﷺ يصف حالك وأنت تعقد نية الصوم في شهر رمضان بقوله:

«أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة»[٣].

ولا يكون ذلك إلّا لاصطباغ نيتك بالصبغة الالهية. والنوايا الالهية تصيّر الحياة حياة إلهية وبها تتحول حياتك إلى حياة إلهية فتقضي

١ـ سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٢ـ سورة الملك، الآية ٢.

٣ـ من المناجاة الشعبانية.

عمرك ماضياً، سالكاً طريقك نحو الله، من هنا قال رسول الله ﷺ:

«نية المؤمن خير من عمله».

فعمل المؤمن محدود ولكن لا إطار لنواياه.

على أية حال، إن كنت مؤيداً لما أتيتك به إلى الآن ولست على خلاف أو في مواجهة معي فهنيئاً لك. بمقدورك أن تشد رحالك، وتستهل رحلتك، فأمرك مفروغ منه. فإن أمهلك عمرك لتمضي اليه، فما أسعدك! وإن باغتك الموت، وحل بك موعد الرحيل قريباً ـ لا سامح الله ـ فأنت تكون ممن تتحدث عنهم الآية:

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1].

حسناً، ولكن التوجه للقاء الأعاظم يتطلب مستلزمات ومقدمات. ألم يُسَمَ شهر رمضان موعد «ضيافة الله»، ووجهت لنا الدعوة لنعد في شهري رجب وشعبان ما يمكّننا من قضاء هذه الاستضافة بخير.

انك إن دعيت للقاء شخصية مرموقة تقضي الأيام وأنت تفكر في اللقاء وفي الملابس والزينة والعطر، وقبل هذا تغتسل استعداداً للقاء.

فهل ما زلت تعتزم الورود على مثل هذه الساحة المقدسة بمثل هذه التلوثات؟ لا، وألف لا، سوف توصد الأبواب بوجهك. فاجتياز الملكوت والالتحاق بالحبيب يراد له صفاء يليق بالمقام.

فإن اعتزمت على امتطاء صهوة التوبة، دعني أقدم لك بعض

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠٠.

الوصايا:

اعلم ان للنفس معك منذ اللحظة صراعاً مريراً. فان اقترفت فيما قضيت من حياتك ذنباً عظيماً، فتهمس لك: مسكين أنت أنّى لك المضي في الرحلة وأنت ترزح تحت هذا العبء؟ فهذا المنزل من منازل المتنزهين. قضيت سنين لست مصلياً، عمرك أفنيته تكسب حراماً، في ذمتك من قضاء الصوم شهور ومن الكذب والغيبة و... لآلاف.

أجبها: لي رباً وَعَدَني:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾[1].

قل لها: يا نفس! ذنبك أعظم وأكبر أم غفران ربك. وإن لم تكف، فانصت لي اقص عليك الحكايات:

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٥٣.

«توبة ملتهبة»

ورد على رسول الله ﷺ رجل يضج بالبكاء فجلس في ركن من المجلس باكياً. كان الرجل معاذ بن جبل وهو ممن كان له فخر لقاء الرسول ﷺ يومياً.

سأله النبي وقد شاهد في أحواله هذا التغيير في ذلك اليوم:

ما يبكيك يا معاذ؟

فقال:

ـ يا رسول الله إن بالباب شاباً طري الجسد نقي اللون، حسن الصورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

كانت دار رسول الله ﷺ مثوى كل مُعان ومأوى كل حائر. من هنا سأله لم لا يُدخله عليه؟

بهذا التنويه نهض معاذ باكياً، فأدخل عليه الشاب الواله المغلوب على أمره متأوهاً.

سلم الشاب على رسول الله ﷺ وجلس إلى النبي والدموع تنهمر

من عينيه.

قال ﷺ:

ما يبكيك يا شاب؟

قال:

ـ وكيف لا أبكي؟ وقد ارتكبت ذنوباً إن أخذني الله عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم ولا أراني إلّا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً.

كان الشاب يتحدث وكأنه يسمع ضجيج المتأوهين وصراخ المعذبين في نار جهنم، ويرى موته وشيكاً دون غفران ذنبه، فيحدق به عذاب ربه. كان يفكر: كيف له أن يتحمل العذاب. راح يعبّر عن ايمانه بكلام رسول الله ﷺ وبالقرآن وبأن العذاب لآت.

قال رسول الله:

ـ هل أشركت بربك شيئاً؟

قال:

ـ أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئاً.

قال ﷺ:

ـ أقتلت النفس التي حرم الله.

قال:

ـ لا

فقال النبي ﷺ:

ـ يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرواسي.

فقال الشاب:

ـ فإنها أعظم من الجبال الرواسي.

فقال النبي ﷺ:

ـ يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

فقال:

ـ إنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

فقال النبي ﷺ:

ـ يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي.

العجيب أن الشاب واصل حديثه باكياً وهو يقول: فإنها أعظم من ذلك.

نظر إليه رسول الله ﷺ والغضب يلوح من محياه المباركة، فتوردت وجنتاه ثم قال:

ـ ويحك يا شاب! ذنوبك أعظم أم ربك.

خر الشاب لوجهه وهو يقول:

ـ سبحان ربي! ما شيء أعظم من ربي. ربي أعظم يا نبي الله من كل عظيم.

فقال النبي ﷺ:

ـ فهل يغفر الذنب العظيم إلّا الرب العظيم؟!

قال الشاب:

«لا، والله يا رسول الله» ثم سكت.

قال رسول الله ﷺ:

ويحك يا شاب أتخبرني بذنب واحد من ذنوبك.

قال:

ـ بلى، أخبرك، إني كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتت من بعض بنات الأنصار فلما حُملت إلى قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها، وجنّ عليهم الليل، أتيت قبرها، فنبشته ثم استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها مجردة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً..

قطع البكاء على الشاب حديثه. وبعد دقائق قضاها يئِن ويبكي حدّث الرسول ﷺ بأن الشيطان زيّن له جمالها وغرّه بمفاتنها ولم يكن قد رأى من قبل فتاة عارية فأتى تحت ضوء القمر وفي هدوء الليل ذنباً يمنعه الحياء من التصريح به.

هنا عاود الشاب البكاء فقطع كلامه ثم قال:

ـ «تركتها مكانها فإذا أنا بصوت من ورائي يقول: «يا شاب! ويل لك من ديّان يوم الدين، يوم يقفني وإياك كما تركتني عارية في عساكر الموتى ونزعتني من حفرتي وسلبتني أكفاني وتركتني أقوم جُنبة إلى حسابي. فويل لشبابك من النار». فما أظن أني أشم ريح الجنة أبداً.

فما ترى لي يا رسول الله؟

هنا قطع رسول الله ﷺ عليه كلامه غضباً وهتف:

ـ تنح عني يا فاسق. إني أخاف أن أحترق بنارك فما أقربك إلى النار!

بسماع الشاب هذا القول من رسول الله ﷺ تأججت النار في قلبه أكثر فأكثر وترك دار الرسول ﷺ باكياً متأوهاً خجلاً.

القلب تهشم والبدن ارتعد. العين أدمعت مدراراً. القلب الكسير المكتئب اختار العزلة فحمل زاداً واختفى عن الأنظار. أتى بعض الجبال واتخذ سبيله إلى ربه بتوبة ملتهبة. النار أضرمت في قلبه، ولكن أية نار، نار كادت تجري فيضاناً من دمع عينيه على سفح الجبل. لا يهدأ الليل، فيبكي ويضج حتى الصباح، وراح يقول:

يارب! أنت الذي تعرفني وزل مني ما تعلم سيدي، يارب! إني أصبحت من النادمين وأتيت نبيك تائباً فطردني وزادني خوفاً. فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك أن لا تخيب رجائي يا سيدي! ولا تبطل دعائي ولا تقنطني من رحمتك.

كان هذا حال الشاب يناجي ربه، ويبكي على هذا النحو أربعين يوماً وليلة، لم يبرح خلالها الجبل، وهو آمل أن ينال رضا حبيبه حتى انقضى أربعون يوماً، فقال عندها:

ـ اللهم ما فعلت في حاجتي؟ إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوحِ إلى نبيك وإن لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي

خطيئتي وأردت عقوبتي، فعجل بنار تحرقني أو عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة.

هطلت عليه أمطار رحمة الحق وماجت له بحار غفرانه فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلّا الله﴾(١).

نزل الوحي الى النبي وأنبأه أن الله عز وجل يقول: «أتاك عبدي يا محمد تائباً فطردته فأين يذهب وإلى من يقصد ومن يسأل أن يغفر له ذنباً غيري».

فلما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ خرج فوراً وهو يتلوها فسأل عن الشاب وعلم أنه آوى إلى الجبل، فمضى رسول الله ﷺ إليه، فعثر عليه فأدهشه ما شاهد من تغير في سيماء الشاب حيث تنور وجهه الكظيم بنور الملائكة وتساقطت رموشه من البكاء وأذهبت الدموع وجنتيه:

ما أن رأى الشاب رسول الله ﷺ حتى أحنى رأسه خجلاً، فدنا منه رسول الرحمة الإلهية واطلق يديه اللتين كان قد غلّهما إلى عنقه وبشره بأنه عتيق الله من النار وقرأ عليه الآية ثم التفت لأصحابه وقال لهم:

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

«هكذا تداركوا الذنوب»[1].

لو أمعنت في هذه الحكاية التاريخية الموثوقة تعلم أن التوبة تتوجب اللوعة، ومثل هذا الذنب تراد له لوعة أكبر وقد كان من الرسول ﷺ ذلك التعامل معه ليزيد لوعة نفس الشاب قوة. وإلّا فإنه بحد ذاته رحمة للعالمين، وقد شهد له الله سبحانه وتعالىٰ بذلك، مثلاً، في الآية:

﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾[2].

---

١ ـ الأمالي للشيخ الصدوق، بتصرف. الرواية رواها الإمام الصادق (ع).

٢ ـ سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

«توبة نصوح»

إعلم ان الذنب قد يترسخ في النفس كعادة مألوفة. وفي مثل هذه العادة شرك خفي، تدركه إن أنت فكرت ملياً. الآن وقد عقدت العـزم الأكيد على الرحيل لابد أن تصرع اخطبوط العادة، وتتعمق في مفهوم التوبة، وتتنبه إلى أنه يتعذر عليك البقاء حيثما كنت. كنت مولياً نحو الطاغوت وجهتك، وصرت سالكاً الدرب إلى ربك. لابد من الانعتاق من الظلمات لتتحرر منطلقاً نحو النور. دعـني أسـرد عـليك حكـاية أخرى من «المثنوي» للشاعر مولوي ربما تضفي على طبعك المرونة فتترك ما ساء من عاداتك:

كان نصوح رجلاً أجرد اللحية غلبته الشهوات. له جسم أشبه مـا يكون بجسم النساء. كان يعمل دلاكاً في حمام النساء فليتذ بذلك من ملامسة النساء.

ســـالها مــن كــرد دلاكـــى و كس
بــو نــبرد از حـــالت آن بـــلهوس[١]

كان الندم يدب أحياناً في نفس نصوح فيتوب إلى ربه ولكن شهوته تغلبه فينكث عهده مع الله حتى مر ذات يوم بدار عارف فالتمس منه الدعاء متضرعاً:

آن دعـا از هـفت گـردون در گـذشت
كان آن مسكين به آخر خوب گشت[٢]

لا سبيل إلى هذه الحضرة لأهل الخزي إلّا ابتغاء الوسيلة عند أهل العزة فتقص الوسيلة ربما تفتح بمفتاحها باب الفرج أمامك:

يقول تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾[٣].

اقــتضت المشـيئة الالهـية ان تـرتاد ذلك الحـمام ابـنة السـلطان ووصيفاتها وتفقد فيه شيئاً من مجوهراتها. راح رجال السلطان يبحثون

---

١ ـ معناه:

ـ «كان لسنين يعمل دلاكاً ولم، يكن لأحد إلى حال ذلك الشهواني التفاتاً».

٢ ـ معناه:

ـ «اخترق ذلك الدعاء السماوات السبع، حتى آل أمر ذلك المسكين في النهاية الى خير».

٣ ـ سورة المائدة، الآية ٣٥.

عنه في كل مكان ولما فشلوا في العثور عليه أغلقوا باب الحمام وراحوا يجردون خدم الحمام من ألبستهم:

پس بجد جستن گرفتند از گزاف
در دهان و گوش و اندر هر شكاف[١]

لما نودي بالخدم ليتعروا عن ملابسهم اعتزلهم نصوح خائفاً. كان يرى بأم عينيه سره يُكشف عن اللثام بعد كل هذه السنين، فيفتضح أمره عند خلق الله أجمعين. كان يرى الموت محدقاً به فناجىٰ ربه مناجاة ومناجاة وتمسك في موقف خوفه وهلعه بعروة باب الرحمن:

اى خدا آن كن كه از تو من سزد
كه زهر سوراخ مارم مى‌گزد
وقت تنگ آمد مرا و يک نفس
پادشاهى كن مرا فرياد رس
گر مرا اين بار ستّارى كنى
توبه كردم من زهر نا كردنى[٢]

---

١ ـ معناه:

ـ «بدأوا البحث بجد وقدرة، حتى في الأفواه والآذان وداخل كل ثغرة».

٢ ـ معناها:

ـ «الهي! إفعل بي ما أنت له أهل، فالثعابين تأتيني من كل ثغرة لاذعة»

ـ «ضاق بي الوقت فأرني سلطانك للحظة واسعفني»

ـ «فإن تكون ستاراً لي في هذه الدفعة، أتوب إليك من كل ما لا يجوز فعله».

وصل دور التفحص إلى نصوح فجيء به، ارتعدت فرائصه، شحب لونه. ثورته النفسية بلغت ذروتها. وفي هذه اللحظة الحساسة والنهاية الحاسمة تعلق في سره بربه الغفار، فنال منه في آن واحد غايته. العقل كان قد ذهب عن رأسه والقوة عن بدنه ولكن على حين غرة نودي في الحمام: لقد عثر على الجوهرة المفقودة:

هرچه كردم جمله نا كرده گرفت
طاعت ناورده آورده گرفت[1]

كانت توبة نصوح في هذه المرة توبته النهائية، فسرعان ما اعتزل الخلق وترك عادته المذمومة. وبعد مدة قضاها تائبا عابداً خاشعاً سلم روحه إلى بارئها والتحق بربه الستار الرحمن.

عسىٰ أن تزيدك هذه الحكاية لوعة، وتضفي على عزمك وهمتك لما نويت عليه رسوخاً. إني لأَعلم وأثق بأن ربنا ستار والتائبين للورود على حضرته في انتظار. هكذا تسير أمور الخلق.

---

١ ـ معناه:

ـ «ما كان من فعلي جعله كأن لم يكن، وكتب لي كل طاعة لم آتها».

«حذارِ من فوات الأوان»

ايها العزيز!

(أولاً): تعرف أن فرصة العمر قصيرة، وقافلة الحياة في حركة متواصلة ومواقيت الرحيل مجهولة، فأنت يا من تسوّف في أمر توبتك وتؤجلها لغدك! أنّى لك أن تعلم أن لك مستقبلاً بعد اليوم؟ فقد لا يتلو اليوم غد، فلماذا لا يكون اليوم هو ذلك اليوم، يوم الإنابة إلى الله:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدّلاً
وأصبحت في يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة
فثن بإحسان وأنت حميد
ولا تؤجل فعل الصالحات إلى غد
لعل غداً يأتي وأنت فقيد[1]

---

١ ـ إرشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ص ١٠٩.

(ثانياً): التمادي في الغفلة وممارسة الإثم يوقعك في لجة تـنسيك ذكر ربك، فتوصد الأبواب في وجهك فلا يكـونن لك بـعدها سـبيل للعودة. ومن آفات الغفلة للغافل تغشي رؤيته. فلا يعود ينظر في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وإن سمعها لا يأبه بها. إلق نظرة إلى نفسك والمحيطين بك لترىٰ كم شخص ابتلي بمثل هذه الورطة؟

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يـؤمنون بـالآخرة حـجاباً مستوراً﴾[1].

فالتنكر للايمان منك والستر والتغاضي من ربك.

فكّر مع نفسك في بعض أوقاتك على الأقل: كيف يختار البـعض طريق السلوك إلى الله، والبعض الآخر لا حظ لهم من ذلك، ويعلمون بوضوح أن بينهم وبين المؤمنين حجاباً، وهو حجاب قائم منذ اليـوم وهم له مستوعبون.

﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾[2].

فما يتوقعون وقد أسدلوا اليوم بينهم وبين الأبرار حجاباً؟ هل يزاح الحجاب غداً في يوم القيامة؟ لا والله، فسوف يمنون أنفسهم في يوم الحساب أن يلقي المؤمنون عليهم نظرة فـيحول هـذا الحـجاب دون

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٤٥.

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٥.

ذلك:

﴿وبينهما حجاب﴾[١].

هكذا سوف تتكون حسرتهم على ما بينهم وبين الطيبين من حجاب، ولكن حسرتهم على احتجابهم عن ذات الباري المقدسة لأكبر وأعظم.

﴿كلا، انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[٢].

واعلم أن هنالك فوق ذلك بلاء أسوأ وأعتى وهو تخلي العينين والأذنين واليدين عن أداء مهامها فلا أمل فيك بعد ذلك ليكون لك في هذا الموقف درساً وعبرة أيضاً.

إعلم أن الحواس نوعان: ظاهرية وباطنية. ربما سقطت عن الحواس الظاهرية وظائفها ولكن تنشط تزامناً مع ذلك حواس الباطن وللباطن أهمية لا يبلغها الظاهر.

الآن وقد التفت إلى دور الأحاسيس الباطنية والنورانية أنصت إليّ لأحدثك عن كارثة عظمى وهي كارثة فقدان الانسان لهذه الحواس واغتراره بسلامته لِما يرى عليه وضع حواسه الظاهرية وهو المريض المعتل باضمحلال أحاسيسه الباطنية. وما أتعس مثل هذا المريض، لا أمل في علاجه.

يقول تعالىٰ:

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٤٦.

٢ ـ سورة المطففين، الآية ١٥.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، اولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[١].

وهل تعلم ما أسوأ مصير الإنسان إن آل أمره إلى ذلك؟ إذ يختم الله على قلبه وعلى بصره وعلى سمعه ويذهب بها فلا أمل له بالعودة والإنابة من بعد ذلك.

ويصف سبحانه وتعالى وضع هؤلاء في الآية:

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾[٢].

وتعيس الحظ وسيىء المصير هذا لمّا كان قد فقد وسيلة الاتصال بعالم الغيب لا يقدر على رؤية ربه بل يرى نفسه هو وهواها فهما ظاهران له وعالم المعنى غائب عنه. تجده يقنع بعدة سطور من معلومات اكتسبها بنفس هذه الحواس الظاهرية وهو غافل عن كل هذه السعادة واللذة:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾[٣].

فهذا العمى والصمم وغشاوة القلب والغفلة كلها ترتبط باحساس الباطن وإلّا فإنك ترى في الظاهر علامات السلامة بادية إلى حد ما.

---

١ ـ سورة الأعراف، الاية ١٧٩.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٧.

٣ ـ سورة الجاثية، الآية ٢٣.

واحسرتاه وآلاف الحسرات على من شغله هواه وشغفه الخيال فأبعداه الفراسخ والفراسخ عن الحقيقة. إلهي! إني أعوذ بك لنفسي ولقراء هـذا الكتاب الكرام من مصيبة ختم القـلوب والأعـين والآذان. عسىٰ أن تأمن نفوسنا وأرواحنا من مثل هذا البلاء.

الآن وقد بلغنا هذا المجال اسمع إشارة أخرى. إن كنت قد غرقت في لجة الإثم ومالك قوة على انتشال نـفسك تشـبث بـالعِظام. فـفي حكاية نصوح التفت إلى أنه نجا من الذنب بتضرعه إلى عظيم قدر هو ربه.

وإن تعذر ذلك عليك إجهد لتضيء مصباح نور في نـفسك بـعمل صالح، فكما تنشأ الظلمات من الظلام تنبعث الأنوار من النور. عسىٰ أن يظفرك بالرحمة بعض الأعمال الحسنة. فأنت ضيف في دار كريم. تأمل في مصير «فضيل».

«توبة قاطع طريق»

كان فضيل من قطاع الطرق ولكـن.. قـاطع طـريق تـميزه الفـتوة والمروءة، يضرب في جوف الصحراء خيمة ويلبس مسحاً ويضع على رأسه قبعة صوفية ويعلق في يده تسبيحاً. كثر أصـحابه وكـلهم مـن اللصوص الناهبين يقضون أوقات ليلهم ونهارهم في سلب القـوافـل، فيحملون غنائمهم إلى فضيل وهو رئيسهم فيعطي لكل مـنهم نـصيبه ويأخذ منها نصيبه.

ذات يوم حمل الناهبون على قافلة يحمل أحد رجالها بدرة فقرر دفنها، فاعتزل القافلة فوجد على مسافة منها خيمة فيها رجل كـهيئة الزهاد، فعجل نحوه وائتمنه على بدرته و عاد إلى القافلة. ولما فـرغ اللصوص من مبتغاهم وانصرفوا عن القافلة، جاء الرجـل إلى خـيمة الزاهد فرأى، مندهشاً، اللصوص يجتمعون فيها ويقسمون الغنائم.

طلب منه فضيل أن يجلس ولما انتهى من التقسيم قدم البدرة إلى الرجل ودعاه للانصراف.

اعترض اللصوص على فضيل بأن القافلة لم تكن تحمل شيئاً يذكر إلّا هذه البدرة، فلماذا أعادها إلى صاحبها.

رد عليهم فضيل بأن البدرة كانت أمانة عنده ولا تصح الخيانة في الأمانة. فقد أحسن الرجل به ظناً وهو كذلك يحسن ظناً بربه أن يتوب عليه، وقد أصدق الرجل ظنه ليصدقن ظنه بربه.

***

حكايات قصيرة أخرىٰ عن فضيل:

يحكى أيضاً أنه ذات يوم أغار لصوصه على قافلة ولما فرغوا من عملهم وجلسوا إلى الطعام. سأل أحد افراد القافلة عن رئيسهم.

قالوا: ليس معنا. انه يصلي في تلك الخيمة.

قال: ليس موعد صلاة.

قالوا: يصلي النافلة

قال: ولماذا لا يأكل معكم؟

قالوا: إنه صائم.

قال: ليس شهر رمضان.

قيل: إنها أيام صيام مستحب.

أخذت الدهشة من الرجل مأخذاً، فأتى الخيمة ورأى فضيلاً يصلي خاشعاً، ولما فرغ من صلاته حيّاه الرجل وقال:

«الضدان لا يجتمعان»

ويقصد أن الصلاة والصوم لا ينسجمان مع النهب والسلب.

سأله فضيل هل قرأ في القرآن الآية:

﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسىٰ الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم﴾[١].

لم يرد عليه الرجل بل ازدادت حيرته في شأنه.

يروىٰ أنه كان يتعامل بأسلوب عجيب في سطواته فلا يطال أموال النساء ومن خف حمله.

ذات ليلة أرخت قافلة رحالها بالقرب من خيمته. وفي منتصف الليل مر بهم فضيل متخفياً ليقيّم وضع بضاعتها، فتناهىٰ إليه صوت رجل من أفراد القافلة كان يعقب صلاة نافلة الليل بتلاوة القرآن وقد بلغ الآية:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نَزَلَ من الحق﴾[٢].

رفع فضيل رأسه نحو السماء وقال: بلى لقد آن الأوان.

أثرت هذه الآية في نفس فضيل وكأنها نبلاً أصاب قلبه فصيّره على حال مغايرة تماماً، فهبط من الجبل فلقي في الطريق جماعة يتحادثون بأن المضي في الطريق غير ميسور ففضيل يتربص لقوافل فيه، فقال لهم: امضوا في أمان فقد تاب الرجل.

فيا أيها العزيز!

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ١٠٢.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ١٦.

لا أحسبك أثقل عبئاً من فضيل الغائر على القوافل. وحتى لو كنت هكذا فلك أن تختار مثل توبته عند باب ربك الغافر.

يروى عنه كذلك أنه كان في ذمته دَينٌ ليهودي فجاء داره بـاكـياً يطلب منه الحلية فليس لديه ما يدفع به دَينه.

قال اليهودي: اليوم يوم استخفافنا بأتباع محمد. في مزرعتنا تل من الرمال. أنت في حل من دَيني إن رفعته عن مكانه.

قال ذلك وهو يعلم أنه لا طاقة له بمثل هذا العمل.

توجه فضيل إلى المزرعة وبدأ العمل بجسم أصابه الترهل والوهن. وبعد أيام هبت عاصفة شديدة اقتلعت تل الرمال من مكانه.

فيا أيها العزيز!

ألم تسمع أن الله يحب التائب أكثر من عبده الصالح؟ وهل تعجب من أمر رأفته وهو الرؤوف الرحيم بعباده؟!

«هل هو حر أم عبد؟»

«بشر الحافي» هو أحد عباد الله الصالحين. يـذكر فـي التـذكرات حول سبب صحوته أنه كان في سني شبابه كـغيره مـن الكـثير مـن الشباب منشغلاً ليلاً ونهاراً في المـلاهي والمـعاصي، أسكـره شـراب الغفلة دون أن يسخّر قلبه الطيب.

ذات يوم مر بباب داره الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام فتناهت إليه أصداء الرقص والغناء منها. فسأل عليه السلام جارية كانت تقف بالباب:

ـ يا جارية! صاحب هذه الدار حر أم عبد؟

قالت:

ـ بل حر.

فقال عليه السلام:

ـ صدقت. لو كان عبداً لخافَ من مولاه.

ولما سمع بشر هذا الكلام وهو في مجلس الطـرب والفسـاد بـلغ تأثيره فيه أن نهض فوراً فخرج حافياً يتبع الإمام عليه السلام حتى لقيه فتاب

على يديه وعلم أن العبد حر بالعبادة فانتهى أمره أن يكون من أبرار زمانه:

أنت بدورك فكّر: أي شيء مما تملك يعود لك حقاً؟ وماذا تملك من نفسك ولم تكسبه من غيرك؟

يقول تعالى:

﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾[١].

فأبسط مؤشرات بدنك على كونك حياً هي دقات قلبك. فهل تتحكم أنت نفسك بها؟ ماذا تتصور نفسك؟ من أنا ومن أنت فلا أنا أنا ولا أنت أنت. غيرنا يدبّر شؤوننا! أمهلني أسرد عليك حكاية عبد آخر:

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٣.

«هو عبد، فمن أنا»

«سهل التستري» رجل آخر من سكان ديار المحبوب. يسرد حكايته مع غلام كان قد اشتراه فجاء به إلى داره. فسأله عن اسمه؟ قال: ما تسميني به. فسأله عما يأكل؟ قال: ما تقدمه لي. سأله عما يرتدي؟ قال: ما تأتيني به. سأله عما يريد، فقال: وأنّى للعبد أن يطلب؟

يقول التستري أنه قضى الليل حتى الصباح يستغفر ربه ويبكي وهو يردد في نفسه: إن كان هو عبداً، فمن أنا؟

هؤلاء ذاقوا طعم العبودية في حياتهم وما انقادوا إلّا لربهم ولكن الأدنياء طغوا وانقادوا لأنفسهم وهواها فحسبوا أنفسهم أرباباً.

ايها العزيز! ألا تجعل عبودية الله حظاً تتمناه وهذا الإمام جعفر بن محمد، الصادق عليه السلام، يقول:

«العبودية جوهر كنهها الربوبية».

ألا تسمع الإمام عليه السلام ينصحك أن تلتزم العبودية لتكتسب الربوبية.

يقول بعض المحققين أن شرف خاتم الأنبياء يكمن في عبوديته

أكثر مما في رسالته. وحول عبارة «أشهد أن محمداً عبده ورسـوله» يقولون: لما كان شرف العبودية أعظم من شرف الرسالة، تقدم عـليه. وقد قال سيد شباب الوالهين بربهم:

«الهي! كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً»[١].

من هنا كان العارف الكبير عبد الله الأنصاري يردد، إن خاطبه ربه مرة واحدة «عبدي» فسوف يخترق العرش صدى ضحكه طَرِباً.

إلهي! أوثقنا بوثاق عبوديتك، لنكن من عبادك الصـالحين. فـلولا عبوديتنا في ديارك لصرنا عباداً لآلاف الأرباب، وأكثرها تمرداً النفس.

يقول الله عز وجل:

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[٢].

ويل لمن وصفه ربه بأنه أضلُ خلقِه:

﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[٣].

إلهي! ألق سلسلة عبوديتك في أعناقنا، لئلا نخول لأنفسنا عبودية غيرك.

ربما يكون لك منصب ومقام وكذلك حفاوة وتقدير وبهاء، والنفس تهمس لك: إلتزمها، التزم بهذا المنصب والمجاملات.

فياعزيز النفس! هل هنالك أعز من حضرة الله تبارك وتعالى:

---

١ ـ من دعاء «عرفة» للإمام الحسين بن علي (ع).

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٤٣.

٣ ـ سورة القصص، الآية ٥٠.

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[1].

تصور مصير هذه المناصب وانظر ماذا تحمل منها زاداً معك؟

فإن كنت مولهاً بالمناصب تغاض عن فانيها واطلب باقيها. لا تقنع بدنيويها ليتأتى لك أخرويها. ما أخدع المتملقين يحسبونك عظيماً في شأنك وأنت المصغر في قدرتك. يظهرون الحبة قبة ليظفروا منك بفائدة ومنفعة. لا تنخدعن بهم. إجعل وجهتك نحو الله فإن كنت راغباً في العظمة، اعلم أن الأبرار قد ضحوا حتى بمنصب السلطان في سبيله، فهان عليهم ترك عروشهم. فإن صعب عليك تصديقي، استمع إلى هذه الحكاية:

---

١ ـ سورة المنافقون، الآية ٨.

«توبة سلطان»

كان ابراهيم أدهم أحد سلاطين ديار بلخ، تخضع لسلطانه مملكة بأسرها. يتقدمه في تردداته أربعون فارساً مغواراً ويتخلفه أربعون من رجاله يحملون الهراوات.

ذات ليلة كان ابراهيم أدهم نائماً إذا به يسمع وقع أقدام على سطح قصره. هتف يتساءل من على سطح القصر، فسمع صوتاً لم يكن غريباً عنه يجيب: فقدت بعيراً أبحث عنه في هذا السطح.

قال ابراهيم: أيها الجاهل! فقدت البعير في الصحراء وتتقصاه على سطح قصري.

عاد صاحب الصوت يقول من سطح القصر: ايها العاقل! وكيف تطلب ربك وأنت مُكتسٍ ثياباً من أطلس وراقدٌ في سرير ذهبي وثير بين لحاف من حرير؟

ترك ابراهيم سريره وصعد إلى السطح فلم يعثر فيه على أحد. ارتعد قلبه لعظم وقع الحدث فيه، فلم يهدأ روعه وأرق حتى الصباح. ولما

انبلج الصباح وجاء بلاطه وحضره خدمه ورجاله، دخل عليه رجل لم يدعه فوقف إلى عرش ابراهيم.

قال ابراهيم:

ـ من انت حتى ترد علينا دون إذن منا؟

قال:

ـ رجل غريب أقيم في هذا المضيف؟

قال ابراهيم:

ـ يا رجل هذا قصر سلطاني وليس مضيفاً هل أنت مجنون؟

أجاب الغريب:

ـ لمن كان هذا القصر قبلك؟

ـ لأبي.

ـ وقبله؟

ـ لجدي.

ـ وقبله؟

ـ لجد أبي.

هكذا تواصل السؤال والجواب بينهما حتى سأله الرجل:

ـ أين ذهب هؤلاء؟

أجابه إبراهيم:

ـ الجميع قضوا نحبهم.

قال الرجل:

ـ إذاً، هذا المكان ليس مثوى أبدياً بل داراً يُلبث فيها لساعات ثم لابد من الرحيل! قال هذا وغاب عن الأنظار.

يذهب البعض إلى أن هذا الرجل كان النبي الخضر عليه السلام.

يروىٰ أن ابراهيم أدهم خرج من قصره بحجة الصيد ولم يعد إليه قط، فقد ترك سرير ملكه وبلاطه والتزم بسجادة عبادته واتخذ ربه أنيساً له لما تبقى من حياته وانتهى أمره أن يغدو أحد عرفاء زمانه مسجلاً بذلك لنفسه سلطاناً حقيقياً.

«تنويه من ابراهيم أدهم»

حضر باب دار ابراهيم ادهم يوماً مذنب مضطرب الحال فأخبره أنه أتىٰ على نفسه بظلم كثير فلينصحه بما يجعله لنفسه نهجاً ونبراساً.

قال له ابراهيم: إن تعاهدت معي على شروط ستة تنفذها لا يضرنك شيء أبداً بعدها مهما فعلت.

الأول: إن عزمت على اتيان معصية لا تتذوقن من رزق الله يومها.

قال الرجل: كل ما في العالم رزقه هو: فمن أين آكل؟

قال ابراهيم: وهل يجوز أن تأكل رزقه وأنت تعصيه؟!

***

الثاني: إن عزمت على اتيان معصية إذهب الى حيث لا يكون ملكه.

قال الرجل: وهذا كلام أصعب، فالمشارق والمغارب كلها ملكه، فأين أذهب؟

قال ابراهيم: أيحسن أن تسكن ملكه وتعصيه؟!

الثالث: إن عزمت على إتيان معصية. إلجأ إلى حيث لا يراك.

قال الرجل: وأين مثل هذا المكان وهو البصير بكل انسان؟

قال ابراهيم: وهل يحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن ملكه وتعصيه وهو ينظر إليك؟!

***

الرابع: لما يحضرك ملك الموت تمهله حتى تأتي التوبة.

قال الرجل: ومن يقبل بمثل هذا الكلام؟

قال ابراهيم: فلما كنت عاجزاً من رده عنك، فالأجدر بك أن تأتي التوبة قبل حضوره بل تأتيها اللحظة.

***

الخامس: لما يحضرك منكر ونكير اطردهما.

قال الرجل: لا يكون لي ذلك.

قال ابراهيم: إذاً، خذ عدتك للإجابة عليهما.

***

السادس: لما ينادىٰ غداً في يوم النشور أن ينساق المذنبون إلى نار جهنم، قل: لا أذهب.

قال: لا يكون لي ذلك.

فكر الرجل هنيهة ثم تاب على يد ابراهيم، وكان ذلك قبل ستة

أعوام من رحيله عن الدنيا[١].

***

وأنت أيها العزيز!

تنبه أن رحيلك وشيك، تعمق في هذه النصائح ولما تـعتزم اتـيان خطيئة تذكرها، لتكن لك أنت الآخر نبراساً ونهجاً.

١ـ هذه النصائح وردت في بعض الكـتب نـقلاً عـن الأئـمة (ع) ولكـن الشـاعر الايراني العطار ينسبها في كتابه «تذكرة الأولياء» الى ابراهيم أدهم.

«بشر الحافي»

رحلة التوبة ساقتك إلى هذا المقام. عسىٰ أن تكون وصلت إلى هذه المحطة مختاراً. لا أطلب إعياءك بل أن أزيد لوعة حبك تأججاً. فقد أخبرتك أن سلوك هذا الطريق يتطلب لوعة تمدك بالطاقة لحركتك وبالنار ضياء تستهدي به في دربك. دعني أحدثك ثانية عن بشر الحافي:

هو من أهل «مرو» ولكنه توفي في بغداد. يروىٰ أنه لمح ذات مرة قصاصة ورق كتبت عليها عبارة «بسم الله» مرمية على قارعة الطريق يطأها المارة.

ثارت حمية الرجل فرفع القصاصة من الأرض وأخرج مطيبته من جيبه فعطرها وقبّلها ووضعها في شق بجدار.

في نفس الليلة رأىٰ في المنام مناديا يقول له: طيبت اسمي فلأنشرن صيتك طيّباً في كل مكان في الدنيا والآخرة.

انظر إلى الحب وآثاره، فقد ذاع صيته في زمانه، وصار من العرفاء

الواهين بحضرة الحق تعالى.

يروىٰ أنه مر بجماعة يتحدثون عنه ويقولون بأن بشراً لا ينام الليل أبداً وأنه لا يفطر من صومه لثلاثة أيام إلّا يوماً واحداً. بكىٰ بشر فسئل: ماذا يبكيك؟

أخبرهم بشر أنه يأوي إلى الفراش كل ليـلة ويـفطر مـع غـروب الشمس في كل يوم يصومه وقد بكىٰ لأنه رأى أن من أتى عملاً في سبيل الله يضاعف الله قدر عمله زيادة على لسان النـاس. ثـم أردف يقول أن نظره إلى فعل الله ولطفه في عباده اسال دمـوع الوجـد مـن عينيه.

روى بشر أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه فسأله ﷺ هل يعلم أن الله قد جعله أعز من القرآن. أجاب: لا. فقال ﷺ بأنه طبّق سنته وحفظ حرمة أبرار أمته ونصح أخوته في الدين وأحب أصحابه وأهل بيته. وهذه الأفعال دفعته إلى منزلة الأبرار.

فكم من عبد فارٍ أولى ظهره لمولاه وحضرته فألقىٰ بنفسه في مغبة المحن. يأتي داره ويقف على عتبتها برهة ويعود أدراجه برهة. الندم على ما فعل يلازمه ولكن شهامة العودة تنقصه. ربما دق الباب ففُتح له على مصراعيه وصارت الإنابة نصيبه وهو النافر مما كان من أفـعاله. عسىٰ أن يداخلك مثل هذا الشعور فتعقد العزم على العودة.

«رحلة التوبة»

ايها العزيز! هل انقطعت عن صديق ما حتى الآن؟ هل حـدث أن تركت معاشرة أحد معارفك فصار إن رآك تسير في طريق تجده يختار طريقاً آخر، وإن لقيته في سبيلك أشاح عنك بوجهه؟! وقد يأبىٰ عن رد تحيتك. هذا هو سلوك المعارف!

ولكنك منذ أوليت ظهرك لحبيبك وأشحت بوجهك عنه. صار طوال هذه المدة يتعقبك ويناديك أن عُد، عُد إلى سبيلك، ويكثر في خطابه الكريم القول لأمثالك أن: توبوا، توبوا.

وهو القائل: ﴿ففروا إلى الله﴾[1].

فحضرته الكهف المنيع ولكنك إن لم تختر الفرار إليه متى ما وجبت إنابتك إليه، اعلم أنك سوف تفر إليه يوم يتعذر عليك لقاؤه.

﴿يقول الإنسان يومئذ اين المفر﴾[2].

---

١ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٠.

٢ ـ سورة القيامة، الآية ١٠.

ولما كان يعلم بمصيرك هذا فإنه تواق لتوبتك وهو القائل:

«لو علم المدبرون عني كيف اشتياقي لهم وانتظاري إلى توبتهم لماتوا شوقاً إليّ وتقطعت أوصالهم»[١].

فكيف لك أن تسلك إزاءه هكذا بجفاء وهو يريد لك كل هذه النعماء؟ يمد إليك يد نصرته، فتأبىٰ أن تمد إليه يدك. يعدك ستراً وتمتطي صهوة الذنب علناً. يبشّرك بغفران الخطيئات وتزداد جرأة في الهفوات والزلات. فمتى تعود إلى عقبك وتفتح أبواب قلبك لحبيبك.

سرد عليك حكاية جدك آدم، وتحدث إليك عن رأفته به لعله يصيّره أسوة لك:

﴿فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[٢].

قص عليك ما كان من أمر النبي موسىٰ ﷺ وعهده بعدم عودته إلى مثل ما سبق له من القول ليكون لك في حكايته عبرة ودرس:

﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾[٣].

عسىٰ أن تصحو أنت أيضاً من غفلتك وتنوب إليه فيتوب عليك.

حكىٰ لك عن النبي يونس ﷺ وتوبته لتنهل العبرة من قصته:

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن

---

١ ـ عن كتاب «لقاء الله»، ص ١٤٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣٧.

٣ ـ سورة الأعراف، الاية ١٤٣.

لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[١].

قص لك الحكايات والحكايات عن الأبرار، عساك أن تتأمل في أحوالهم. فمن هم الأبرار يا ترى؟

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[٢].

فإن كنت راغباً في الظفر بهذه البشرى تقدم الخطوة الأولى من الآية واقطع الشوط الأول في هجرتك إليه بالتوبة. فمالك نصيب من نجاح في خطواتك اللاحقة، بحسب الآية، إن لم تستقم توبتك في خطوتك الأولى، فأنت متى ما تصحو من غفلتك تجدك مراوحاً مكانك.

أما نظرت الى حصان الزيات تعصب عيناه صباح كل يوم فيسير الساعات تلو الساعات طوال نهاره حتى الغروب. وقد يخيل إليه أنه في مرتع يانع ريان، ولما ترفع العصابة من عينيه مساء يرىٰ فجأة أنه للأسف ما زال في نفس مكانه رغم كل هذا السير بفارق أنه بدأ سيره في صباح مضيء وهو الآن لا يرى إلّا ليلاً معتماً.

عسىٰ أن لا ينتهي مصيرنا إلى مثل هذا، فتتفتح أعين بصيرتنا في عتمة حفرة قبورنا فنرىٰ أنفسنا أتعس حظاً من نقطة انطلاقنا!

قلنا أن التوبة تعني الإنابة.. وقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى مفهومها في الآية:

---

١ ـ سورة الانبياء، الآية ٨٧.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ١١٢.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾[١].

ولكن لا توبة لك ما لم تستبدل السيئات بالحسنات.

فإن كنت سوغت ظلماً في حق نفسك أو الآخرين فلا تقنط وتب عنها فقد قال عز وجل:

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه. إن الله غفور رحيم﴾[٢].

فإن غرّك الشباب وعصيت ربك وخرجت عن أمره جهلاً، فلا بأس عليك فإنه القائل:

﴿ومن عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾[٣].

ولك من كتابه البشرى إن كنت قد تهاونت في صلاتك واتبعت هوى نفسك فاستمع:

﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾[٤].

وحتى الزاني أدعوه ليفتح القرآن ويقرأ فيه:

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٧١.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٣٩.

٣ ـ سورة الأنعام، الآية ٥٤.

٤ ـ سورة مريم، الآيتان ٥٩ و ٦٠.

﴿ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يُبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1].

وإن كتمت حكم الله وعرقلت سلوك السائرين إليه وأوصدت بوجههم أبواب الهدى، فقر عينك وبشر قلبك بالآية:

﴿إن الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلّا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فاولئك اتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾[2].

ولأزداد توغلاً في وادي المذنبين، أقول: حتى إن كنت مناوئاً لله وحكمه لا تيأس من رحمته واعقد أملك في الآية:

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا.. إلّا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾[3].

دعنا نقول أن السيئات تتضمن الذنوب جميعاً وقد قال عز وجل:

﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾[4].

---

١ ـ سورة الفرقان، الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

٣ ـ سورة المائدة، الآيتان ٣٣ و ٣٤.

٤ ـ سورة الأعراف، الآية ١٥٣.

فإن كان ربك قد نادى جميع المذنبين ودعاهم أن لا ييأسوا من رحمته، فأنىٰ للنفس أن تهمس فيك مموهة والشياطين موسوسة بأن الأبواب بوجهك مغلقة وأنت تقرأ وعد من لا يخلف وعده:

﴿قُل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾[١].

يرى الباحثون أنه ليس للمذنبين أفضل من هذه البشرى القرآنية. إنها دعوة خاصة وجهت إلى كل من تجرأ على اقتراف الذنوب دون أن يستثني الله منها ذنباً. فمن ذا الذي يسعه أن يبث في نفسك القنوط من نيل الاستجابة من حضرة هذا الكريم؟!

---

١ ـ سورة الزمر، الآيتان ٥٣ و ٥٤.

«حب الله للتائب»

عزيزي التائب! لتعلمن مبلغ حب الله لك، إقرأ الآية:

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[1].

إنك عندما تصل أحد معارفك بعد انقطاع، يواجهك مراراً بما كان من قسوتك، ويمطرك بوابل عتابه، ويتحدث عن جفائك.. ولكن الموقف هنا غير ذاك الموقف. فابدأ أولاً بشكر الله وحمده على أنه أفاض عليك بخلاصك من دار الشيطان وبلوغك دار الرحمن.

قال تعالى:

﴿من تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾[2].

ثم فكر بمدى حب صاحب الدار لك وهو يأبىٰ أن يلومنك على خطاياك في الدنيا والآخرة، ويستر ذنوبك عند الآخرين ـ وحتى عند الملائكة الموكلين عليك ـ. ولتتوثق من هذا المبدأ تماماً، إصغ لكلام

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٧١.

الإمام الصادق عليه السلام حيث يروى عن معاوية بن وهب:

«سمعت ابا عبد الله (ويقصد الإمام الصادق عليه السلام - يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه. فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[١].

وجاء في حديث آخر:

«إن الله عز وجل أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها:

١ - قوله عز وجل: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[٢] فمن أحبه الله لم يعذبه.

٢ - وقوله: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾[٣].

٣ - وقوله عز وجل: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلّا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً

---

١ - الكافي، ج ٢، كتاب الكفر والايمان، ص ٤٣٦.

٢ - سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

٣ - سورة غافر، الآية ٧.

صالحاً...﴾[١].

وهل تبغي خصالاً أفضل من هذه الثلاث؟ فبم أحدثك في شأن حب الله لك؟ وماذا عساك أن تسمع مني؟

إقرأ الحديث التالي وردده مع نفسك مرات ومرات ففيه نداء لعلى التائب أن يطرب له حتى يحلق سروراً إلى السماء العلىٰ.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها. فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[٢].

فسرور العاثر على راحلته إنما هو لنفسه عسىٰ أن تنجو روحه بفضل الزاد والمركب أما سرور الله وهو الغني عن الجميع فإنه لك وبك، فهل لك إزاء هذا الرب أن تقدر حبه وتتقدم خطوة نحو الأمام اليه فتترك الجفاء وتعتصم بالوفاء؟

وأنت الذي تتمادى في حب نفسك، تجهد كل هذا الجهد لرعاية جسمك الفاني، وتحرص على إزالة التلوثات عنه، وتزور الطبيب بمجرد التفاتك إلى أبسط مؤشرات المرض فترضى بأخذ الدواء المر، أليس حري بك ان تطلب العلاج وتتعاطى الدواء لروحك الأزلية؟

دعني أقرأ عليك حديثاً آخر حول مثل هذا النوع من الدواء

١ ـ سورة الفرقان، الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

٢ ـ الكافي، ج ٢، كتاب الكفر والإيمان، باب التوبة، ص ٤٣٥، ح ٨.

والعلاج:

«لكل شيء دواء ودواء الذنوب الاستغفار».

ولتحببن الله مثلما يحبك ولا توليه ظهرك إدباراً استمع إلى هذه الحكاية لتفهم مدى حبه لك:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن آدم عليه السلام قال: يا رب سلطت عليّ الشيطان وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم جعلت لك أن من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت حسنة فإن هو عملها كتبت له عشراً، قال: يارب! زدني، قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر لها غفرت له، قال: يارب زدني، قال جعلت لهم التوبة..»[1].

هذا ما وعدك الله به وهو يكلم جدك النبي آدم عليه السلام: فرصة ممتدة للتوبة حتى تبلغ النفوس الحناجر. فما هو نهجك مع مثل هذا الرب؟

لا أعلم هل قصدت الصيد حتى الآن؟ حتى إن لم تكن فعلت فقد سمعت أن الصياد قد يقضي الساعات أو حتى الأيام متربصاً بالفريسة مختاراً السكوت بل السكون والكف عن الحركة أحياناً لعله يظفر بالصيد. فهل تعلم أن الله بانتظار توبتك طوال فترة حياتك؟ اسمع الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام وهو يردد في دعاء أبي حمزة الثمالي:

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، كتاب الكفر والإيمان، باب: فيما اعطى الله عز وجل آدم (ع) وقت التوبة، ص ٤٤٠، ج ١.

«واعلم انك للراجي بموضع إجابة وللملهوفين بمرصد إغاثة».

يقول معاوية بن وهب:

خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متألّه متعبد لا يعرف هذا الأمر (ويقصد ما ينص عليه المذهب الشيعي) يتم الصلاة في الطريق، ومعه ابن أخ له مسلم (أي مؤمن) فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله أن يخلصه. فقال كلهم: دعوا الشيخ حتى يموت على حاله فإنه حسن الهيئة.

يردف معاوية أن ابن الأخ لم يصر على رأيهم فقال: يا عم ان الناس ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ إلّا نفراً يسيراً وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كان لرسول الله ﷺ وله بعد رسول الله الحق والطاعة. ثم سأله عن رأيه في ذلك فتنفس الشيخ وشهق فقال: أنا على هذا وخرجت نفسه.

يقول معاوية:

فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام على أبي عبد الله عليه السلام فقال: هو رجل من أهل الجنة. قال علي بن السري: إنه لم يعرف شيئاً من هذا غير ساعته تلك! قال: فتريدون منه ماذا؟ قد دخل والله الجنة»[١].

فهمت مما سمعت ضمن هذا الحديث أنه لابد من التمرد على الهوى والإقبال نحو الله ما دامت الروح تتردد في الإنسان، فقد يحين

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

موعد الرحيل فجأة وتفوت فرصة الإنابة. ففي روضة الكافي نقرأ المواعظ التي حبا الله سبحانه وتعالى النبي عيسىٰ عليه السلام بها بقوله عز وجل:

«يا عيسى! تب إلي، فإني لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأنا أرحم الراحمين. اعمل لنفسك في مهلة من أجلك قبل أن لا يعمل لها غيرك. واعبدني ليوم كألف سنة مما تعدون فيه. أجزي بالحسنة أضعافها. وإن السيئة توبق صاحبها. فامهد لنفسك، في مهلة ونافس في العمل الصالح. فكم من مجلس قد نهض أهله وهم مجارون من النار.

يا عيسى! ازهد في الفاني المنقطع وطأ رسوم منازل من كان قبلك، فادعهم وناجهم. هل تُحس منهم من أحد وخذ موعظتك منهم، واعلم انك ستلحقهم في اللاحقين»[١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ترديد الدعاء:

«اللهم اغفر لي كل ذنب، وتب عليّ، إنك انت التواب الرحيم».

ويروى:

«أن إبليس قال: وعزتك لا أزال أغوي ابن آدم إلى المعصية ما دامت الروح في بدنه، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أمنعه التوبة حتى يغرغر بروحه»[٢].

فإن كان للإنسان همة فليصحو بها قبل انتهاء فرصة العمر ويقبل

---

١ ـ روضة الكافي.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٦، ص ١٦.

على ربه العزيز الكريم.. وإلّا فلا خير فيه ويحل الموت به فجأة وتختتم فرصة حياته بسلسلة أحداث توبته القسرية، وهم الذين وصف الله تعالى حقيقة سلوكهم بقوله:

﴿ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾[١].

بعض الأحباء والأصدقاء لم يفهموا مفهوم الصحبة والصداقة ولم يألفوا تطبيق آداب الصداقة ولكنهم يذكرون الأصدقاء بين الفينة والأخرىٰ ثم يولون الأدبار فلا تعود تقفو لهم أثراً. يقول الشيطان: ما دمت لا تقوى على ترك المعاصي كم لك أن تتشبث بالتوبة. لا تطرق بابها ودع عنك هوس اللقاء بعد هذا. ولكن افهم أن دق الباب هذا هو شرط اللقاء. فلك أن تؤوب مهما أشحت عنه بوجهك. ففي مآبك تكمن الف إشارة وإشارة.

اسمع مني هذا الحديث:

قال رجل: يا رسول الله! إني أذنبت

فقال: استغفر الله.

فقال: إني أتوب ثم أعود.

فقال: كلما أذنبت استغفر الله.

فقال: إذن، تكثر ذنوبي.

فقال له: عفو الله أكثر فلا تزال تتوب حتى يكون الشيطان هو المدحور.

---

١ ـ سورة الأنعام، الاية ٢٨.

وقال: إن الله تعالى أفرح بتوبة العبد منه لنفسه. وقد قـال: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾[١].

كما قال رسول الله ﷺ:

«ما من عبد أذنب ذنباً فقام وتطهر وصلى ركعتين واستغفر الله إلّا غفر الله له. وكان حقيقاً على الله أن يقبله لأنه سبحانه قال: ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[٢].[٣]

وقال:

«إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، فقيل: وكيف ذلك يا رسول الله ﷺ قال: يكون نصب عينيه لا يزال يستغفر منه ويندم عليه فيدخله الله به الجنة. ولم أر أحسن من حسنة حدثت بعد ذنب قديم. إن الحسنات يذهبن بالسيئات، ذلك ذكرى للذاكرين».

وماذا تتصور؟ وهل للمريض، المتهرب من الطبيب والدواء، علاج وسبيل إلى معاودة الصحة والسلامة؟ وهل لك ان تكدس التلوثات على بعض على قدم وساق دون أن تكون بحاجة إلى الاستحمام والاتساق؟ أخشىٰ أن تتمادى في استزادة التلوث حتى تنظر إلى نفسك فتفتقدها وسط هذه التلوثات. ألق نفسك في نهر التوبة واغتسل بمياهه المطهرة لتتذوق الصفاء وتلتزم الوفاء فتتقصى غايتك وتهتدي

---

١ ـ إرشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ص ١٠٧.

٢ ـ سورة النساء، الآية ١١٠.

٣ ـ الوسائل، ج ١١، ص ٣٦٣، ح ٣ ومجموعة ورام، ج ٢، ص ٢٢٣.

لخالقك. فللمَخزيين في ترعة التوبة طهر وشرف وانتقاء وللمتدنسين في ضفاف نهرها نقاء.

فلو لم تكن قد عقدت النية لخوض الرحلة بعد تعمق في الحديث التالي:

قال رسول الله ﷺ:

«إذا أذنب العبد ذنباً كان نكتة سوداء على قلبه فإن هو تاب وأقلع واستغفر صفا قلبه منها وإن هو لم يتب ولم يستغفر كان الذنب على الذنب وذلك قوله ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ يعني غطّى»[١].

ايها العزيز!

إلى متى تسمح للقلب أن يستدرجك وراء هواه بلا هدى ونفسك تموه لك أنك سالك على صراط مستقيم، فاعلم، أنك لن تنال من هذا الاهتداء رشاداً.

وكيف لك أن ترضى بترك مائدة الكريم متضوراً من جوع؟ أو أن تذهب إلى ضفاف نهر عظيم فتعود ظمآناً؟ عنقاء السعادة لا يزال يدعوك وأنت تسلم مقاليد سمعك لنعيق غربان نفسك:

﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾[٢].

ايها العبد الآثم انت لست قدحاً تصدع فلا يبلغ ثمنه الأول إن جبّر بل قدح تلوث وبالتوبة يعود لسابق عهده بل لأفضل من ذلك حيث

---

١ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ص ١٠٨، في التوبة وشروطها.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٤٣.

قال رسول الله ﷺ أن التائب حبيب الله وأن التائب عن الذنب كمن لم يذنب قط.

وجاء في حديث آخر أن الله عز وجل قال للنبي عيسى ابن مريم عليه السلام:

«يا عيسى كم أطيل النظر وأحسن الطلب والقوم في غفلة لا يرجعون تخرج الكلمة من أفواههم لا تعيها قلوبهم يتعرضون لمقتي ويتحببون بقربي إلى المؤمنين، يا عيسى ليكن لسانك في السر والعلانية واحداً وكذلك فليكن قلبك وبصرك، واطو قلبك ولسانك عن المحارم وكف بصرك عما لا خير فيه فكم من ناظر نظرة قد زرعت في قلبه شهوة ووردت به موارد حياض الهلكة، يا عيسى كن رحيماً مترحماً وكن كما تشاء أن يكون العباد لك وأكثر ذكرك الموت ومفارقة الأهلين ولا تلهُ فإن اللهو يفسد صاحبه ولا تغفل فإن الغافل مني بعيد واذكرني بالصالحات حتى اذكرك. يا عيسى تب إلي بعد الذنب وذكِّر بي الأوابين وآمن بي وتقرب بي إلى المؤمنين ومرهم يدعوني معك وإياك ودعوة المظلوم فإني آليت على نفسي ان افتح لها باباً من السماء بالقبول وأن أجيبه ولو بعد حين».

استهوتك نفسك فتنكرت لحبه لك. حري بك أن تتلقىٰ من نفورك نفوراً وتتهاوى جراء طيشك في هاوية أحزانك وهمومك. وأي بلاء أعظم من مثل هذا السلوك الطائش؟!

تأمل سلوكك. في لحظة خطيئتك رجحت مختاراً الهفوة على ما فرضه عليك أمراً. كان يرقبك وانت تلج دياجير الإثم بإرادتك. وهبك

الثروات تنفذ بها تجارة ومعاملات ولكنك استغللتها خلافاً لأمره في مشاغب ومتاهات وما زلت لم تقرر تدارك السيئات.

فيا ايها العزيز! إن توجهت إلى الله سلوكاً، أرفقني ننتقل بين المنازل صعوداً، منازل تجعلك للقاء الحق أهلاً وتهديك السعادة أبداً. فإن كانت لك في ذلك رغبة اتخذ نحوها هذه الخطوة. فكيف لك أن تحل في ساحة قدسه ضيفاً وأنت تراوح في مكانك عاجزاً؟

فإن كنت مولهاً بلقائه ووصاله انفر مما قيل لك والتزم بما يليق بك. اشدد للهمة حزاماً واسلك إليه طريقاً. فلا بقاء لك في عتمة وادي الآثام والضلال. شمسه أشرقت بنورها الوضاء وأنت ما زلت تغط في نومك وكأنك ارتضيت لنفسك الفناء!

ومما نصح به رسول الله ﷺ أبا ذر:

«يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمس:

ـ شبابك قبل هرمك،

ـ وصحتك قبل سقمك،

ـ وغناك قبل فقرك،

وفراغك قبل شغلك،

ـ وحياتك قبل موتك»[١].

---

١ ـ عين الحياة، ص ١٤٠.

منازل التوبة:

«المنزل الأول»

«الصحوة»

هل حدث أن تفكر بالخلاص قبل الوقوع في المطبات وأن تـنقذ ثروتك قبل الإفلاس؟ فهذه الثروة، هي ثروة عمرك. وهذا الخلاص هو صحوتك. تذكر كم لك من العمر؟ اطبق جـفنيك وحـلق فـي أجـواء ماضيك، تراه مر مرور السحاب وصار حلماً وخيالاً. تصور أن لك أن تحيا مثل هذا من العمر فسوف يكون هذا الآخر حلماً وخـيالاً ليس إلّا:

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾[1].

فلما كان العمر والحياة هكذا حلماً وخيالاً، حري بك أن تصحو من نوم الغفلة. من هنا نجد رسول الله ﷺ ينصح أبا ذر قائلاً:

«يا أبا ذر! إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآيتان ١١٢ و ١١٣.

محفوظة والموت يأتي بغتة. ومن يزرع خيراً يوشك ان يحصد خيراً، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع».

لهـــفي عـــلى عـــمر ضـــيّعت أوله
وغَـــال[١] آخـــره الأســـقام والهـــرم
كم اقرع السن عـند المـوت مـن نـدم
وأيـــن يـــبلغ قـــرع الســـن والنـــدم
هـــلا انـــتهيت ووجـــه العـــمر مـقتبل
والنـــفس فـي حـدة والعـزم مـحترم[٢]

عسى أن يكون لكل ما انساق من كلام وقع في قـلبك وضـميرك ليثمر صحوتك. فهذه هي الخطوة الأولىٰ. فليس للنائم سير وسـلوك، وإن سار فإنه لا يميز درب الهناء من درب الشقاء.

سردت لك حكاية الشاب نابش القبور، تذكر مبعث تـهافته عـلى التوبة والتجائه أربعين يوماً إلى الجبل. لم يكـن ذلك إلّا صـحوته. لم يردع فضيل السلاب من السلب إلّا صحوة نال حـظه مـنها بسـماعه الآية:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[٣].

---

١ ـ غال، غاله أي أهلكه وأخذه من حيث لم يدر (لسان العرب).

٢ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ص ٩٧.

٣ ـ سورة الحديد، الآية ١٦.

فهل لم يأن أوانك أنت؟ فإن كنت تشعر به قد آن تشبث به، فاللحظة لحظة ميمونة. اصح وفكر، فالزمان ماض سريعاً. انصت إلى صوت ساعتك؟ إنه وقع أقدام العمر يمضي، فما أسرع خطاه!

فإن ظفرت بمثل هذه الصحوة، فاعلم، أنها البارقة الأولى التي تظهر في قلب السالك. فإن أهملتها، انكفأت وإن جهدت أن تنمِّيها، أحجب في قلبك غلياناً ثم ثورة.

كن بانتظار ظهور هذه البارقة. فكر بها. احسب أولاً نِعَم الحق تعالى عليك ولا تعتبر الدنيا، كما نوهنا لك، لعباً ولهواً. كن واثقاً أن لخلق الإنسان غاية وهدفاً. ولما تتنبه لهذه الحقيقة عد للتفكير بما صدر عنك فيما مضى من قصور وتهاون. فكم أهدرت من عمرك سدى ثم اعقد العزم على تدارك ما فاتك. فإن اندلعت في قلبك نيران هذا الحب، اعلم انك تجاوزت المنزل الأول ووقفت على أعتاب المنزل الثاني.

«المنزل الثاني»

«القيام»

يقول تعالىٰ:

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله﴾[1].

الأساس في المنزل الأول هو التفكير وتفعيل الارادة، وفي المنزل الثاني السير والحركة. ولَتعلمن أن المحرك هو الله، والحركة إليه، فمنطلقك ومبدأ حركتك منه ولكنك ألجمت نفسك وكبلت ارادتك. فالنفس والذات هي نقطة الانطلاق. ما كان منك حتى الآن إلّا حب الذات والتفاني في الذات والانصياع لأمر الذات، فدعها وانتهج منذ اللحظة حب الله والتفاني في الله والانصياع لأمر الله. فأنت لا تظفر بلقاء الله إلّا بتنكرك للذات ولا تبلغ مشارف البحر ما دمت قانعاً بقطرة ماء. تخل عن ذرات الأرض لتعانق شموس السماء.

---

١ ـ سورة سبأ، الآية ٤٦.

احسب ما انهدر من عمرك حتى الآن تبياناً وسجل تاريخ اليوم تذكاراً. اجعله يوماً تاريخياً تحتفل به سنوياً. فلا سرور وبهجة أعظم من سرورك اليوم، فما انقضى من أيامك راح سدى. ولكن.. اليوم ستكون له ذكرى سارة، ذكرى إقبالك عليه.

صرت مهاجرا سالكاً إليه منذ اليوم. تركت منزل نفسك ونهضت تطلبه.

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[1].

الآن وقد عرفت حقيقة نفسك وحددت وجهتك فلا تتساءل إلى أين المسير؟

اعلم ان هذا الطريق هو طريقك إلى ديار الحبيب، تستهدي السبيل بأنوار وجهه، لا يضيع سالكه دربه أبداً. وكيف يكون ذلك وهذا الطريق هو الصراط المستقيم، صراط تتضرع إلى الله على الأقل عشرات المرات يومياً فيما تؤدي من صلاة أن يهديك إليه، أن:

﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾[2].

ولكن.. لي معك حديث وحديث حول هذا الطريق. تعلم انك لبلوغ أية نهاية لابد أن تسلك أحد طريقين لا غير، أولهما وهو أقصرهما: الطريق المستقيم. والخط المستقيم هو أقصر مسافة بين أية نقطتين.

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠٠.

٢ ـ سورة الحمد، الآية ٦.

وسالكو الصراط المستقيم هم الذين يظفرون بنعمة وصال ربهم. من هنا يقول تعالى بشأن هؤلاء السالكين: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾.

إلهي! إهدنا السبيل إلى صراطك المستقيم.. إلّا أنه هنالك من يولي هذا الطريق ظهره تهرباً من الحق، فيسلك طريقاً يسميه الحق تعالى «طريق المغضوب عليهم». وأما الطريق الثالث فإنه طريق يسلكه التوّاقون للقاء الله ولكنهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم. فما دونه السبل كثرة، لكل سالك أن يسلكها، ولكنها على مسافة أطول وقد يضل سالكها فتنتهي فرصة العمر وما زال الهدف بعيد المنال. من هنا أسماهم الله الضالين. فلتقرأ منذ اليوم الآية التالية في صلواتك من صميم قلبك.. أكرر: من صميم القلب:

﴿إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

والآن اعلم ان السبل جميعاً لله تعالى ولكن لا يهتدي إلى صراطه المستقيم والسبيل إلى دياره إلّا من يحب من عباده:

﴿ولله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾[١].

تتساءل: ماذا أصنع لأهتدي إلى هذا الصراط؟ تشبث بنهجه واعتصم به فإنه بشّرك بوعده:

﴿.. ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[٢].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٤٢.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٠١.

ذكرنا خصائص لهذا الطريق، أولها أنه الأقصر من بين جميع السبل، وثانيها أنه لا ضلال لسالكها، وثالثها أنه سبيلك للقاء ربك:

﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾[١].

ففي هذا السبيل لك أن تلتقي جميع الأنبياء وذرياتهم وهم الائمة الطاهرين عليهم السلام ومنهم الأنبياء زكريا واسحاق ويعقوب ونوح وسليمان وأيوب ويوسف ويحيى وعيسى والياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط وهم من فضّلهم الله على العالمين وأسماهم الصالحين. هذا ما تحدثنا به الآية:

﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾[٢].

تسألني، بالتأكيد، عن علامات هذا السبيل، سوف أحدثك عنها لتعرف ما إذا كنت تسلك هذا السبيل أولاً. فأولى العلامات هي أن تتبع رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخطو مثل خطاه وتلتزم بنهج العبودية. فهذا هو الصراط المستقيم:

﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم﴾[٣].

وقد قال سبحانه وتعالىٰ:

﴿وان اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾.

---

١ ـ سورة هود، الآية ٥٦.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٨٧.

٣ ـ سورة آل عمران، الآية ٥١.

وقال أيضاً:

﴿إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم﴾[1].

مرحى لمن اختار هذا السبيل نهجاً في حياته وتفانى فيه إخلاصاً لربه فنال رضاه. لا يهم إن كان مضيهم فيه متوئداً أم سريعاً، وَلَـهاً أم كرهاً، فقد التحقوا بربهم ولم يعدلوا عن دربهم، فهل لهؤلاء شبه مع المغضوب عليهم، الذين اختاروا طريقاً معاكساً لطريقهم؟

استمع إلى القرآن يرد عليك:

﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشي سوّياً على صراط مستقيم﴾[2].

الآن وأنت تعتزم السفر وشددت رحالك بإذن الله.. أمهلني، أنوه لك بإشارة أخرىٰ. سوف يظهر لك الشيطان منذ اللحظة على هيئة الإنسان سواء في باطنك أو في العالم الخارجي، محاولاً سد الطريق في وجهك، والحيلولة دون مضيك فيه. كن متنبهاً وخاصمه على امتداد مسيرك:

﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾[3].

فكل من صدك عن سلوك هذا السبيل أو عرقل عباداتك واستمالك إلى الخطيئة، كلهم شياطين. تنبه لهم واحذرهم.

---

١ ـ سورة يس، الآيتان ٣ و ٤.

٢ ـ سورة الملك، الآية ٢٢.

٣ ـ سورة الأعراف، الآية ١٦.

قال تعالى:

﴿الذي يوسوس في صدور الناس. من الجِنَّة والناس﴾[1].

وأنت صممت على ترك الشهوات واللذات الدنيوية المنحطة. إستمع إلى الشاعر مولوي يصف سلوكك:

عــروة الوثــقى است ايــن تــرك هــوا

بر كشد اين شاخ جــان را بــر ســما[2]

أيها العزيز!

انك لما تترك الجفاء تفنى في ذات الله ولكن السـبيل إليـه ضـيق محرج والشـيطان يـتربص بك. إجـهد أن لا تـنحرف عـن المسـير، فالانطلاق فيه لا يُعاب عليه بل على العودة والفشل في المضي فيه.

فكل من يُقبل على طريق ما، يكون قد ولى ظهره إلى طريق آخر، فأنت إن لم تحد عن الطريق الذي كنت تسلكه حتى الآن لا يكون لك المضي في غيره. ومن متطلباته تغيير الأصحاب والمعارف، التصورات والفعال، طريقة النوم والأكل، والكلام والكتابة. فالاتجاه اتجاه جديد والمطلوب مطلوب آخر. لقد تركت الجدب وأتيت البستان. هربت من حقل الأشواك والتجأت إلى روضة الأزهار. رائـحة أخـرى تـداعب

---

١ ـ سورة الناس، الآيتان ٥ و ٦.

٢ ـ معناه:

ـ «ترك الهوى هو عروة الوثقىٰ، فبه تعرج نفسك الجامحة إلى السماء العلى».

شامتك وتذوق نفسك طعماً آخر:

﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[١].

تخل عن عاداتك، وعن الأغيار وتوجه إليه وحده. فلا خوف عليك ولا ضرر من هذا القرار، فضررك يكمن في إدبارك عما صممت عليه وأنت لا تعرف أن الفرصة سوف تفسح لك ثانية أم لا:

تـــزود مــن الدنــيا فــإنك راحــل

وبــادر فــإن المــوت لا شك نــازل

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

«المنزل الثالث»

«الاعتراف بالتقصير»

وا عزيزاه!

قلنا: لابد من التخلي عن (الأنا) والتوجه نحو الله. والأنا لا يمكن الانعتاق منها بسهولة. ولكن بالامكان تحجيمها أولاً.

فكلما التفت إلى عظمة الله أكثر ازددت استصغاراً لشأنك إزاءه، وكلما تعاظمت نفسك عندك ابتعدت أكثر من الله. تذكر كم من معصية أتيتها في حضرة الله وعلى مرأى منه ثم فكر في نفسك: ومن أنا ليتسنىٰ لي أن أقدر على عبادته بما يليق به، وقد قال تعالى:

﴿إتقوا الله حق تقاته﴾[1].

ولما كان لا يليق به إلّا مثل هذه التقوى فأنّىٰ لي ولك أن نكون هكذا؟!

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

العبادة لم نأت آدابها تماماً، فكيف لنـا أن نـبرر مـا أجـرينا مـن معصية؟!

ها هو الإمام الكاظم عليه السلام ينصح أحد أبنائه قائلاً:

«يا بني! عليك بالجد، لا تخرجن نفسك من حد التقصير في عبادة الله عز وجل وطاعته. فإن الله لا يُعبَد حق عبادته»[١].

وروىٰ جابر الأنصاري أن الإمام محمد الباقر عليه السلام دعا له قائلاً:

«يا جابر! لا أخرجك الله من النقص و (لا) من التقصير»[٢].

أي أن الامام عليه السلام أراد لجابر أن لا يرى نفسه قط، فعملُ حسابٍ للذات في حضرة الحق تعالى، شرك.

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«إن رجلاً من بني اسرائيل عَبَدَ الله اربعين سنة ثم قرّب قرباناً فلم يقبل منه، فقال لنفسه: ما أوتيت إلّا منك وما الذنب إلّا لك.

قال: فأوحىٰ الله تبارك وتعالى إليه: ذمّك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة»[٣].

وقد قال تعالىٰ:

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾[٤].

---

١ ـ الكافي.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، باب الاعتراف بالتقصير، ص ٧، الحديث ٢.

٣ ـ الكافي، باب الاعتراف بالتقصير.

٤ ـ سورة النجم، الآية ٣٢.

ويروي الفضل بن يونس عن الإمام علي عليه السلام:

«أكثر من أن تقول: اللهم لا تجعلني من المعارين ولا تخرجني من التقصير».

قال: قلت: أما المعارون فقد عرفت ان الرجل يعار الدين ثم يخرج منه، فما معنى: لا تخرجني من التقصير؟

فقال:

«كل عمل تريد به الله عز وجل فكن فيه مقصراً عند نفسك. فان الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصرون إلّا من عصمه الله عز وجل».

فهذا الحاضر هو الزمان الحالي ولكن.. انظر إلى ماضيك فماذا أدخرت مما انقضى من عمرك؟ كم من جهل طفولي وغرور شبابي ووهن كهولي؟ ثلث عمرك استهلكه النوم وثلثاه الغفلة. الآن وأنت تفكر باستغلال ما فضل منه كيف يكون ذلك؟

استمع إلى الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام يناجي ربه:

«يا الهي لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تتنشّر قدماي، وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتى يكل لساني ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك، ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي. وإن كنت تغفر لي حين

استوجب مغفرتك وتعفو عني حين استحق عفوك، فإن ذلك غير واجب لي باستحقاق ولا أنا أهل له باستيجاب...»[١].

كما روى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله:

«لو لم يكن للحساب محولة إلّا حياء العرض على الله تعالى وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوى إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلّا عن اضطرار متصل التلف. ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ويعاين بالقلب بالوقوف بين يدي الجبار حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤول»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«والله ما ينجو من الذنب إلّا من أقرّ به».

ومما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الرجل ليذنب الذنب فيدخل به الجنة».

قال الراوي: قلت: يدخله الله به الجنة؟

قال:

«نعم، إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله،

---

١ ـ الصحيفة السجادية، الدعاء ١٦.

٢ ـ مصباح الشريعة.

فيدخله الجنة»[١].

وعنه ﷺ أيضاً:

«إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير»[٢].

---

١ ـ الكافي.

٢ ـ الكافي.

«المنزل الرابع»

«الندم»

في علمي انك قد سبق لك أن تجلس إلى تجار الأسواق وأصحاب المحلات في أيام تحول أوضاع هذه الأسواق فـوجدتهم نـادمين لا سيما إن كان التغيير فاحشاً.

فالتغيير إن تمثل بارتفاع الاسعار، فإنهم يشعرون بالأسف على أنهم لم يقتنوا، ومن اقتنى منهم على أنه لم يقتن أكثر مما في حوزته منها. وأوضاع سوق التائب هي الأخرى شهدت تـحولاً، فـقد تـغير نـمط معرفته وذاق طعم الأُنس فيقول: لم حرمت نفسي حتى الآن من نعمة هذه اللذة، ولمّا كان قد عرف فظاعة الإثم ودنسه يتلوع بنار الأسف أَن لماذا لوثت نفسي بهذه الأدران.

فالمتسمم بطعام لذيذ قدم له وهو يجهل حقيقته، إلتذ بادئاً بالأكل ولكنه الآن وقد دب أثر السم في بدنه وظهرت مؤشرات تسممه ينفر من كل لقمة تناولها منه. ينبغي لك أن تشعر بمثل هذا الإحساس وأنت

تذكر خطاياك. الجميع يستدخلون هذا الشعور بـعد الوفـاة ولكـن لا طائل لمثل هذا النفور آنذاك أما التائب عنها ها هـنا فـإنه لذو حـظ عظيم.

﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جـنب اللهِ وإن كـنت لمـن الساخرين﴾[١].

ايها العزيز! لحسرتك اليوم رد فعل وأثر، وتأتيك منها منافع ومنافع خاصة إن نشطت تتداركها ولكن.. اعلمن أن هنالك يوم حسرة فات أوان نفعها وانصرم، فلاحيلة لك عندها.

يقول تعالى:

﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾[٢].

فرصة العمر تكون قد انقضت والدنيا أدبرت والأهل والمعارف نأوا. موعد الجزاء اقترب وسجل الأعمال عُـرض. كـل ورقـة فـيه تـزيد الحسرات حسرات والنكبة معاناة وتخرق الصدر بآهات بعد آهات.

﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[٣].

الآن تحر نفسك فإن كنت نادماً آسفاً على ما أسأت من فعالك حط رحالك في هذا المنزل وإلّا فلا حديث لنا معك، فأنت ممن وصفهم الله تعالى في الآية:

١ـ الزمر، الآية ٥٦.

٢ـ سورة مريم، الآية ٣٩.

٣ـ سورة البقرة، الآية ١٦٧.

﴿أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً﴾[١].

فمثل هذا الشخص يعاني من جهل مركب.. فاحمد الله واشكره إنك انتشلت نفسك من هذا الجهل وفكر مع نفسك ليلياً إنك تقف في حضرة الباري تعالى وهو يسألك: ماذا حملت معك زاداً أدخرته في فترة مهلتك خلالها، وعمرك فيما أفنيته وقواك علامَ استهلكتها؟

حرقة الحسرة ولوعة الندم عن اقتراف الذنب تعطيك نوراً مثلما يعطيك المصباح نوراً من احتراق زيته. تلوع بهذه الحرقة على مر أيامك، اصطل بهذه الحمى في لياليك ولسانك يردد باستمرار أن أسأت فيما فعلت. تحدث إلى ربك خجلاً أن أيها الرب الودود:

«إن كنتُ بئس العبد فأنتَ نعم الرب. إن كان قُبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك»[٢].

وأن:

«إلهي إن كان الندم على الذنب توبة فإني وعزتك من النادمين»[٣].

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ٨.

٢ ـ مفاتيح الجنان، من مناجاة النادمين للإمام السجاد (ع).

٣ ـ مفاتيح الجنان، من مناجاة التائبين للإمام علي بن الحسين (ع).

«المنزل الخامس»

«أداء حق الناس»

أدع خالقك أن يغنيك عن خلقه فإن تطرق باب ربك الكريم لأهون من أن تقصد دار عبده اللئيم. ولكن إن كانت في ذمتك حقوق بعض عباده لا حيلة لك إلّا أن تسترضيهم فلا يكتمل أمرك إلّا بنيل رضاهم.

ايها السالك! عاتقك يعجزه حمل عبئك فكـيف بـعبء الآخـرين؟ الماضي فات وأدبر. ونحن على أمل أن تهتدي بهذه الإشارات، فتضع عنك أوزارك. ولكن احترس أن لا تحملها ثانية. فالعودة عنها بالتوبة أصعب من أي أمر آخر. واعلم أن تصفية الحسابات فـي هـذه الدار أهون من تلك الدار. فإن لم تسو هذه الحسابات وصدقت من جهتك في توبتك والتحقت بزمرة الصالحين سوف ترىٰ أصحاب الحقوق في ذمتك، يوم تتهافت على دخول الجنة، يمنعونك من ذلك. تتساءل: من هؤلاء الذين يحولون دون ورودي هذا المنزل الفاتن؟ يقول أحدهم: لك المنزل. ولكنك أخزيتني في دار الدنيا، أعد لي سمعتي واذهب إلى

منزلك. وآخر يقول: أطلبك كذا مقداراً من المال، سدده لي قبل الورود. وثالث يقول: سوغت في اليوم الفلاني كذا ظلماً في حقي، أعد ليَ الحق ثم انصرف إلى دارك.

ماذا يسعك أن تفعل هنالك وقد اشترط عليك ربك رضاهم ليغفر لك؟ ولما لا تحمل إلّا أعمالك الصالحة تسترضيهم بها، تلجأ إليها، ولكن.. إن ثقل الوزر، وخف الذخر تلقى السلاسل في عنقك وتسحب إلى نار جهنم.. وقد تترفع مكانة المتظلمين وأصحاب الديون المتبقية في ذمتك بحسناتك إلى مقام نيل الجنة. فما أتعس مثل هذا العبد حظاً. ذهبت عنه حسناته.. دعهم يسيئون إليك في غيابك كما يروق لهم على أن تحتفظ لنفسك بذخر أكبر في يوم الجزاء.

وفيما قاله الإمام علي ﷺ، يعدد أنواع الخطايا وهو على المنبر:

«ايها الناس إن الذنوب ثلاثة.. فذنب مغفور وذنب غير مغفور وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه.. أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين، وأما الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كف بكف ولو مسحة بكف ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجماء فيقتص للعباد بعضهم من بعض حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة ثم يبعثهم للحساب وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربه فنحن له كما هو لنفسه نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب».

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه حذر: من ظلم الآخرين والتطاول عليهم، لانه ليس من خصال الأبرار، وأن الله يـحسبه عـلى نفسه فيكون مدعاة نصرة الله للمظلوم. ومن ينصره الله ينتصر ويـنال الظفر[١].

ألم تسمع حكاية رسول الله صلى الله عليه وآله في أيامه الأخيرة عندما خطب في الناس يدعوهم ليقتصوا منه بالسوط إن كان لهم في ذمته حق وهو يخبرهم أن الحساب في هذه الدنيا لأفضل من حساب القبر.

على أية حال لو كنت صادقا في عزيمتك فاجتياز هذا المنزل أيضاً ليس من الصعب. فبمقدورك أن تفعل ذلك ببساطة. إفعل ما أوجـهك إليه:

(أولاً): احدثك عن الغيبة. الإنسـان يـغتاب أشـخاصاً يـعرفهم أو يعاشرهم. فالأمر ليس إلّا هكذا. إن كنت تذكر غيبتك لأحد أطلب منه الحلية وإن لم تذكر غيبة محددة اطلب الحلية مـن جـميع مـعارفك، حدثهم أن الله رحيم غفار ويحب من عباده من يتمثل بـه فـي هـذه الصفة. قد أكون جفوت لك حقاً وقد تكون فعلت مثل ذلك في حقي سوف أصفح عنك على أن تعفو عني ليغفر الله لكلينا. فـقلما يـرفض أحد طلبك، صافحه وعانقه وتسامحا بود. الأمور تنتهي بخير عاجلاً هكذا ببساطة. ثم احرص بعد هذا لتملك عليك لسانك فلا تظلمن أحداً بهذا اللسان.

---

١ ـ مضمون حديث جاء في كتاب روضة الكافي.

(ثانياً): إن كنت سرقت ادفع ما سرقته إلى صاحبه وإن استحييت من التصريح بفعل السرقة قل لصاحبه إنك تطلبني هذا المبلغ من المال. ادفعه له واطلب منه الصفح. وإن تعذر عليك الدفع قدِّم له خدمة وتوسل إليه ولا تتركه وشأنه حتى يعفو عنك. وإن كنت اهتضمت حقاً أو مالاً لا تعرف صاحبه، ادفع ما يعادله إلى المساكين باعتباره رداً للمظالم، وأهد ثوابه إلى صاحب المال، واطلب له من الله الغفران. إجهد للفراغ من ذلك قبل فوات الأوان.

(ثالثاً): إن ظلمت أحداً صرح له بما عندك وقدِّم له كل ما بوسعك. توسل إليه أما أن يسمح لك بتدارك خطئِكَ أو أن يصفح عنك. قل له: كلنا صدر عنا ظلمٌ ما في حضرة الله. فاعف عني يعف الله بدوره عنك. وإن كنت آذيته تمثل برسول الله ﷺ وقدم له سوطاً وتوسل إليه أن يقتص منك، إفعل ذلك باكياً وانقذ نفسك من هذا الوثاق فقد قرأت في الحديث الآنف أن الله لا يعفو عن المظالم فإن لم تهتد إلى المظلوم أدّ له نيابة عنه في غيابه الحسنات، وقدِّم ثوابها له لترد عليه يوم الحساب بذخر وفير، فيحن عليك ويعفو عنك. والحالة نفسها نافذة فيما يخص الغيبة.

(رابعاً): أداء الفرائض المالية مثل الخمس والزكاة واجب شرعي فإن كان في ذمتك شيء منها، ادفعه. وإن كنت لم تدفع منها شيئاً حتى الآن أجر لأموالك جرداً عند حاكم الشرع لتعبد الطريق أمامك فتشرق عليك أنوار الغفران وتحرر من هذا العبء الثقيل.

«المنزل السادس»

«أداء الفرائض»

في هذا المنزل أمسك قلماً وسجل بإمعان تام كل ما يتعلق بحسابك في هذا المجال منذ أن بلغت سن التكليف الشرعي، وكم من فريضة في ذمتك. إن كنت ما تزال في ريعان الشباب فاحمد الله، عبؤك غير ثقيل. قد يمكنك تدارك ما فاتك بجهد يسير. وإن كانت الشيخوخة قد داهمتك، فاحمد الله على أنه منحك الايمان قبل أوان الرحيل، بعد أن غاب عنك نور الايمان. فالفرائض سيما الصلاة لعلى درجة من الأهمية تجعل التهاون فيها كفراً:

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام يرد على سؤال وجهه إليه داود بن كثير الرقي حول ما إذا كانت سنن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كفرائض الله عز وجل:

«إن الله عز وجل فرض فرائض مُوجَبَات على العباد. فمن ترك فريضة من الموجبات، فلم يعمل بها وجحدها كان كافراً وأمر رسول الله بأمور كلها حسنة، فليس من ترك بعض ما أمر الله عز وجل به

عباده من الطاعة بكافر، ولكنه تارك للفضل منقوص من الخير»[١].

وجاء في كتاب «الكافي» عن زرارة أنه لما سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾، قال «ترك العمل الذي أَقَرَّ به. من ذلك أن يَترُك الصلاة من غير سقم ولا شغل»[٢].

ويقول مسعدة بن صدقة أيضاً أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام لماذا لا يسمون الزاني كافراً ويسمون تارك الصلاة هكذا، فأجاب عليه السلام:

«لأن الزاني وما أشبهه إنما يفعل ذلك لمكان الشهوة لأنها تغلبه وتارك الصلاة لا يتركها إلّا استخفافاً بها وذلك لأنك لا تجد الزاني يأتي المرأة إلّا وهو مستلذ لإتيانه إياها قاصداً إليها وكل من ترك الصلاة قاصداً اليها فليس يكون قصده لتركها اللذة فإذا نُفيت اللذة وقع الاستخفاف وإذا وقع الاستخفاف وقع الكفر. قال وسئل أبو عبد الله عليه السلام وقيل له ما الفرق بين من نظر إلى امرأة فزنى بها أو خمر فشربها وبين من ترك الصلاة حتى لا يكون الزاني وشارب الخمر مستخفاً كما يستخف تارك الصلاة وما الحُجة في ذلك وما العلة التي تفرق بينهما. قال: الحجة أن كلما أدخلت أنت نفسك فيه لم يدعك إليه داع ولم يغلبك غالب شهوة مثل الزنى وشرب الخمر وأنت دعوت نفسك إلى ترك الصلاة وليس ثَمَّ شهوة فهو الاستخفاف بعينه وهذا فرق ما

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٣٨٣، باب الكفر، الحديث ١.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، باب الكفر، ص ٣٨٣، الحديث ٥.

بينهما»[١].

حسناً إلتفت بقراءة هذه الأحاديث انك في الحقيقة كنت كافراً فيما مضىٰ من حيث لا تشعر.. فكم بالحري أن تحمد ربّك إن غدوت من المؤمنين. والآن اجهد لتدارك ماضيك. إتخذ مذكرة، سجّل فيها حسابات ما فاتك. إبدأ العمل منذ اليوم وثابر حتى يسقط عنك ما في ذمتك جميعاً. أدّ يومياً ما تقدر عليه من قضاء الفرائض المهملة. صلاة كانت أم صوماً. راجع بعد انتهاء السنة حسابات مذكرتك لتحسب ما أديته من ديونك وما في ذمتك. فإنْ واصلت العمل هكذا ولم يفسح لك العمر فرصة كافية للفراغ من عملك فقد وعدك ربك الرحمن بغفران ذنبك في الآية: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾[٢].

وإن كنت مديناً لشخص ما أدرج دفع الدين فيقائمة الفرائض المهملة، واجهد لتدفعه إلى صاحبه.

ذات مرة لقيت خادم مدرسة في مدينة ما يوليه الجميع احتراماً زائداً. تحريت السبب. فقيل لي أنه كان تاجراً معروفاً من تجار المدينة تعرض للإفلاس وهو اليوم يعمل خادماً بالمدرسة نهاراً وطاهياً في أحد الفنادق ليلاً لعله يسدد بعمله ديونه في أيامه الأخيرة من حياته. سألته عن أحواله. فقال: سددت جميع ديوني ولله الحمد. هذه حكاية

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، باب الكفر، ص ٣٨٣، الحديث ١٦.

٢ ـ سورة النساء، الآية ١٠٠.

من يطمح لنيل رحمته ويدرك لذة التوبة في حضرته حتى تتحول الأشواك أزهاراً والعناء ثراء.

ربما قرأت في تاريخ العلوم أن فلاناً جهد ثلاثين سنة حتى كشف أسرار حياة النمل أو قضى أربعين سنة في البحث لعله يترجم الخط الكذائي المنسي. فافعل أنت مثل ما فعلوا لأجل تحقيق سعادتك واجهد لتدارك ظلم سوغته في حق ذاتك. إرحم نفسك فالسجود يقربك خطى إلى ربك. ولا بد لك أن تذيب ما نمى في جسمك من لحم وجلد معاً.

وإن كان الحج قد استوجب عليك أدّه في أول فرصة متاحة لتحلق في موعد الوصال بخفة وحيوية نحو السماء وكأنك سنونو (عصفور الجنة) فقد أكد رسول الله ﷺ بأن من يمت ولم يؤد فريضة الحج (مع استطاعته على ذلك) يمت على دين اليهود أو النصارى.

«المنزل السابع»

«الثبات على التوبة»

هل أنت راغب في أن تتنزل عليك الملائكة كالأنبياء، تعمق في الآية:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾[1].

فالعبد لما يعاهد ربه أن لا يحسب غيره رباً ولا يصدف عن دياره وجهاً ويلتزم بذلك صدقاً، يبلغ منزلة تتنزل فيه الملائكة عليه ولكنه لا يظفر بمثل هذا المقام إلّا في ظل الاستقامة والثبات.

فإلى متى ترضى لنفسك بحركة كنَوَسات بندول الساعة.

تمثل بعقارب الساعة، فهي ماضية قدماً إلى الأمام لا تعرف للتراجع إلى الوراء معنى. فهذا النهج ليس نهج السكون أو التلاعب بل المضي

---

١ ـ سورة فصلت، الآية ٣٠.

والتفاني. فكل ذرات العالم ماضية في سبيلها، وحتى الكواكب، كلها في حركة دؤوبة .

يقول تعالىٰ:

﴿وكل في فلك يسبحون﴾[١].

فكيف لك أن ترتضي لنفسك بالسكون في خضم كل هذه الحركة المتواصلة وقد سمعت نبينا محمد ﷺ يؤكد أن من تساوىٰ يوماه فهو مغبون، فكيف بالمتقهقر إلى الوراء؟ إنك عاهدت على أن تعود لربك. المآب نحو الحبيب، هذا هو عهدك وميثاقك، فهل اتخذت عهدك مع ربك لعباً ولهواً؟! لا. لا تفعل بل ترنم مع نفسك يومياً: لن أخلف عهدي معك يا حبيب وإن مُزِقت إرباً إرباً. فما ثمن أرواحنا نقدمها لك بالمئات والآلاف.

وهل لنا وجهة أخرى فيما عدا ديارك. لا نعرف ملجأ غيره نتخذه لنا مأوى ولا طبيباً آخر، لآلامنا معالجاً، سواك:

يقول الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في مناجاة التائبين:

«إلهي! هل يرجع العبد الابق إلّا الى مولاه أم هل يجيره من سخطه أحد سواه».

ردد مع نفسك بيتا للشاعر حافظ:

---

١ ـ سورة يس، الآية ٤٠.

گــر تــيغ بــارد در كــوى آن مــاه
گـــــردن نـــــهاديم، الحكـــــم لله[1].

سأل شخص ما الإمام الصادق عليه السلام عن التوبة المقصودة في الآيـة ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ فقال: «يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه. وأحب العباد إلى الله المفتّنون التوابون».

فالتائبون العائدون إلى اقتراف الذنوب كأنهم بأنفسهم يهزأون. فكم لك ان تقول لله انني آت، ثم تضرب بكلامك عرض الحائط. دع عنك الكلام واقبل عليه بقلبك. فانظر ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام:

روىٰ جابر عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء».

فلا تدعنّ سلوكك يضيق عليك دنياك بما رحبت أو يسلبنّك فرصة العودة والإنابة.

وللثبات على العزيمة اطلب العون منه هو، فإنه هو النـاصر وهـو المعين.

يروي زيد الشحام عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قـال: كـان رسـول الله صلى الله عليه وآله يتوب إلى الله عز وجل في كل يوم سبعين مرة. فقلت: أكان

---

١ ـ معناه:

ـ «إن أمطرت النبال في ديار ذلك القمر، سلمنا لها الرقاب، الحكم لله».

يقول أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: لا، ولكن كان يقول: أتوب إلى الله. قلت: إن رسول الله ﷺ كان يتوب ولا يعود ونحن نتوب ونعود. فقال: الله المستعان[١].

واعلم أيضاً، لولا هذا الثبات لما ظفر الإنسان بأي مقام وكأنه ورقة شجر سقطت على الأرض تعصف بها كل نسمة. إنه طريق يراد لمرتاده همة الأشاوس لا رشحات الهلاوس.

يقول تعالىٰ:

﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً﴾[٢].

فالأمل كبير في رقي وهناء كل سالك تتثبت قدماه في هذا المنزل. ولتعلمن أن أغلبية الناس يبلغون هذا المنزل ولا يبرحونه بل يهبطون دونه أحياناً. وأنت ايها العزيز، اعقد العزم على اجتيازه فأنت ما زلت في المحطة الأولى، فكيف لك أن ترقى إلى ساحة كبرياء ذي الجلال لو انكفأت همتك ها هنا؟

وكيف لك أن تبوء بمنزلة ﴿مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾؟!

في هذا المنزل تتعرض للابتلاء ولاختبار ثباتك، عسىٰ أن تقهر الذل والهفوات إن شاء الله. فالثبات أمر لا يتدبره إلّا الأبرار. ألم تسمع رسول الله ﷺ قال بعد نزول سورة «هود»: «شيبتني هود»، ولما سئل عما فيها، أجاب:

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٤٣٨، باب الاستغفار من الذنب.

٢ ـ سورة النحل، الآية ٩٢.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾[١].

فثباته وإستقامته لم تكن إزاء الذنوب بل ليكون عبرة لي ولك في الثبات والصمود.

يقول أحد عظام شخصيات زماننا أنه كان جالساً على سجادته في الصحن الشريف بمدينة النجف الاشرف وهو يناجي ربه أنه ما زال يطرق بابه عشرين عاماً دون أن يفتح الباب أمامه وها هو العمر في فناء. كان مستغرقاً بمثل هذه الأفكار عندما أبصر عصفوراً يحمل كسرة خبز يابس بمنقاره، وضعها أمامه وراح يدقها بمنقاره. أتاها بأربعة وعشرين نقرة حتى تهشمت في نهاية المطاف فراح يتناولها. فكر في نفسه: إنه كان درساً أتاني من عالم الغيب. وبعد مضي أربعة وعشرين عاماً قضاها سالكاً إلى ربه انفتحت الأبواب أمامه ففاز بالوصال. أنت بدورك كن ملتزماً بحب حبيبك فإليه مآبك وليس لك الصدوف عنه ولا وجود لك إلّا به.

إلهي! وهبتني البصر فأبصرت نور وجهك، والشم فاستشممت عبير ديارك، فمنذ يومها لم يفتتن القلب إلّا بك ولم يختبر حبيباً غيرك. أقبلت عليك فاحفظ لي إقبالي وتعبدت لك فثبتني على عبوديتك.

---

١ ـ سورة هود، الآية ١١٢.

«المنزل الثامن»

«اللوعة واللهفة»

تصدّأ القلب بالذنوب وعتمت النفس بغبار الفراق، فهل تعلم بم يزال هذا الصدأ والعتمة؟ الصدأ، بدمع العين والعتمة، بحمى الحب. انطلقت متثاقلاً، فاسلك طريقك متحمساً. تنكرت للنفس ومطلوبها الحقيقي متنعماً، فأقبل على ربك متلوعاً. أوقعت نفسك في شراك الشقاء ضاحكاً، فعجل إلى ديار الهناء متضرعاً باكياً، هكذا أرادك باريك:

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾[1].

رحلت عن دار الوصال، وتهربت من لقاء الحبيب. فحق عليك أن تردد مع نفسك الآن: لأبكين من لوعة اشتياقي للحبيب ودياره، حتى أمحون من الدنيا منهاج الرحيل.

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٨٣.

وهل تتلوع بوصال الحبيب وأنت تـغط فـي النـوم ليـاليك حـتى الصباح في فراش وثير؟ ما أغرب خيالك! ألم تسمع حديثه وهو يكلم كليمه النبي موسىٰ عليه السلام مؤكداً أنه يكذب من يقول أحب الله ولما يسدل الليل ظلامه يرجح النوم على ربه.

لا تبخلن بدموعك، فلا مغتسل لهذا الصدأ إلّا الاستغفار. ولا تـعيا بعناء لوعتك، فلا سبيل إلى هذا الثراء إلّا بالعناء.

قال نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما من مؤمن يخرج من عينيه مثل رأس الذبابة من الدموع فيصيب حرّ وجهه إلّا حرّمه الله على النار»(١).

ما ألذ نار حبه! فمنه للقلب دفء.. وما أهنأنا بدموع وصله! فمنها تنمو في بيداء النفس أزهار الأمل باللقاء.

ألم تسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«لاترى النار عين بكت من خشية الله ولا عين سهرت في طاعة الله ولا عين غضت عن محارم الله»(٢).

ربما حدث لك في أوان طفوليتك أن طُرِدت من الدار، ولم يفتح لك بابها مهما دققت عروته ودققته وتوسلت دون طائل حتى جن الليل فبكيت خوفاً من الظلام فلم تطق أمك صوت بكائك فأدخلتك وقبلت

---

١ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ١٩١ عن مستدرك الوسائل ١١: (٢٤٦) ح (١٢٨٨٧).

٢ ـ المصدر السابق، ح (١٢٨٨٨).

وجهك فانتشلتك من الظلام الى النور. وهل تعرف من أين أتاك الفرج؟ من دموعك. ومن أين ظفرت بهذه المحبة؟ من المحنة.

قال رسول الله ﷺ:

«ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع خرجت من خشية الله، ومن قطرة دم سفكت في سبيل الله، وما من عبد بكى من خشية الله إلّا سقاه الله من رحيق رحمته وأبدله ضحكاً وسروراً في جنته، ورحم الله من حوله ولو كانوا عشرين ألفاً. وما اغرورقت عين من خشية الله إلّا حرم الله جسدها على النار وإن أصابت وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلة»[1].

فها هو ربك منحك لوعة.. فإن سالت دموعك على وجنتيك، فاستغل الفرصة واطلب منه ما يروق لك. فما أثمنها من فرصة! فدموع السلوك إليه تسيل لك نهراً تغسل به روحك ونفسك، فلهذه القطرات بركات أنفع لك من الدر المتدحرج.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك، فدونك دونك فقد قُصِد قصدك»[2].

ولتتوثق أن التوبة لا تتحقق بمجرد الاستغفار تعمق في حديث للإمام علي عليه السلام إقرأه من نهج البلاغة:

قال عليه السلام لقائل قال بحضرته: «استغفر الله»: ثكلتك أمك، أتدري ما

---

١ ـ ارشاد القلوب للديلمي، المجلد الأول، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٤٧٨، باب الاوقات والحالات التي ترجى فيها.

الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضىٰ،

والثاني: العزم على ترك العودِ إليه أبداً،

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة،

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها،

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد،

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: «أستغفر الله»[١].

ومن مواعظ وجهها رسول الله ﷺ لأبي ذر (ره):

يا أبا ذر! إن ربي أخبرني، فقال: وعزتي وجلالي، ما أدرك العابدون درك البكاء. وإني لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصراً لا يشاركهم فيه أحد».

قال أبو ذر:

قلت يا رسول الله! أي المؤمنين أكيس.

قال: أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً. يا أبا ذر! إذا دخل النور القلب أنفسح القلب واستوسع.

١ـ نهج البلاغة، الحكمة ٤١٧.

قلت:

فما علامة ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟

قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله».

وعموماً التائب الذي اصطلى بنار الفراق أمداً، وصار شذى الوصال يداعبه، يضطرب بلوعة الوصال حتى لا يقوى على كف نظره إليه للحظة. تنهمر دموع الشوق من مقلتيه تارة، ويتهشم قلبه لذكر دهر أفناه في الغفلة، وما كان منه حتى أهدر قسماً من حياته، وأتلف ثروته، وهو الآن يعقد العزم جازماً أن لا يضحي بوقته وعمره وقوة جسمه غافلاً. يتهرب من الأدنياء ويتأسىٰ بطابع الأبرار وتشده الرغبة أن لا يزول ذكره أبداً.. وينكب على الذكر ما استطاع في يقظته، ولا يأوى إلى الفراش في لياليه إلّا مضطراً.

وأخيراً يلبس توبته ثوب النقاء بطراوة اللوعة ودموع اللهفة، لعله يظفر بعفو ربه ورحمته.

«المنزل التاسع»

«استغلال الفرصة وتدارك الماضي»

ايها التائب العزيز! الآن وقد تذوقت لذة الإنابة، احسب كم قضيت في اوان الطفولة؟ وكم في الغفلة؟ وكم تبقى من فرصة العمر؟ ما يتميز بواقعيته من بينها هو الماضي وما لا يوثق بواقعيته هو المستقبل. فأنت لا تعلم في يومك هذا ما إذا كنت بالغاً غروبه أم لا؟

يقول تعالىٰ:

﴿يُرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[1].

وأنّى لك أن تعرف أن لا يكون اليوم هو الموعد المقرر، وما تبقى لك من فرصة العمر هي هذه اللحظات، ليس إلّا. فمن اللحظات تتكون الساعات ومن الساعات الأيام ومن الأيام الشهور ومن الشهور السنون

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٦١.

ومن السنين العمر، فإن كنت راغباً في استغلال فرصة العمر اغتنم اللحظات أولاً.

«الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

يذهب البعض إلى أن الأنفاس تأتي هنا جمعاً للفظة (النفس) بفتح الفاء، لا بمعنى النفوس. وتؤدي بذلك معنى أكثر روعة أي أنه بالامكان الاهتداء مع كل نفس (شهيق وزفير) إلى طريق ينتهي إلى الله، طريق لا تجدنه في اللحظة التالية، فكل طريق يتعلق بلحظة خاصة. من هنا لا يكون للزمان تكرار وقضاء.

فإن ظفرت في غدك بحالة أهدتك القرب فإنه خاص بتلك اللحظة دون تكرار، فإن فوّتَّ على نفسك استغلالها، لا يتسنى لك إعادة لحظة واحدة منها ولو كانت الدنيا وما فيها لك وضحيت بملكك كله إزاء ذلك. قد يفنى العمر سدى ولكن لا سبيل لنا إلى الماضي. إحرص على استغلال حاضرك.

عامل يتقاضى الأجر في نهاية الشهر على حياكة الأقمشة. قضى (٢٠) يوماً من شهره لاهياً مكتفياً بحياكة (٥) أمتار يومياً. لا يمكنه حياكة نفس المقدار إن أراد تدارك ما فاته حتى نهاية الشهر. فإن بلغ حاصل عمله (١٥) متراً في اليوم الواحد يكون بمقدوره تدارك تهاونه في العشرين يوماً الفائتة.

الآن تنبه إلى نفسك وأن لا تكون حياتك فيما تبقى منها حياة عادية، وإلّا فإنك من الخاسرين إن أردت السلوك اليه متثاقلاً. فأنى لمثل هذه الخطى بلوغ نهاية الطريق الطويل. إطلق العنان لساقيك

وتثبت في خطاك إلى الأمام..

زد من سرعتك لعلك تتدارك ماضيك وينضج فكرك الساذج وتتحول عندك الغفلة إلى معرفة.

فيا عزيز النفس!

دواء الغفلة الشافي هو ذكر الموت الآتي.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقطع منابت الغفلة، ويقوي النفس بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفيء نار الحرص، ويحقر الدنيا. وهو معنى ما قال النبي صلى الله عليه وآله: فكر ساعة خير من عبادة سنة. وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا، ويشدها في الآخرة، ولا تسكن بزوال الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة»[1].

فعلامة التوبة الصادقة هي أن لا يخاف صاحبها الموت بل يشغف به حباً لأنه موقن أن الله يحب التائبين.. وتعلم أنه لابد لك أن تحبه ليحبك:

﴿يحبهم ويحبونه﴾. الآن تعمق: إلى أي مدى يشدك الشوق للقائه. قيّم مدى حب الحق لك بميزان الحديث النبوي الشريف:

«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

حذارِ أن تتخذ ما تبقى من ايامك لعباً ولهواً وأن يكون لك فيها هماً إلّا حساب أحوال آخرتك، وقضاء قدر أكبر من وقتك في تدارك ما

---

١ ـ مصباح الشريعة، ص ١٧١، الباب الواحد والثمانون في ذكر الموت.

فاتك، وإدخار ما يمكنك، فقد اقترب الليل من نهايته والنهار آت عاجلاً:

قال رسول الله ﷺ:

«أكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنكم إن كنتم في ضيق وسّعه عليكم فرضيتم به فاثبتم، وإن كنتم في غنى بغّضه إليكم فجدتم به فاجرتم، لأن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال. إن المرء عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما قدّم وقلّة غنى ما خلّف، ولعلّه من باطل جمعه أو من حق منعه»[١].

فلو علم العبد أنه نجا من أدرانه واجتاز هذا المنزل متنزهاً، فهل يعكر صفو قلبه بعد ذلك هم أو غم؟:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[٢].

وهل لمثل هذه النهاية أي شبه بمصير اولئك الذين يسرد الله عز وجل حكايتهم في الآية:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم.. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فلبئس مثوى المتكبرين﴾[٣].

فهذا المنزل آخر محطاتك في هذه الدنيا وأول منزل في آخرتك.

---

١ ـ بحار الأنوار، الجزء ٧٧، ص ١٧٩.

٢ ـ سورة النحل، الآية ٣٢.

٣ ـ سورة النحل، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

فهذه دار الفناء وتلك دار البقاء. هنا ديار الغرور الواهي وهناك ميقات الخلود الباقي.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«والموت أقرب الأشياء من بني آدم وهو يَعُدُّه أبعد. فما أجرأ الإنسان على نفسه! وما أضعفه من خَلقٍ. وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين. ولذلك اشتاق من اشتاق الموت وكره من كره.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1].

ونرى الإمام علي عليه السلام يصف مدى شوق ولهفة الوصال عند التواقين للقاء الله في خطبة همام (الخطبة ١٩٣ من نهج البلاغة):

«.. ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب».

والمقصود من ذكر الموت هو الذكر البناء أي الذكر المثبط لتعلقك بالدنيا ومحفزك لحمل الزاد لا أن تكتفي كالعجائز بانتظار الموت باكياً حيث يروي الشيخ الطوسي في أماليه، بإسناده عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الكيّس (من الناس) من ـدان ـ نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى ـعلى الله عز وجل ـ

١ ـ مصباح الشريعة، نقلاً عن مستدرك الوسائل، المجلد ٢، باب استحباب كثرة ذكر الموت، ص ١٠٥.

الأماني[1].

ألا تأسف للحظة كان بوسعك أن تقضيها في ذكر الله فافنيتها باللهو والغيبة والكذب. ما أقبح سلوك من تنقضي ساعته في البطالة واللغو والتسكع بدلاً من الذكر أو الصلاة أو تلاوة القرآن. فلماذا نترك يومنا ينصرم هباء وبالامكان استغلاله لأداء عمل أو حمل زاد؟

ولانفتاح قلبك وإبصار عينيك تذكر الحديث التالي:

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«يا محمد بن مسلم! ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلّا لأهل الإيمان.

قال محمد بن مسلم:

«فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة».

فقال:

يا محمد بن مسلم!اترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟

قال: فإنه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر (الله).

فقال:

كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة. وإن الله غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات. فإياك أن تقنط المؤمنين

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ١٢، ص ١١٢، باب تحريم اتباع الهوى، الحديث ٩.

من رحمة الله».

***

ولقد أحسن من قال:

اذكـــر المـــوت هـــادم اللـــذات
وتـــجهز لمـــصرع ســـوف يأتـــي

وقال آخر:

ماذا تـقول وليس عـندك حـجة
لو قـــد أتـــاك مـــنغص اللـــذات
ماذا تقول إذا دُعيت فـلم تُـجب
وإذا تـــركت وأنت فـــي غـــمرات
مـــاذا تـــقول إذا حـــللت مـــحلّة
ليس الثـقات لأهـلها بـثقات[١].

---

١ ـ ارشاد القلوب، الجزء ١، ص ١١٢.

«المنزل العاشر»

«المراقبة والمحاسبة»

قال تعالىٰ:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدَّمت لغد واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾[1].

واحسرتاه على الإنسان مع أنه وُعِد بالرزق وهو يعلم انه ما من أحد مات جوعاً حتى الآن لكنه ينشغل على امتداد الشهر بحسابات دخله ومصارفه بينما أنذر بنار الجحيم إلى جانب ما قدم إليه من بشرى جنة النعيم، ومع ذلك لا يشغله حساب مدخوراته ومصارفه في تلك الدار وهو يعرف أن لفقر الدنيا نهايته ولا نهاية لفقر الآخرة. وقد يمكن تدارك فقر الدنيا ولا تدارك لفقر الآخرة حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٨.

العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[١].

وعن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أنه قال:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله عز وجل، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه»[٢].

ايها العزيز! ما بالك؟ ألا تعلم أنك في عرصة لا يسهو المراقبون فيها عن أية كلمة ولا تسامح عن ذرة في حسابها ومرابطوها لا يغيب عنهم أية حركة وسكون، فاقرأ:

﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾[٣].

فيا كريم النفس! هنا دار المثابرة وهناك دار المحاسبة. ما أن تبصر سجلك يفتتح أمامك حتى تصيبك الدهشة إذ لا تغاضي فيها عن أية ذرة من فعالك. من هنا سمي يوم القيامة يوم الحساب، حيث يقول تعالى شأنه:

﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾[٤].

دوّن في مذكرتك بدقة حساب يومك يومياً وحساب شهرك شهرياً وحساب عامك سنوياً لتعلم كيف أمضيت عامك الفائت. إنها خطوة تعينك على معرفة الذات. ألق التحية على كل يوم يطل عليك واحتف

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٤٧.

٢ ـ تحف العقول، ص ٢٩٥؛ وعنه البحار، المجلد ١، ص ١٥٢، ح ١.

٣ ـ سورة ق، الآية ١٨.

٤ ـ سورة ص، الآية ٥٣.

بقدومه. وهكذا اسلك مع لياليك. فهذه الأيام والليالي تصنع مصيرك: جنتك أو نارك.

وفي كلام للإمام الصادق عليه السلام نقرأ أن النهار -عند طلوعه- يدعو الإنسان ليؤدي أعمالاً صالحة خلاله كي يشهد له عند ربه يوم القيامة فانه ما قدم عليه قبل ذلك ولن يقدم عليه بعد ذلك أيضاً.. وهكذا الليل يقول.

كلّل هذه الأيام والليالي بالزهور والرياحين وهي تمر بك. لا تحملها الأشواك وتسلط عليها الثعابين فتُلقي عليك ما ادخرت خلالها يوم يزاح الستار ويكشف عن الأسرار، يومها تضيق بك السبل فلا تعرف أين تذهب بهذا الزاد المذموم المستقبح، فتصرخ: (أين المفر؟).

ربما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أصحابه ذات مرة وهم في الصحراء أن يأتوه بالحطب فعجبوا وأجابوه بانهم في مكان أجدب لا شجر فيه ولا نبات ليأتوه منه بالحطب. فطلب منهم أن يأتوه بما تضرم منه النار وإن كان نبتة شوك. جد الجميع في البحث فلم تمر فترة طويلة حتى صار عندهم كومة من الحطب فنوه لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الذنوب هكذا تتراكم.

هذا من سلوكنا، نستصغر الذنوب، وعند مواجهتها نقول على عجل: إنها صغيرة لا حساب لها قياساً إلى ذنوب الآخرين. ثم على حين غرة تتفتح عيناك فترى أكوام الذنوب تكدست كالجبال أمامك. ماذا عساك أن تفعل يومها بهذا الوبال. وماذا تصنع به.. لا تغفل قط عما قاله أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

«ما من يوم يأتي على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم! انا يوم جديد وانا عليك شهيد. فقل فيَّ خيراً، واعمل فيَّ خيراً. أشهد لك به يوم القيامة فإنك لن تراني بعدها أبداً».

قال الراوي: وكان علي ﷺ إذا أمسى يقول: «مرحباً بالليل الجديد والكاتب الشهيد اكتبا على اسم الله ثم يذكر الله عز وجل»[1].

كيف يهون عليك الإغفال عن ترك المكروهات وأداء المستحبات؟ إنها وسائل اتيحت لك فلِمَ لا تتزود منها وتزين سجل أعمالك بها. إعلم أنها سوف تتحول أنواراً تنير دربك حتى ترد على ربك بوجه أقوى نوراً من البدر الساطع.

فيا ايها العزيز! في دنياك تلجأ إلى الدَين إن انتقص زادك، فمن يقرضك في ذلك اليوم؟ قال جاهل: رأيت من يترك الصلاة يذهب عن الدنيا عطشاناً، وهل تراني أصلي طوال حياتي في سبيل رشفة ماء؟

المسكين غفل عن ظمأ فاقد الزاد فإنه ظمأ لا يرتوىٰ بماء، وفقر لا يزيله غنى. فمن يرحل عن الدنيا ظمآناً يتلوّىٰ عطشاً إلى الأبد، ومن ودّعها غنياً بزاده لا يذوق طعم الحاجة أبداً.

ألم تسمع أن «الدنيا مزرعة الآخرة»؟، فماذا زرعت لنفسك في هذه المزرعة لتحصده في غد قيامتك؟ هنا قد يكون بوسع غير ذي زرع أن ينعم بالثمار ولكن هنالك لا يعطي أحد ثمره لغيره قط.

ونقرأ في الروايات أن «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا». فلو لم

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٥٢٣، باب القول عند الإصباح والإمساء.

تكن قد قرأت شيئاً في هذا الخصوص حسبك للاتعاض أن تقرأ الآية:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[١].

حري بك ان ترتعد فرائصك يومياً وأنت تفكر بأنك تقوم في ساحة قدس يقوم قيومها على حسابك يوم الحساب، وهو يبصرك على مر اللحظات في حاضرك.. ولكنك لا تستحي من نظره إليك متجانفاً لطاعته وقد أمر:

﴿ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾[٢].

لابد للإنسان أن يجري جرداً لحسابات يومه ليلياً قبل لجوئه إلى الفراش وأن لا يتوسد في أية ليلة إن أتىٰ في نهاره ذنباً قبل أن يتوب عنه ويتداركه إن أمكن، فما يدريه ربما ذهب إلى فراشه ولا يتركه بنفسه قط إذ لا يكون له بعد خلوده إلى النوم يقظة! ألم تسمع باولئك الذين اتصل نومهم الليلي بسباتهم النهائي؟ الأجدر بك وقد تبت إلى الله واغتسلت في بحر توبته أن تترصد لنفسك على مر الليالي والأيام بالمراقبة فتحاسبها، ولا تغفل عن معية رب الأرباب لك باستمرار، وتفكر بيوم الحساب وقلة الزاد من الأعمال وبالفقر الأبدي.

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

٢ ـ سورة الحشر، الآية ١٨.

«زينة التائب»

ايها التائب الكريم!

الآن وقد تركت هذه المنازل العشرة وراءك، وصلت ساحة القرب الالهي بإذن الله. فلتعلمن أن ربك التواب يحب ذكرك وعبادتك وتضرعك. إحرص على أن تواصل تطبيق ما اهتديت له ليثبت الله قدميك على التوبة فيسد طريق العودة إلى اقتراف الذنوب في وجهك.

أول خطوة مطلوبة منك هي أن تجلس يومياً في أي وقت منه يتلاءم أكثر مع وضعك فتستقبل القبلة وتردد من أذكار الاستغفار باستمرار، وافضلها استغفار شهر رجب المبارك:

«استغفر الله ذا الجلال والاكرام من جميع الذنوب والآثام»[1].

إفعل ذلك دون تقهقر وانحسار بل استزده حتى يبلغ ترنمك به مع ربك الالف مرة يومياً، إن كان ذلك بمقدورك. وأفضل مواعيدها ما بين

---

١ ـ مفاتيح الجنان.

الطلوعين أو وقت الأسحار أو بداية الليل.

ومن الخطوات الأخرى أن تجهد لتعويد نفسك على أداء صلاة نافلة الليل والاستيقاظ لتأدية صلاة الليل، فوقت السحر يعتبر أفضل الأوقات لغفران ذنوب الآثمين حتى أوصى الإمام السجاد عليه السلام يزيد بن معاوية اللعين لأداء صلاة الليل لغفران ذنبه فمهما تكن قد توغلت في بحر الخطيئة لا تبلغن مبلغ فساده ودنسه. سوف أتحدث إليك عن صلاة الليل في مبحث «التحلي» بإذن الله ونكتفي هنا بهذا القدر من الكلام عنه.

فمتى ما استشعرت انبساطاً في نفسك يكون أفضل دعاء تتوجه به إلى الله هو «مناجاة التائبين». تضرع بها إليه يومياً. اشغف حباً بذكر «يا غفار» من أسماء الله. ادع الله به سائراً في طريقك أو مستلقياً في فراشك، جلوساً أو قياماً.

وإن تسنى لك، فتوجه لزيارة مرقد الإمام الحسين بن علي عليه السلام فنهر شفاعته عند الله ليغفر لك يصقل عن نفسك تلوثات جميع الذنوب. وإن لم توفق لمثل هذا فاحضر مجالس ذكر الحسين عليه السلام وأجر الدمع فيها على ما نزل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيما الحسين بن علي عليه السلام من مصاب. استعصم بهم واتخذهم شفعاء عند ربك فلهم عنده مقام رفيع. شوهنا سمعتنا عند حضرته ولا خلاص لنا إلّا التشبث بالمقربين إليه.

﴿اولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون

رحمته ويخافون عذابه﴾[١].

وإن نلت التوفيق من ربك فالتزم بالسجدة اليونسية بعد أداء صلاة الغفيلة، فإنها الكبريت الأحمر. على أية حال أضف قدر الإمكان في محاسن سجلك بأي من أذكار الاستغفار.

يروي عبيد بن زرارة عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا أكثر العبد من الاستغفار، رُفعت صحيفته، وهي تتلألأ»[٢].

يروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يردد عبارة «استغفر الله» سبعين مرة يومياً و «أتوب إلى الله» سبعين مرة. وأنت كذلك لا تفوّتن يوماً من حياتك حتى نهايته دون أن تغسل نفسك فيه بذكر الاستغفار.

ومن الأعمال الأخرىٰ المفروض إضافتها إلى أعمال الليل هي قراءة سورة المؤمن ولو لمدة محددة، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«من قرأ حم المؤمن في كل ثلاث غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وألزمه التقوى وجعل الآخرة خيراً له من الدنيا»[٣].

وأن يعقب صلواته الواجبة بترديد «عفواً عفواً» مائة مرة وبالإجمال يستظل بظل عناية الحق تعالى وأن يطلب منه على مر اللحظات أن لا يكله إلى نفسه حيث:

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٥٧.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٥٠٤، باب الاستغفار.

٣ ـ مجمع البيان، فضل سورة المؤمن.

﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربي﴾[1].

وأن لا يمل من طرق باب الحبيب فلا سبيل إلى نيل الفلاح إلّا بابه.

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٥٣.

«مكافأة التائب»

ايها التائب!

الآن وقد ظفرت بالقرب الالهي تتلقى تعاملاً من نمط آخر. فتعامل الله معك ينبع من صلب رحمته. ربما تبقى في ذمتك شوائب، لم يزلها الاستغفار ولم تصقلها الدموع، ولابد لك الاصطلاء بنار المحن. فإن جرى عليك نوع من المنغصات لم تلعب دوراً في تبلورها، بل تنزل بك من الغيب، استقبلها مرحباً وقبّلها. فمثل هذه المحن هي عين رحمته لأن ربك الرحيم يريد أن يزكيك من تلك الأدران.

استمع إلى حديث آخر من أحاديث الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله إذا أراد بعبد خيراً، فأذنب ذنبا أتبَعه بنقمة ويُذكره الاستغفار. وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها. وهو قول الله عز وجل ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون..﴾[1].

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٤٥٢، باب الاستدراج.

ومثل ذلك نجده في سلوك أب يحب ولده فيعاقبه على أدنىٰ هفواته لأنه واثق من تهافته نحو هفوات أعظم إن تركه وشأنه. إحسب هـذا العقاب لطفاً ورحمة منه وليس عقاباً ونقمة، واشكره. فمثل هذا التعامل يكثر تبنيه في عالم الصداقة والمودة.

وربما تكون بعض النعم وبالاً على المتنعم دون علم منه بما يجري عليه. استمع إلى الآية:

﴿والذين يكذبون بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾[1].

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الآية الآنفة، فقال:

«هو العبد يُذنب الذنب، فيملى له، وتُجدَّد له عندها النعم، فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم»[2].

كما أنه يزيد من فضله عليك بأن لا يكـتفي بـغفران ذنـوبك بـل يستبدلها بالحسنات حيث قال عز وجل:

﴿إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3].

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨٢.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٤٥٣، باب الاستدراج.

٣ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٠.

«غدر الغلام وكرم سيده»

ايها العزيز!

اسرد لك حكاية فاستمع لها:

دعا أحد الأمراء إليه وجيهاً من الوجهاء وبامتعاض راح يقول معاتباً: سمعنا أن الأمير السابق قد أئتمنك على كنز، فأما أن تعيده أو أقتلك. كذّب الرجل الخبر وتوسل إلى الامير أن يخبره ممن سمع هذا الخبر.

دعا الأمير غلاماً ظهر له من وراء الحجاب وقدمه إليه.

ما أن أبصر الرجل الغلام حتى هتف: ايها الأمير! إنه غلام لي. اعتقته وأعطيته ألف دينار يعمل بها في التجارة، فيكون نصف ما يرده منها له ونصفه لي. انقضت سنة ولم يأتني نبأ منه وها هو الآن يريد لي القتل.

سأل الأمير الغلام عن حقيقة الأمر.

أجاب الغلام: الحقيقة أنني أهدرت المال، فخجلت أن أعود إليه.. فكّرت أن أقضي عليه على هذا النحو.

أمر الأمير بإحضار السوط لمعاقبة الغلام ضرباً، فاضطرب الغلام

وتشوش. اهتز قلب الرجل شفقة عليه، فقال: ايها الأمير! لقد عفوت عنه.

هكذا صرف الرجل العقاب عن الغلام فقبّل الغلام يديه بينما سيده رفع رأسه عن يديه ووهبه ألفي دينار.

اندهش الأمير، فكيف يمكن أن يصدر عن الغلام مثل هذا الغدر ومنه مثل هذا اللطف؟!

قال الرجل: فعل ما هو أهل له ونفعل ما نحن أهل له.

هذا هو نهج عباد الله الصالحين، فماذا تتوقع من ربك وهو مصدر جميع الكمالات؟

«قد أظلّها حسن توكلي عليك فقلت ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك»[١].

إنه المحول الذي أراد لضياء النهار أن ينسلخ من أعماق دياجير الليل، ومن الأمطار المدرارة أن تنبثق من الغمامة السوداء ومن أعبق الأزهار أن تنمو من أنتن الأسمدة. فهل من شأنه أن يمنع مثل هذه الألطاف عن التائب؟ إننا عقدنا الآمال في عفوه وكرمه، فقد أهدرنا الثروات جاهلين وأفنينا العمر غافلين، لا حيلة لنا إلّا الانتظار ولا قوة لأقدامنا للانطلاق، القلوب متهشمة والنفوس لا أمل لها بالخلاص سوىٰ في ظل لطفك وعفوك وكرمك.

---

١ ـ من المناجاة الشعبانية.

«مجالس الإثم»

الآن وقد أوليت ظهرك للمعاصي، واستأنست بالله بعد إدبار ونأي، تنبّه أن وجودك بالقرب من الآثمين يلقيك ثانية في مغبة الإثم، فترك العادات بين المتمسكين بها أمر مستحيل. لا تتصور أنك لن تعود للإثم فمجالسة المذنبين هي بحد ذاتها خطيئة. ألم تسمع حديث الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره»[1].

فما يترشح عن المتلوث إلّا التلوث، وعن النار سوى الحرق. فأنت لا تشتم شذى عبق عند المرور بجانب نتن الرائحة ولا تنعم بالسلامة عند معاشرة المرضى. فهل لك اقتباس الأنوار من مجالس الضلال وتهنأ بالاستقرار والعاقبة بالوقوف على شفا هاوية. السلامة في زوال والحل في الإعراض والثبات.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

---

١ ـ الكافي، باب مجالسة أهل المعاصي.

«لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم، فتصيروا عند الناس كواحد منهم. قال رسول الله ﷺ:

«المرء على دين خليله وقرينه»[١].

هذا ما قرره لنا رب العزة والجلال في الآية:

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾[٢].

المقصود من آيات الله فيما قرأت في الآية الآنفة هو كل أوامره ونواهيه فإن استهزىء بها أو استخف بالمعارف الاسلامية، وتعذر عليك الرد، فاترك ذلك المجلس وإلّا وقع من الإثم في عاتقك.. فهل لك أن تحضر مجلساً يعرض فيه لأحد أقاربك؟ سيمتقع وجهك غضباً، وينطلق لسانك راداً، فلا طاقة لك على التزام الصمت في مثل هذه الحال. هذا هو مؤشر المودة والمحبة.

وكيف لك أن تحب رباً وتعتبر أحباءه أحباءك، ومن جهة تحضر مجالس يستخف به فيها وتلتزم الصمت من جانبك؟ فالاستخفاف إثم سواء كان لفظياً أو عملياً.

ايها العزيز!

شذى الورد يلوحك من رياض الورد. فمالك والمستنقعات الآسنة؟! فما دمت محاطاً بالنورانيين ممن تنير أنوار شموسهم عتمة

---

١ ـ الكافي، باب مجالسة أهل المعاصي.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٦٨.

الليالي لِمَ ترتضي بمجالسة المعتمين ولا طائل منهم حتى في وضح نهارهم سوى غشاوة القلوب. والله لتجدن قلوب الكفرة أشد سواداً من الفحم وأحلك ظلمة من الليل. ألم نقرأ كيف يشبه الله عز وجل سيماء الخاطئين في الآية:

﴿كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾[١].

ولم تحرم نفسك نعمة مجالسة أصحاب أنوار تضيء الشمس الساطعة، وباطلالتهم تنتشر أنوارهم فتزيل الظلام من حولهم.

هذا ما تؤكده الآية:

﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأَيمانهم﴾[٢].

سيأتيك يوم تطمح فيه إلى نيل قبس أنوارهم ولكنّ بينك وبينهم حاجزاً:

﴿انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور﴾[٣].

وهذا نور لك أن تنال قبساته من الأبرار في هذه الدنيا، فإنهم ذروة الخلق الرفيعة، وهم أول مقتبس لأنوار الله.

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٢٧.

٢ ـ سورة الحديد، الآية ١٢.

٣ ـ سورة الحديد، الآية ١٣.

«التعجيل بالتوبة»

لما كان أخوف ما يخيف الشيطان هو توبة الإنسان، يهمس له في كل سنة أن يؤجلها لمطلع العام القادم، وفي كل شهر لمطلع الشهر القادم، وفي الربيع إلى الخريف، وفي الخريف إلى الربيع.

هكذا يواصل معك التسويف والتأجيل حتى يباغتك الموت.

عجّل بالتوبة ما دامت لوعة الندم على الإثم تضرم نارها في نفسك.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن العبد إذا أذنب ذنباً اجل من غداة إلى الليل. فإن استغفر الله لم يكتب له»[1].

لا نعني بذلك أن لا تذكر من الذنوب قديمها بل أن تحترس من حلول موعد الموت ورحيلك عن الدنيا قبل التوبة.. وإلّا فموعد التوبة لا يفوتك قط. تب إلى الله عن تسويفك في التوبة.

وعنه عليه السلام أيضاً:

---

١ ـ كتاب الكافي، المجلد ٢، باب الاستغفار من الذنب، ص ٤٣٧.

«إن المؤمن ليذنب الذنب فيذكره بعد عشرين سنة فيستغفر الله منه فيغفر له. وإنما يُذَكِّره ليغفر له. وإن الكافر ليذنب الذنب فينساه من ساعته»[١].

ناج ربك أين يذهب المتدنسون بآثامهم وأدرانهم إن لم يكن لهم نصيب من الطهر والتنزه. فكل متطهر يتلوث من المتدنس. ولكنك الطاهر الذي لا يدنسه تلوث وما لنا من باب نطرقه إلّا بابك.

يقول رسول الله ﷺ:

«من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثيرة. من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير. من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: ان الجمعة لكثيرة. من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: ان يوماً لكثير. من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»[٢].

ايها العزيز! حكايتنا ليست من نمط الحكايات المألوفة، فللصالحين كفاية من هذه الحكاية. إنها حكاية ربك يريد هدايتك نحوه، ويتقصى لقربك منه الوسائل والذرائع. فكيف لك أن تتنكر لقرب حبيبك المشفق عليك؟! يفتح لك كل باب، ويغدق عليك منه برأفة وأنت تفر منه من كل ثغرة.

كف عن التهرب من حبيبك القديم وعجل باسرع ما يمكن في الإقبال عليه، فلا علم لك بما يجري عليك غداً!

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢.

٢ ـ الكافي، باب فيما اعطى الله عز وجل آدم عليه السلام وقت التوبة.

«مردودات الخطيئة في القلوب»

القلوب مزارع حبّه ومعرفته، والذنوب سموم هذه المزرعة تـعيث فيها فساداً حتى تُفتقد آثار الحياة فيها.

فأنّى لليل أن يشبه النهار؟! وهل للنور شـبه بـالظلام؟ أم للـحياة بالوفاة؟! وهكذا البصير بالأعمىٰ؟!

قال تعالى:

﴿ما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾[1].

فكيف يتماثل من لم يتنور قلبه بنور معرفة ربه وذلك الذي أشرقت في أرجاء وجوده أنوار خالقه؟! تجد رجلاً لا يأبه لما يقدم له فيأكله ويتفوه بما ينساق على لسانه ويفعل ما وسعه ويلبي كل طلب يوجه إليه، وآخر يتحكم بلسانه فلا ينطق إلّا بما أحل الله، ولا يـتحدث إلّا بالحكمة والسداد، ولا يتعامل مع الآخرين إلّا بالعدل والإنصاف، ولا

---

١ ـ سورة فاطر، الآيات ١٩ ـ ٢٢.

تتقدم خطاه إلّا صواباً. فكيف يتماثلان؟ فهذا ميتاً أفضل من ذاك حياً. هذا ينير وجودك وأنت تقف على مرقده وذلك حبه يخيم بعتمته عليك إن كنت إلى جانبه.

هذا ما تيقن منه سهل التستري حيث يشير في كلام له إلى أحياء يميت لقاؤهم القلوب بينما هنالك أموات يحيي كلامهم الأفئدة.

فهؤلاء الأموات المتحركون هم الذين أوصى الله سبحانه وتعالىٰ نبيه بأن لا يهدر وقته في محاولة استمالتهم نحو الدين، فهم ماضون إلى مصير لا رجعة فيه. حيث قال:

﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم، إن تُسمع إلّا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾[1].

ويقول أيضاً:

﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾[2].

اعلم أن الذنب ليعيث في القلب حتى يميته بنحو يتعذر حتى على نبي إحياؤه، فارتدع عن ذنب يفعل هكذا بالقلب. إنه الذنب الذي كانت التوبة علاجه فتجذر في النفس كالمرض المزمن فخرج علاجه من فاعلية التوبة فحان أوان موت القلب، فلا حياة له بعد ذلك إذا يفكر صاحبه بالتوبة والموت أبداً حتى وفاته.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٥٣.

٢ ـ سورة فاطر، الآية ٢٢.

«كان أبي عليه السلام يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة. فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»[١].

ولتعلمن أن الذنب أساس الكفر. قد يكون الرجل مؤمناً ينعم بنور من ربه، فيلج مستنقع الإثم دون أن ينتشل نفسه منه بالتوبة حتى يختنق القلب فيموت غرقاً ثم تبدأ مرحلة الكفر. تعمق في مفهوم الآية:

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون﴾[٢].

فالشيطان يعبّد طريق الذنب إلى قلبك بالذنوب الصغيرة ثم يستدرجك إلى الكبيرة منها حتى ينتهي بك إلى الكفر. وأسلوب مواجهته عقلية. أجب همساته بأنك سوف تلقى الله محمَّلاً بجميع ذنوبك وإن كانت على قدر حبة من خردل. هذا ما وعدك به سبحانه وتعالى في الآية:

﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾[٣].

إنك لن تصارع إلّا نفسك إن ركبت صهوة الذنب.. فلو كان لقلبك لسان لعاتبك.. لِم أرقت دمي؟ ولم أنهيت حياتي؟ سوف تلقىٰ جزاء هذا السفك في غدك!

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٦٨، باب الذنوب.

٢ ـ سورة الروم، الآية ١٠.

٣ ـ سورة لقمان، الآية ١٦.

ويل لك! ما أهون نفسك عليك إذ دفعتها إلى نار جهنم.

﴿فما أصبرهم على النار﴾[1].

ايها القارىء العزيز!

إن ودعت ثلاثين عاماً من عمرك فلتعلمن ان جسمك آخذ بالضعف، وأنك ماضٍ في منحدر. فلماذا تثقل حملك من الذنوب؟!

وأنّى لك أن تصارع نفسك في هذا المنحدر؟ فسوف لا تصحو، إلّا وأنت في أعماق وادي الموت، والفرصة قد فاتتك دون رجعة.

تمعن في حكاية آتيك بها من ديوان «مثنوي» للشاعر مولوي يسرد فيها حكايات أمثالك:

«زرع أحدهم نبتة شوك في طريق الناس حتى اشتد عودها وازداد أذاها للمارة. الجميع كانوا يطالبونه أن: اقلع نبتة الشوك. وهو يؤجل ذلك في كل يوم للغد، حتى شكاه الناس إلى القاضي. فطلب منه القاضي أداء هذه المهمة، فواصل التسويف على نفس الوتيرة. ذات يوم قال له القاضي:

توكه من گويى كه فردا اين بدان
كه به هر روزى كه مى‌آيد زمان

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٥.

آن درخت بـــد جـــوانـــتر مـــى‌شود
وين كـننده پـير و مـضطر مـى‌شود[١]

فهذه الشجرة كأنها شجرة طباعك السيئة، فمتى تقرر أن تقتلعها، إنها تزداد تثبتاً وصلابة في نفسك وأنت ضعفاً ووهناً في قدراتك؟!

فللمتقي الزكي الطامح في الجنة صراع مع النار التي لا تبقي على أحد إلّا وظهرت له:

يقول تعالىٰ:

﴿وإن منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾[٢].

ولكن النار تخمد من خشية الأتقياء حيث روىٰ نبينا الكريم ﷺ بأنها تقول:

«جِز يا مؤمن، فإن نورك أطفأ نوري».

يروي الامام الصادق عليه السلام عن جده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال «لا تُبدين عن واضحة وقد عملت الأعمال الفاضحة. ولا يَأمن البيات مَن عمل السيئات»[٣].

---

١ ـ معناهما:

ـ «انت الذي تؤجل للغد أمرك، اعلم ان الزمان ماض مع مرور كل يوم»،

ـ «تلك الشجرة المنبوذة تزداد ريعاناً، وهذا الفاعل يزداد شيباً واضطراباً».

٢ ـ سورة مريم، الآية ٧١.

٣ ـ أصول الكافي، المجلد ٢، ص ٢٦٩، باب الذنوب. «الواضحة: الاسنان التي تبدو عند الضحك (معجم لاروس)».

وعن الإمام الباقر ﷺ أنه قال:

«الذنوب كلها شديدة واشدها ما نبت عليه اللحم والدم، لأنه إما من مرحوم وإما مُعذَّب. والجنة لا يدخلها إلّا الطيّب»[1].

ألا ترتعد فرائصك وأنت تمسك المصحف الشريف عندما تبلغ الآية:

﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[2].

فهذا الكتاب مختوم اليوم ولكن.. سوف يرفع ختمه غداً. وللمذنب ثبور وبكاء على كتابه هذا يوم تكشف الحجب ولا استتار للمخزي، ولا علاج لهذه الآلام، ولا خلاص من المعاناة.

ربما تنكرت للتوبة لسمعة تتمتع بها، سمعة واهية زيّن بها حياتك الجهلة من المحيطين بك.

ربما يحتجب يهودي عن اعتناق الإسلام فيقول: إن اسلمت لا أقوى أن أرفع رأسي بين أتباع ديني.

عضو حزب ضال يقول: الحقيقة جلية ولكن ماذا أقول للزملاء؟!

جاهل يقول: إن أنا قررت أداء الصلاة تضطرني زوجتي إلى ترك الدار.

ايها المسكين! يا من تتلاعب به، هكذا، توقعات الآخرين، وتتقاذفه

---

١ ـ أصول الكافي، المجلد ٢، ص ٢٧٠، باب الذنوب.

٢ ـ سورة يس، الآية ١٢.

أيدي إراداتهم هنا وهناك كأنه كرة تتقاذفها الأيدي في ساحة اللعب. إنه يرغب في الانعتاق ومع ذلك لا ينتشل نفسه من الظلمات إلى النور من خشية هذا وذاك. تنبه لنفسك وتنكر للقال والقيل. إختر لرفقتك هذا وذاك ممن تنفعك صحبتهم في مثواك الأخير. فالبقية سوف يتنصلون عنك يوم الانفراد والاغتراب.

فأنت يا من تحتجب عن النور وتستزيد العتمة حلكة، أنّى لك أن تطمح في الفلاح؟

يقول أبو بصير أنه سمع الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نُكتة سوداء. فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»[1].

حذارِ من اقتراف الخطيئة بعد الخطيئة وتكديس الذنوب على أمل نيل الغفران. فأنّى لك أن تتوثق من ان تلقى من العمر الوفاء ويكون لك من الغفران حظ ولآلام ضلالك في الاستغفار دواء؟!

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«من همَّ بسيئة، فلا يعملها. فإنه رُبما عمل العبد السيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول: وعزتي وجلالي، لا اغفر لك بعد ذلك أبداً»[2].

ما أعظم نفورك من عناء الآلام وأصبرك على بلاء الأمراض! فلِمَ لا تفقه ما بالقلب من مرض وعناء ولا تتقص لعلاجه دواء؟!

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ٢٧١، باب الذنوب.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٧٢، باب الذنوب.

قال الإمام علي ﷺ:

«لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب، ولا خوف أشد من المـوت، وكفى بما سلف تفكُّراً وكفى بالموت واعظاً»[١].

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٧٥، باب الذنوب.

«الذنب ورشحاته المتعددة»

ماذا عن سائر آثار الذنوب؟

قال الإمام علي عليه السلام:

«عجبت لمن يحتمي (من) الطعام لأذيته (ولا يحتمي من الذنب لأليم عقوبته)»[1].

ألم تسمع عن الجراثيم وفعلها في الأجسام؟ بعض أنواعها يتحامل على دمك، وبعضها يفتك بعضلاتك، ومجموعة منها تقوض دماغك، وأخرى تسلب عينيك قوة البصر، وغيرها يولد اختلالاً في أداء قلبك حتى تقضي إثر نوباتها العنيفة.

جيشك المخضرم المتأهب للدفاع عنك هو كريات دمك البيض الفتاكة بالجراثيم. إنها الحليفة والعون والنصير بالنسبة لك. وأما في

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ١٢، ص ٣٣٣.

مجال نفسك فالذنوب تمثل جراثيمها التي تأتي عليك بالويلات، فتعتم نفسك، وتكدر صفو قلبك حتى تسلبك حياتك المعنوية، وتسد في وجهك طريق السلوك إلى الملكوت لتخلد إلى الأرض كما تقول الآية:

﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[1].

كنت ممن يستحي من ربه، ولك عنده وجاهة. ولكن.. بعض الذنوب هتكت هذه الحرمة حتى صرت لا تأبه للانقياد إلى الذنب، ولا ترتدعن من هذه الصلافة. فتوجه إلى الله بالدعاء:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم»[2].

أنت تخاف ربك وتتذكر دوماً عظمته، ولكن بعض الذنوب التي اقترفتها نأت بفكرك عن ذكره، وذكر عظمة ذاته المقدسة. لقد حان موعد إنزاله بك بعض المحن رداً على بعض ما كان منك. تضرع إلى حضرته مترنما بفقرة من فقرات دعاء كميل بن زياد، ردد:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم».

كان لك نصيب من النعم ومنها انفتاح أبواب الملكوت الأعلى بوجهك، وسهولة وصولك إليها. فلوثت كيانك بذنوب أخذت عنك هذه النعم، وألغت موعد اللقاء. فاجلس وتضرع إليه باكياً:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم».

كنت تواقاً للقاء الله. تطلب منه ما استطاب لك، وتناجيه متى ما

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

٢ ـ من دعاء كميل.

حلا لك. فماذا قلّب أحوالك كلها؟ دنست نفسك بذنوب حالت بينك وبين الطلب والدعاء وأسدلت الحجب بينك وبين حبيبك. تحر أفعالك وردد مع نفسك:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

كنت تنعم بالهدوء والاستقرار زمناً اخترت فيه ربك أنيساً، فرحل الارتباك والتشوش عن قلبك. فأين راح ذلك الأنس والاستقرار؟! وماذا أعاد إليك التشوش والاضطراب؟ تفحص ماضيك وما اقترفت فيه من ذنوب أنزلت بك هذا البلاء. وللتخلص من تبعاتها ناج ربك:

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء».

كل هذه المعاناة هي آثار الذنوب أنزلتها بنفسك بلا رأفة أو شفقة. عساك أن تتخلص من أدرانها بماء التوبة، لتتهافت بعدئذ على أداء الحسنات.

حدثتك عن صراع الكريات البيض في دمك مع الجراثيم، وبامكانية قضائها على الجراثيم إن تميزت بالوفرة والسلامة. والحسنات تمحو الذنوب في ملكوتك. ألم تسمع قوله تعالى:

إن الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾[١].

وإن كنت تسألني عن آثار الذنوب كل على انفراد، فدعنا نقرأ معاً حديثاً للإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«الذنوب التي تغير النعم: البغي، والذنوب التي تورث الندم: القتل،

---

١ ـ سورة هود، الآية ١١٤.

والتي تنزل النقم: الظلم، والتي تهتك الستر: شرب الخمر، والتي تحبس الرزق: الزنى، والتي تعجل الفناء: قطيعة الرحم، والتي ترد الدعاء وتظلم الهواء: عقوق الوالدين».

إذاً، الندم على ارتكاب الذنوب يمهد للتوبة. قد لا يشعر المذنب بالندم والأسف على اقترافه الذنوب وهذا بحد ذاته يعتبر ذنباً آخر وقد قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

«لا تمتنع من ترك القبيح وإن كنت قد عرفت به، ولا تزهد في مراجعة الجهل وإن كنت قد شهرت بخلافه. وإياك والرضا بالذنب، فإنه أعظم من ركوبه. والشرف في التواضع، والغنى في القناعة».

ايها العزيز! لا تغفل عن معية الله تعالى لك.. ردد مع نفسك: أن الله معي اينما أكون، يرقب أفعالي. فكيف لي أن أعصيه، وأتمرد على أوامره في حضرته؟

واعلم أن أعمال هذه الأمة تعرض يومياً بحسب الأحاديث المروية عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، على نبينا صلى الله عليه وآله وكل جمعة على إمامنا. ولك ملكان على جانبيك يرقبانك على مر اللحظات، ولولا أن الله يسترك تُكشف حقيقتك في صحراء المحشر على جميع الكائنات. ربما ترتدع نفسك عن الذنوب بتذكرك مثل هذه المشاهد.

إياك ثم إياك أن تستصغر أياً من الذنوب. فالعظيم هو ربك الذي تعصيه بها. وقد أكد الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث له أن من الذنوب التي لا تغتفر أن يتمنى المرء أن لا يحاسب على ذنب

اقترفه[١].

فالإنسان يعرف أن لدنياه حساباً وله في قبره استجواباً وفي قيامته جزاء. فكيف يجازف بارتكاب الخطايا فيكبل نفسه بآثارها ويستقدم لغده معاناتها؟!

قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

«أشد ساعات ابن آدم ثلاث ساعات: الساعة التي يعاين فيها ملك الموت، والساعة التي يقوم فيها من قبره، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله تبارك وتعالى. فإما إلى الجنة وإما إلى النار»[٢].

أيها العزيز! الآن استمع إلى إشارة أخرى: لا يتركك الشرك الخفي وشأنك إلّا إذا ظفرت بحقيقة التقوى، فوجودك يكون ساحة لصولات الشيطان تارة ولوسوسة النفس تارة أخرىٰ، وقد يتجلى ربك فيها أحياناً. فأنت تتحول عبداً لأي منها صرعك هواه.. انك لو اقترفت الذنوب تكون ولّيت ظهرك لربك، وتجردت عن إيمانك به في لحظاتها بل تنكرت لله واتبعت هوى النفس أو أمر الشيطان.

فلو كنت تؤمن بهذا الكلام. ردد في نفسك: ويل لي! فكم مرة ومرة أكفر في يومي وليلتي. أخشى أن أموت في لحظة اقترافي لذنب أو انغماسي في كفر، سوف ارحل عن الدنيا محملاً بوزر، ومثقلاً بوبال عار. فإن كنت غير مؤيد لكلامي، استمع إلى أحاديث عن رسول

---

١ ـ انظر كتاب «الخصال».

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٦، ص ١٥٩، باب ٦، سكرات الموت و...

الله ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام:

عن محمد بن حكيم، قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: الكبائر تُخرج من الايمان، فقال: نعم، وما دون الكبائر. قال رسول الله ﷺ: لا يزني الزاني، وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن»[١].

ويروي عبيد بن زُرارة أنه ذات مرة دخل ابن قيس الماصر على الإمام الباقر عليه السلام فقال وهو يكلمه: إنا لا نُخرج أهل دعوتنا وأهل ملتنا من الايمان في المعاصي والذنوب. قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: يابن قيس أما رسول الله ﷺ: فقد قال: لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن. فاذهب أنت واصحابك حيث شئت»[٢].

الآن وقد تيقنت لصدق ما حدثتك عنه بالاستماع إلى كلام رسول الله ﷺ والائمة عليهم السلام، استعذ بالله من نفسك فإنها ألد أعدائك! فإن واظبت على تعبدك وانقيادك لها سوف ترى غداً عندما يكشف الستار عن الحقائق من استهواك؟ وكم كان انقيادك وانصياعك عبثاً. إنهض واشدد حزام همتك وأمسك بلجام نفسك قبل فوات الأوان. هل سمعت ما قاله رسول الله وهو يخاطب جرحى إحدى المعارك والمجاهدين.

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال أن النبي ﷺ بعث سريّة فلما رجعوا قال مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٨٤، باب الكبائر، الحديث ٢١.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٨٥، باب الكبائر، الحديث ٢٢.

الأكبر. فقيل: يا رسول الله! ما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس[١].

والملفت أن القرآن يحسب الجهاد الطريق إلى الفوز بهدى الله والسلوك إليه حيث قال تعالىٰ:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[٢].

وقد أكد أحد العظام أن من يزيّن بالمجاهدة ظاهره يزين له الله باطنه بالمشاهدة.

فلتعلمن أنه ليس إلى انفتاح الأبواب وانجلاء الحجب من سبيل إلّا الجهاد فكم من مرة تنصاع لأوامر الشيطان، سلّم مقاليدك مرة إلى الرحمن لترى ماذا تجني من هذا التسليم وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الشيطان يخاطب الضالين في يوم القيامة بأنه ما كان عنده سلطان عليهم إلّا أن دعاهم فاستجابوا له. ثم يردف بأن يلوموا انفسهم ولا يلوموه هو.

ولن يتكلل جهادك بمثل هذا الفخر والاعتزاز إلّا في ظل رعاية الله، فلا تذوقن طعم النصر في جهادك مع النفس ومع الشيطان لولا رحمته وإلقائه نظره الرحيم إليك. ألم تقرأ عن يوسف لسان حاله:

﴿وما أُبرّيء نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربي﴾[٣].

فالنفس تريد لك انقيادك لشهواتك وانفلاتك عن طاعة ربك وأن

١ـ وسائل الشيعة، المجلد ١٥، ص ١٦١، الحديث ٢٠٢٠٨.

٢ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٣ـ سورة يوسف، الآية ٥٣.

تركز اهتمامك في دنياك، وجهادك معها غايته صدك عن شهواتك واستئناسك بطاعة ربك وأن لا تفكر إلّا بآخرتك. هذه هي غاية جهادك مع نفسك، ولا تعلم مدى نجاحك في سعيك وعملك.

روى الإمام محمد الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«يقول الله تبارك وتعالى:

وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعظمتي وعلوي وارتفاع مكاني، لا يُؤْثِر عبد هواه على هواي (أمري) إلّا شتت عليه أمره، ولبست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أعطه منها إلّا ما قدرت له.

وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني، لا يؤثِر عبد هواي (أمري) على هواه إلّا استحفظته ملائكتي وكفلت السماوات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كل تاجر وأتته الدنيا وهي راغمة»[١].

هذه مردودات جهاد النفس. فكر مع نفسك: ما أسوأ النفس من قرين يستدرجك إلى مهالك الضلال ويلقيك في متاهات الشبهات! وما أعظم الله من أنيس يهديك السبيل القويم ويرشدك إلى الصراط المستقيم.

آلى بعض الأعاظم على أنفسهم في مستهل سلوكهم أن يلجموا النفس إن مالت إلى بعض مما في صلب المباحات فيردعونها عنها بهدف تسخير النفس، فكيف بالحرام؟ والزهد ينساق في هذا السياق.

---

١ ـ ارشاد القلوب، المجلد الأول، ص ٣٤٠.

ولتكشف عن حقيقة نفسك، أصفها لك بأنها في منتهى الأثرة والغرور والأنانية. فمن يطري عليها تحبه وتنتقيه، ومن يكذبها تهمله. فقد ينتهج الشخص نهج العبادة لا طاعة لله بل لينال بذلك حسن الصيت. وأنت إن استحسنت عملك وكلامك ونهجك وأداءك، فاعلم أنك من هواة النفس. وإن كنت متحدياً لنفسك وتتحرى عيوبها وتتقصى نقائصها، فإنك ماض في سبيل الجهاد.

من هنا أحسن الانتباه، واحرص على مراقبة نفسك، وأخش ربك فما أهنأك ببشرى زفّها لك ربك في الآية:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾[١].

يروي جابر بن عبد الله الأنصاري (ره) عن رسول الله ﷺ أنه كان أخشى ما يخشاه على أمته اتباع الهوى وطول الأمل.

فكيف لك أن تجابه نفسك وأنت تستصوب اتجاهها دوماً ولا تكل من الإطراء عليها مدحاً؟ وأين لك المفر منها؟ وأنّى لك أن تجاهدها؟

وأعلم أن الروايات تذكر عن أحد المعصومين عليهم السلام أنه قال أن هنالك ألف حجاب بين العبد وربه، أكثرها رهبة حجاب النفس فلو وفقت في إزاحتها فقد ظفرت بعظيم نعمة من الله.

ومن وبال نفسك عليك أنها تذكرك بالتوبة وأنت تذنب وتنسيك التوبة بعد اقتراف الذنب من قبلك. فاخش نفسك واحترس من

---

١ ـ سورة النازعات، الآيتان ٤٠ و ٤١.

تحاملها، والتجأ إلى الله وكنفه، فلا عون لك ولا نصير في هذا الصراع سواه. فنفسك تستمد العون من الشيطان وأنت اطلبه من الرحمن:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾[1].

أريد أن احدثك عن باطنك، فلك في كل لحظة فيض من رحمة الله، وأنت مجرىً تنساب فيه أمطار رحمته فتنهال قطراتها على قلبك وهذه هي ما أسماها رسول الله ﷺ «نفحات الرحمن» في الحديث:

«إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فترصدوا لها».

ولك من النقمة الشيطانية فيضان أنت مجراه، وقطراته تتهاوى على نفسك. عسىٰ أن تطمر مجرى هذا الفيضان فتفتح مجرى قلبك للرحمة الالهية.

ايها العزيز! استأنس بقلبك لعلك تتعرف على ملكوتها، فكعبة الأبصار من شأن كل انسان أن يحج إليها خلافاً لكعبة القلوب لا يظفر برؤيتها الجميع إلّا من اتخذ السبيل إلى ذلك بالخشوع لله.

احبس البسمة عن شفتيك واذرف الدمع مدراراً، فأين أنت من الضحك وانت لا تعرف إلى مَ ينتهي مصيرك؟ فحتى رسول الله ﷺ أكد أنه يعجب ممن يؤمن بحقيقة نار جهنم ويضحك، كما أكد الإمام الصادق عليه السلام بأنه ما أكثر الذين زاد حظهم من اللهو والطرب في الدنيا،

---

١ ـ سورة النور، الآية ٢١.

وحظهم من البكاء في الآخرة، أعظم.

الآن وقد اخترقت أبواب التوبة، اشدد حزامك للخيرات والحسنات. لا تركن إلى البطالة. فالتغاضي عن التنعم بالفيض الالهي إنما هو مؤشر لانعدام الهمة. استدخل الشعور بخفة الحسنات وأنت تأتيها طلباً لرضا الله وبالثقل إثر اقتراف السيئات لشدة خيفتك من عقابه. تعمق في هذا المفهوم بدقة.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«ان الله ثقَّل الخير على أهل الدنيا كثقله في موازينهم يوم القيامة. وإن الله عز وجل خفَّف الشر على أهل الدنيا كخفته في موازينهم يوم القيامة»[١].

المهم، أنك صوبت اتجاهك نحوه وتركت الشيطان والنفس.. وليس المهم انك تتقدم إليه بخطى وئيدة أو سريعة. المهم ان لا تتخلف عن ركب السائرين إليه فتحرم من نظره إليك. فمن ينظر إليه حبيبه يفوز بلقائه يوماً. فلا تيأسن من طرق هذا الباب، فإنك سوف تراه ينفتح أمامك في نهاية المطاف.

يقول الله تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾[٢].

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٤٣، باب تعجيل فعل الخير.

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

«الإشارة الأخيرة»

ربما اشتدت رغبتك في أن تمنع نفسك من التدنس بالذنوب وإن كنت غارقاً في بحر الذنوب في غفلة منك..

لم نفرغ تماماً من كلامنا حول «التخلي» في هذا الفصل لعلني أمهد لك في الفصل القادم (التزكي) لتحصل على معرفة تامة حول الذنوب فتتبنى إزاءها، بعد تعرفك عليها، نهج التحدي والمواجهة. على أمل أن يستتبع انتفاعك من هذا المبحث استشفاؤك بما يليه من أبحاث .

ومن الله التوفيق

الخطوة الثانية

«التزكي»

(تزكية النفس من الصفات الذميمة)

تنويه:

ايها القارىء العزيز

ايها الواله بالمعرفة

لك مني السلام

قدمت لك قبل هذا بحثاً يحمل عنوان «التخلي» عرضت لك فـيه آداب التوبة ومنازلها وحكايات عن التائبين. نأمل أن تكون اجتزت كل تلك المنازل وعزمت الآن على السير نحو المنازل القادمة.

فاعلم،

إن طريقك يكتظ بالعوائـق العـملاقة والأوديـة العـميقة والذئـاب المتوحشة. دعني أطلعك على هذه الأخطار لتسترسل في سلوكك نحو الله بعد ذلك. فإليك هذه المعارف:

«مطلع الكلام»

ايها الأنيس! دعنا نتهامس ثانية، همسة نريد بها رضا المـحبوب. ففيه تتلخص غاية الحياة وعليه يتوقف ناموس العـالم وإليـه تـتحدد وجهتنا.

ألا تذكر يوم تنبهت لنفسك وكأنك قطرة وصلت مع حركة الزمـن إلى مستنقع آسن لا تنال منه سوى التعفن والتلوثات، ولم يكن لك فيه إلّا التثبيط والغفلات، ترتمس في حَمَئِه بين الديدان، وقد غابت عنك حقيقة تعفنك. تلقفتك يد ربك، وأزاحت بـغيث رحـمة تـوبته حـجرة النفس عن طريقك لتبتدىء أنت إليه حركتك وسلوكك.

فيا صاحب النفس الكريمة! احترس منذ الآن من التوقف، فأنت لم تعد ذلك الشخص السابق عينه، فقد صرت صاحب قلب ونفس جديرة بلقاء المحبوب. طريقك إليه ما زال طويلاً. ولتستأنف سيرك لابـد أن ترفع من مسيرك الصخور والصخور.

ما زلت قطرة، قطرة نزيهة نقية، انتقت من شوائب المستنقع. وأنت سالك إلى الله. انبذ التعب عن نفسك ودواعي النكـوص عـن كـيانك،

فنحن عازمون على المضي في حركة متواصلة لا النـوم عـن غـفلة مستدامة. الحركة مطلوبة لبلوغ البحر لتـحرص عـلى بـقاء قـطرتك. فباتصالها بالبحر تضمن لها الخلود والفوز باستضافة المحبوب.

فحادثة التبخير لما تفصل القطرات عن البحر إنما تزجّ بها في دوامة يتعاظم فيها تيه القطرات وتشتد حيرتها! فتلبث حـيرى مشـدوهة لا تعرف للاستقرار معنى فتسوقها كل نسمة إلى جهة خاصة ومـنها إلى أخرى. تتعرض تارة لتعنيف الرعد وأخرىٰ لسياط الثلوج.

وعناء الغربة والبعد يسلب قلوبها الصبر والتـجلد. فـتتهافت نـحو بعضها متكاثفة وتتباكىٰ موحدة آلامها. وما أن تنهمر دموعها مدراراً حتى ترىٰ نفسها على سفح جبل تتطلع منه الى البحر. فـتتوجه إليـه مستغيثة لينتشلها من عناء الغربة هذا، فيتعالى أنـينها، ولكـن الظـلام يعمها والبرد يعصف بكيانها. كانت في موعدها مع الغربة والمحنة، مع الفراق والعزلة، ولما واجـهت البـرد القـارص تـعانقت ازاءه مـتكاتفة وانحدرت نحو الانجماد متشابكة مكتئبة حتى انجلى الليل فتنفست الصعداء هنيهة مع إشراقة الصباح عندما انـفرجت الآفـاق وأكـرمتها بشمس الرحمة لتزيل عنها شيئاً من عنائها:

﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾[1].

انعتقت من الظلام.. انتهى عـهد بـردها وأمـنت وعـيد انـجمادها، انضمت إلى نور الشمس آخذة طريقها نحو البـحر، أضـفت الشـمس

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

ضياءها على البحر وبتجليه تعاظم حـبها له، فـراحت تسـير وتسـير وتشق دربها بين الرمال والصخور شقاً وتقتلع نبات الأشواك من دربها اقتلاعاً، تصحب معها الحصىٰ متسارعة وتكتسح الأتـربة مسـترسلة ماضية حتى تلتقى القضاء عند سهل المستنقعات فيخيل لها أنه البحر فترتمي في أحضانها لشدة هياجها وسـرورها لعـلها تُسكـن عـندها روعها ويذهب عنها عناء سفرها وهي في غفلة عما أوقعت نفسها فيه من ضنك وما انتهت إليه من مأزق!

ثم يحل موعد صحوتها.. ولما تستيقظ من نومها العميق يداهم نتن المستنقع مشامها ممزقاً حجاب الوهم عن بصيرتها. ديدان المسـتنقع صارت مثار اذاها والثعابين تتكالب عليها.. ولما يعود للهواء بـرودته تعصف بها معاناة الغربة والبرودة معاً حتى ينجمد المستنقع بكله.. تشتد معاناتها وليس لها من أحد يسندها. تعود للتأوه سحراً.. الآهات كانت قد انقذتها من مشاكلها مراراً. فآهات المكتئبين تهشم الصخور. هكذا تنساب مياه المستنقع متجهة نحو الصحراء.

حسناً، ايها العزيز! بلغنا هذه المحطة معاً، عسىٰ أن لا تكون مرهقاً من عناء الطريق. إياك والنظر الى الوراء.

(اعوذ بالله من العمى بعد الجلاء، ومن الضلالة بعد الهدىٰ).

كانت الشمس قد قالت لك:

﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[1].

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٦.

وأنت بدورك حدّث البحر: إننا نهواك ولن تنتحي قلوبنا عن دربك مهما ابتلينا بمآس في كربتنا ومللنا غربتنا. طالنا مستنقع الدنيا المُكبل بحَمَئِه واشتدت سخرية الشيطان بنا، نتخبط في مأزقنا. انتشلتنا من المستنقع وحدوت بنا للمضي إليك، فارعنا ولا ترتض لنا بالخنوع والتخلف.

كأن الأنسام صارت تهب من البحر، لعلها تحمل من البحر نداء. ولكنها تناجي الشمس. دعنا نستمع إلى نداء البحر من تهامسها. فهنالك مُلك الأنس وليس للشمس من نداء إلّا النور:

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[1].

وقد جاءنا في هذا الكتاب الجلي نداءان، فانصت:

البحر يقول أولاً: لنا معك على مر اللحظات نداء فهل التفت لماذا لا تتنبه لنداءاتنا. إنك آتٍ من المستنقع. لم تُغير ما بك من لون ورائحة. وبهما لا تكون جديراً باللقاء. لابد لك أن تزكي وجودك تماماً فندائي لا يتلقاه إلّا المطهرون:

﴿لا يمسه إلّا المطهرون﴾[2].

وأما النداء الآخر، فانه:

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فمُلاقيه﴾[3].

١ـ سورة المائدة، الآية ١٥.

٢ـ سورة الواقعة، الآية ٧٩.

٣ـ سورة الانشقاق، الآية ٦.

إذاً، صاحب الندائين يطالبك بالتزكية، بتطهير نفسك تماماً، وبأن لا تكف عن الكدح والمثابرة. يقول: هكذا تظفر بلقائي.. الخلاص من المستنقع كان خطوة يسيرة، فالعسير هو التجرد عن خصائص المستنقع. ولكن لا عليك.. فهذا طريق الله وهو فيه لك المعين والنصير. لا تثقلن نفسك بهموم الطريق... استأنف مساعيك. سأحدثك في هذا الفصل عما يلحق المرء في المستنقع من ألوان وروائح. فإن وجدتها فيك، فالقها في المستنقع، وارتو بالحياة وبمعناها الحقيقي من الماء. عندها، تحقق لنفسك حياة حقيقية وتغدو معطاء للحياة بدورك:

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1].

وإن لم تجدها فيك، فاحمد الله واشكره على أن نفسك ارتدعت عن التلوث بتلك الألوان والروائح ولو كنت قد لبثت في المستنقع أمداً.

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

«الوله بالمستنقع إلى جوار البحر»

اخبرتك أنك انتشلت نفسك ولله الحمد من المستنقع. فاللبث في المستنقع يعني حب الدنيا وما فيها. إحمل معك من مائها وزادها وارقد واسترح في فراشها، وتمتع بنعمائها. ولكن لا تنس أنها محطة للانعتاق من التعلقات. فلابد للقلب من كف مشاعر الحب عن جميع مستهويه وغض الطرف عن الأنس باي أنيس.

البحر يموج بداخلك، وأنت موجود بحري فمالك وحب المستنقع؟

المحبوب الواقعي يتحدد لك موقعه وأنت تقرأ الآية:

﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[1].

فلِمَ تتقصاه هنا وهناك؟

إنما خصصت إشارتي الأولى بحب الدنيا لأن الإمام الصادق عليه السلام يقول:

---

١ ـ سورة ق، الآية ١٦.

«رأس كل خطيئة حب الدنيا»[١].

تمهل ليقدم لك خالق الدنيا نفسه تعريفاً لها، فكلامه يزيدك يقيناً:

﴿وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور﴾[٢].

ويقول أيضاً:

﴿وما الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب﴾[٣].

وقال عز وجل أيضاً:

﴿إعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾[٤].

هل تذكر بِضْعةً من أيام صباك، قضيتها تلعب مع الصبية. يوم أجلسوك على عرش السلطنة وتلقيت منهم الإجلال والاحترام. واصلت اللعب هكذا لساعات.. وبحلول الليل عدت إلى دارك، لا تاج يعلو رأسك ولا قباب تكسوك. تركت سلطانك وعدت إلى دارك! قس على ذلك حكايتك مع الدنيا ولعبك بها، واعلم أن القبر دارك.

فأنت راحل عن الدنيا متجرداً عما لك فيها، لا يشوبك شك بأنك ترد دارك خاوي اليدين. ففقرك هذا ورحيلك أمر مفروغ منه. كن واثقاً أن تعلقك بهذا اللعب ربما يؤول إلى حرمانك من ربك. ولكن إصغ إلى حكاية الأبرار من لسان الإمام علي عليه السلام حيث يقول:

١ـ الكافي.

٢ـ سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

٣ـ سورة الأنعام، الآية ٣٢.

٤ـ سورة الحديد، الآية ٢٠.

«والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته. وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقىٰ، نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»[1].

وكذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها، أحدهما في أولها والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المؤمن».

لعلك تركت المستنقع وأدرت إليه ظهرك، ولكنك ما تزال مغرماً به. تمعن بدقة في خطاب القرآن الكريم وأنت تتلو الآية:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناه حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾[2]

فما دامت الدنيا لا تحظى بقيمة تشد قلبك إليها لتفني عمرك في خدمتها، نشّط فكرك. ماذا تأمن لك هذه الخدمة عند انتهائها؟!

ربطت نفسك بوله المال من جهة ومن جهات أخرى بوله الدار وكبّلتها بقيدين فرضهما عليك حب الزوجة وحب الأولاد. وهكذا

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة (٢٢٤).

٢ ـ سورة يونس، الآية ٢٤.

دواليك صرت مكبلاً برباط فوق رباط فتحولت مجتمعة إلى سلسلة تقيدك حتى يتعذر عليك الالتفات إلى جهة مخالفة.

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز، كلما ازدادت من القز على نفسها لفّاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً».

فيا أيها العزيز! حظك من رزق الدنيا تناله، لا محالة، ونصيب الناس من هذه الدنيا متماثل تقريباً. فإن تفهمت معنى الرزق، فالروايات توجهنا إلى معناه بالإشارة إلى أن المطلوب من رزق الدنيا ليس إلّا لقمة تبتلع ولباس يُرتدىٰ وزوج ينكح.

فلو جلست إلى مائدة عامل بسيط وعملت حساباً لعدد لقماته سوف تتنبه عما إذا كان رزقه أكثر أم الأثرياء؟

مر أحد الموسرين في إحدى ضياعه بقروي يأكل اللبن والخيار مع البصل. فوقف يتأمله وخاطبه قائلاً: تناول يا رجل. واصل الرجل الأكل والموسر النظر حتى قال أخيراً: صدقني إنني على استعداد أن أهب لك ثروتي كلها على أن أتقاضى عنك هذه الشهية بدلاً، ولكنني أتحسر على تناول لقمة واحدة من مثل طعامك. وهيهات ذلك ومعدتي متقرحة.

فيا أيها الحبيب! إهنأ بحياة هادئة. فوالله لحياة تذيق صاحبها الهدوء والاستقرار والسلامة مع الخبز والبصل أفضل من تشوش واضطراب وأمراض يصارعها الشخص جالساً على كرسي السلطان. واعلم يقيناً أنك نفسك نطقت بمثل ما أقول كل ما اعتراك مرض ما.

فأنت إن كنت مالكاً لمائة طقم من الألبسة، كم منها تواصل استعماله حتى تبلىٰ؟ هكذا هي ثروة الأثرياء، لا يعلم إلّا الله من ينعم بها مآلاً!

فلا عجب أن تغدو أموال أمثالي بعد مائة عام رزقاً لآخر ولقمة في فم إنسان لم يقدم إلى الحياة بعد.

يروىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«ما فتح الله على عبد باباً من أمر الدنيا إلّا فتح الله عليه من الحرص مثله»[1].

فماذا تطلب من ربك؟ شيئاً يزيدك حرصاً وولعاً بالدنيا في حياتك وتعلقاً بهذه الكرة الترابية عند احتضارك؟

كأس الدنيا خاوية، ومآل هنائها إلى الفناء والتعلق بها سذاجة محضة، فلا حاصل له إلّا سوء العاقبة.

فأفضل كسب الدنيا يتمثل في أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام وكلام الله المجيد، وهو ما نقلنا منه الجزء اليسير. فإن رغبت في الجلوس إلى هذه المائدة، إعلم أن الرزق وفير. ولك ان تتناول منه ما شئت، لقمات تغذي بها روحك ونفسك. فإن كان استيعابك على هذا القدر، فلا بأس عليك أن تأخذ لقمة أخرىٰ من هذا الصوان.

دعني أقدم لك وأنت تجلس إلى هذه المائدة لقمة تبث فيك طاقة

---

١ ـ الكافي، كتاب الكفر والايمان، باب حب الدنيا والحرص عليها.

من عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أما بعد، فإن الدنيا أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد اقبلت، وأشرفت باطلاع. ألا وان اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار. أفلا تائب من خطيئته قبل منيته. ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه! ألا وانكم في أيام أملٍ من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله. ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله وضرّه أجله. ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وأني لم أر كالجنة نام طالبها. ولا كالنار نام هاربها...»[1].

أحدثك أنت يا من انضممت إلى هذه القافلة الآذنة بالوداع. انهض، فقد أُعلن نداء الرحيل.

هؤلاء جميعاً شدوا رحالهم متأهبين، لا يثير عندهم هذا النداء اضطراباً وتشوشاً. يتخلون عن دار الفناء ببساطة ويلتحقون بدار البقاء بوداعة ونالوا السرمدية من نفس هذه المحطة ففازوا بالدوام. لم يزرعوا بذراً إلّا شهدوا حصاده ولم يدخروا شيئاً إلّا وقد حملوه معهم زاداً.

كأنك تشعر بالإعياء من هذا الكلام، أمهلني آتيك بحكاية من الأساطير. أعلم أن القصص تداعب نفسك منذ عهد صباك:

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

«السلطان المتبصر»

جاء رجل فقير إلى مدينة هو عنها غريب. لم يكن الفجر قد بـزغ ولم تفتح بوابة المدينة بعد. جلس خلف البوابة بـانتظار انـفتاحها. لم يطل أمد انتظاره أكثر من ساعة حتى فُتحت البوابة. ومـا أن أراد أن يدخل إلى المـدينة حـتى اقـتادته مـجموعة مـن الرجـال إلى قـصر السلطان. لم يتلق جواباً مـهما تـوسل إليـهم أن يـحدثوه عـن ذنـبه وقصوره. ولكنه واجه مشهداً عجيباً في قصر السلطان.. أجلسوه على العرش وراحوا جميعاً يـتعاملون مـعه بـإجلال وإكـرام ويـتملقون له معتذرين بإسهاب.

استوضح السبب، فقيل له: إننا نختار سلطاناً، سنوياً في مثل هـذا اليوم على هذه الوتيرة.

لم تتبق عزة إلّا وقد نالها هذا الفقير المدقع. وبعد فترة فكّر في نفسه ذات يوم (فما أسعد المفكرين من نشـطاء الذهـن والعـقل): لابـد أن أتقصى حكاية السلاطين من قبلي، كيف انتهى عهد سـلطانهم وأيـن حلوا؟ لم يحصل على رد مهما جدَّ في السؤال من هـذا وذاك حـتى صاحب رجلاً مرشداً أخبره من منطلق الود أن: في الأيام الأخيرة من السنة يؤخذ السلطان بسفينة إلى جزيرة نائية لا عمران فيها ولا سكان، فيترك فيها فيعود الجميع ليختاروا من ثم سلطاناً آخر.

تقصى السلطان المتبصر موقع الجزيرة وتحولت منذ غداه مسـيرة حياته. صار يشتري العبيد والجاريات خفية ويمدهم بالمال والأدوات

فيبعث بهم إلى الجزيرة مفوضين بعمرانها فأقاموا فيها الأبنية والبساتين. والناس لا يرون، في ظاهر الأمر، لسلطانهم مالاً ولا متاعاً خلافاً للسلاطين من قبله ودهشتهم عظيمة لتركه شؤون الدنيا.

ولما انتهت السنة، أخبره الوزراء يوماً: اليوم يوم الصيد الحكومي، لابد من ارتياد البحر. فتنبه إلى حقيقة القصة. فشد أزره واستقل السفينة بلهفة. أُخذ إلى لجة البحر وترك في تلك الجزيرة النائية ثم عاد الجميع.. استقبله أعوانه معدّين له مقدمات سلطنة أخرىٰ، فيها ما فيها من عز ورفاه.

فيا أيها العزيز! أنت ذاك الفقير المدقع في ديار الدنيا.. منحت فيها ما يروق لك من تمتعات. السلاطين الأسبقين هم معارفك ممن رُحّلوا جميعاً إلى جزر المقابر الجرداء، ولم يحملوا معهم زاداً وغذاء، والوزراء هم المحيطون بك يودعونك تابوتاً مبهرجاً ليحملوك به إلى جزيرة المقبرة فتترك فيها، وذاك الرجل المرشد هو الرسول ﷺ هداك السبيل إلى تلك الديار لتتدبر أمرك كهذا الغريب. فلك أن تخطط لغدك سَداداً وتتعامل مع نفسك وداً. فاليوم الموعد آت وهذه السنة مآلها إلى انتهاء. فلا دوام لهذا السلطان الأخّاذ.

أيها العزيز! أنظر في أمر الراحلين من معارفك. كم منهم أذاق نفسه مراً ليأمن لنفسه ذخراً بحسب علمك. لم يَنعَموا ولم يُنعِموا. كانوا للتمتع يطمحون فصاروا على أنفسهم كذلك يبخلون، حتى يوم هم لجميعها تاركين وعن الدنيا فقراء راحلين.

كلما انخدع قلبك بنعمة من نعماء الدنيا تخيل أنك مُنحتها وتُركت

لشأنك، ولكنك على موعد مع الساعة الأخيرة من حياتك، فماذا أنت فاعل بتلك النعمة؟

يقول الإمام الهادي عليه السلام:

«اذكر مصرعك بين يدي أهلك، ولا طبيب يمنعك ولا حبيب ينفعك»[١].

فما دمت لا تصوب عينيك إلى ما وراء غشاء الدنيا ولا تتخلىٰ عن هذا النحاس المذهّب الخادع، فاسمع قول ربك يحذرك أن تكون ممن:

﴿تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾[٢].

وكذلك في قوله:

﴿كلا، بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾[٣].

أبصر شيخوختك في شبابك، وفقرك عند غناك، وهبوطك في أوان اعتلائك. فلكل ربيع خريف يعقبه، ولكل صحة سقم، ولكل جمال ذبول ينتظره.

ظفائر الحسناوات البديعة على موعد مع البياض، وجمالهن يداهمه ذبول الشيخوخة. فعقبى عنفوان القوي عجز الشيخ الضعيف، وعلم العالم نسيان الهرم. إياك والانخداع بدار الغرور، فالإفلات منه عسير مضن:

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٥، ص ٣٧٠، باب ٢٨ ـ مواعظ أبي الحسن الثالث (ع).

٢ ـ سورة الأعلى، الآيتان ١٦ و ١٧.

٣ ـ سورة القيامة، الآيتان، ٢٠ و ٢١.

يقول الله تعالى:

﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[١].

فيا أيها العزيز! إياك إن أغناك الله من فضل نعمه أن تغفل عن رزّاقك وأنت تستغل فضله، فتدير ظهرك لولي نعمتك، فتصبح حكايتك حكاية الآية:

﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[٢].

تمهل قليلاً، فأنت موجود محدود، محدود الزمان، محدود المكان، محدود الأكل، محدود الشرب، محدود الأهواء الجنسية، محدود في النظر والسمع والشم. فعَلامَ أطلقت العنان لتمنياتك اللا محدودة. فلنفترض أن ينال هذا الموجود المحدود نعماً لا حدود لها، فلكم منها هو حامل؟ أنت إن أُجلست إلى مائدة تُشبع مائة شخص، فما مقدار ما تستوعبه منها؟ فاللذة المطلوبة هي لذة الباطن والنفس. فتمتعك يبلغ العالم بأسره لو فزت بها. فلولاها لما ذقت تمتعاً حتى إن ملكت الكون. إلتذاذك بالأزهار والورود يشبعه سندان أو مزهرية. فروضة الأزهار تزيدك نكداً ونصباً إن كنت غريب النفس عن مثل هذه اللذة.

فالمعافىٰ يصيب شبعاً بلقمة خبز والمريض لا يأمن له ذلك حتى ألذ الموائد.

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ٣٣.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٤٤.

فليست حسرة فقر الدنيا تنغص على الإنسان وهو يرقد في مثواه الأخير، بل تؤلمه حسرة وفاته دون أن يحمل معه زاداً. لا يتحسر على موته بل على رحيله مفتقراً إلى ما يلزمه. فحسرته إنما تكون على فقره في ديار بقائه لا في دار فنائه.

إياك أن تتعلق بمغريات الدنيا الخادعة، وتترك المحبوب لأجل المغضوب. هل سمعت حكاية ذاك الرجل الماجن، راح يتتبع امرأة حتى استدرجها، باستمالته لها واستهوائها، إلى أحد المرابض. مهما ألح عليها بالوصال كانت تجيبه: لم يحن أوانه، تمهل حتى حلول الليل. ومع سدول الظلام كشفت النقاب عن سيمائها في حلكة وكر الضلال، وقالت: هيت لك محبوبتك، فلطالما ولهت بها. فلما همّ بها انطلق بارق من السماء، به لاحت له وجناتها فكانت لها سيماء أحلك من دجى الليل وأكثر وحشة ونفوراً من ذلك المربض. ما كانت إلّا عجوزاً شوّه الجدري وجهها، إمرأة رعناء، متشردة هوجاء. فما كان منه إلّا أن يهتف: أنّى لك كل ذلك الاستهواء والاستحباب بهذا الاستضلال والاستتار؟

قالت: لم تبصر ما دمت في النور، فكيف كان ذاك منك في الظلام؟

ايها العزيز! الدنيا هي هذه العجوز الشمطاء. فمع شدة قبحها يغتر بها كثيرون من عبدة الدنيا، فيعانقونها ويتولهون بها ضلالاً. إياك أن تغفل عن قبحها إلى أن تظهر لك حقيقتها في القبر. فأنت الآن في عالم النور، اكشف النقاب عنها بنفسك قبل فوات الأوان.

يروى أن النبي عيسى ﷺ رأى في مكاشفاته عجوزاً شنعاء هتماء

عليها كل زينة، فسألها: كم تزوجت؟ أجابت: كثرة. فعاد وسألها: أماتوا عنك أم طلقوك. قالت: بل قتلتهم كلهم. فعجب لأزواجها الباقين، حرصوا على وصالها وهم قد رأوا ما كان منها مع من سبقهم من أزواجها وكيف لا يعتبرون بأزواجها الماضين ولا يكونون على حذر. فردت على تساؤله بأنها تخدعهم بتزينها لهم. سألها عن اسمها. أجابت: الدنيا.

الآن وقد عرفت الدنيا حق المعرفة. إن كنت ما تزال تجد في أعماق قلبك بقايا من حبك لها أحسن التعمق فيما آتيك من مطالب لعلاج داء لبثك على هذه الحال.

«إشارات في معالجة حب الدنيا»

لابد للإنسان إن رغب في الانعتاق من حب الدنيا أن يعلم:

(أولاً): أن الفكر النافع لأهل الدنيا هو أن يتبصروا في حاصلهم من كل هذه المساعي والجهود والتخطيط لجمع الأموال أن يتعمقوا في عقباهم ومصيرهم. كم كان يبلغ عمر معارفك الراحلين؟ إحسب معدل أعمارهم باعتباره نصيبك من العمر، المحتمل بالطبع، وإلّا فمن يدري قد يكون قبرنا محفوراً وهو بانتظارنا الآن. فعمال المقابر لا يهدرون أوقاتهم سدىً إن لم يفد عليهم موتى، بل يحفرون القبور بانتظار الأحياء الوافدين عليهم قريباً. فماذا يا ترى سوف تحمل معك عند حلول الموعد؟ هل أعددت كفنك؟ فلتعلمن أنه يتعذر عليك اصطحاب أي من ثمار عنائك وجهدك ومالك ومنالك معك إلّا الكفن. متى ما

استمالتك الدنيا واستهوتك أخرجه وامعن النظر فيه وحيي متاعك الوفي. ناده يا زميل الرحلة! إنه لشديد الرأفة بك، بل أكثر حناناً عليك من زوجك وأولادك. إنه الوحيد الملتزم برفقتك بعد وفاتك، حيث يتخلى عنك الجميع سواه.

أنت أيضاً كن واثقاً أن الجميع يطمحون إلى مثل هذا في القبر. وفي كل ليلة فكّر وأنت تلجأ إلى فراشك أنك راقد في قبرك، وفي كل صباح عندما تفيق من النوم تصوّر أن الله وهبك الحياة ثانية. خاطب نفسك: لأبدأ بإعداد عدّتي. فكّر هكذا. فعند حلول موعد الرحيل هيهات أن تفسح لك الفرصة.

يقول الله تعالى:

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[١].

فما دام الزمان لا يتكرر والعمر لا يعيد كرته، استغل الفرصة. فوالله ليس للإنسان من نتاج عمر يفيده إلّا العمل الصالح. فمع رحيلك تسألك الملائكة: ماذا تحمل؟ ويسألك أهل الدنيا: ماذا تركت؟ فما حملته ينفعك أنت وما تركته يفيد غيرك.

تمهل حتى موعد القيامة لترى كم من بواعث السعادة والهناء ادخرها البعض خلال أيام حياتهم المحدودة ليكونوا أهل نعمة أبد الدهر. وكم من دواعي العناء والشقاء أتىٰ بها البعض الآخر فغدوا محط نقمة عهداً سرمداً.

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٣٤.

(ثانياً): أن اليد الواحدة لا تصفق. فكل من أبدع في عمل ما تماماً، تخلف عن عمل أو أمر آخر. وأنت عاجز عن الإتيان بعملين من المحاسن في آن واحد. والإنسان أما يحسن خدمة دنياه أو عقباه. فهاتان المهمتان لا تنسجمان معاً لا من حيث الزمان ولا مطلوب الفؤاد ولا الجسم. فكل مهمة يناسبها زمان خاص واهتمام وقوة جسمية إن وجهتها نحو إحداهما تخلفت عن الأخرى.

فأنّى للقلب المنشغل بالأسواق والأسعار أن يتوله بالحبيب والأنوار؟ وأنّى لراحة يدين تقبضان على أدوات اللهو والمجون أن تمسك بسُبْحة تذكر بها الرب والملائكة؟

لا أقصد أن تتخلى تماماً عن الدنيا، بل لأعرض عليك أوصاف الدنيا الحميدة. مطالبك كلها إلهية ما دمت تطلب ما تطلبه في سبيل الله. ولكن حبك للدنيا ورعايتك لشؤونها خدمة للدين والآخرة لهما حدود وأطر. فلا تكن ممن يغفل عن الحدود في هذا المجال. تقضي الليل نوماً والصبا لعباً والشباب ترفيهاً وانتعاشاً والشيخوخة للجواهر والدرر محاسباً.

حديثك في الصبا مع أقرانك، وفي الشباب مع عائلتك. وشيخوختك تقضيها تفكر بمالك وأحفادك؟ حدثني، فمتى موعد استئناسك بحبيبك؟

إن كنت راغباً في تجارة لا تبلىٰ. إصرف حياتك في عبادة مردودها لا يفنىٰ، ومن غير سوق الحياة لا يؤتىٰ:

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[1].

ما لك إلّا قلب واحد لا يستوعب في الآن الواحد إلّا أمراً واحداً كما هو أداء باصرتك وسمعك. فكيف لك أن تخطط في حياتك القصيرة هذه لتحصيل المال ومعارف الحق معاً.

آتيك بحديث من أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، لأزيدك يقيناً:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا أراد الله بعبد خيراً، زهّده في الدنيا، وفقّهه في الدين، وبصّره عيوبها. ومن اوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة.

وقال:

لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا وهو ضد لما طلب أعداء الحق.. الا انه حرام عليكم أن تجدوا طعم الايمان حتى تزهدوا في الدنيا»[2].

فيا أيها العزيز! هذان حبان لا يجتمعان في قلب واحد. والعمر لا يفسح مجاله لتحصيل منافع الدنيا والآخرة معاً. فأما تتقبل القناعة في أولاهما أو يكون الإحباط نصيبك في ثانيهما:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ان في طلب الدنيا إضراراً بالآخرة وفي طلب الآخرة إضراراً بالدنيا.

---

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٤.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٣٠، باب ذم الدنيا والزهد فيها.

فأضرّوا بالدنيا، فإنها أولىٰ بالإضرار»[١].

(ثالثاً): كم يدوم إخلاص هذه الدنيا لك؟ وهل في أمده ولبثه وثوق؟ فحتى لو كان هكذا، فإنه لمحدود بمدى بقائك حياً، وإن لم يكن فلربما تجدها في خدمتك اليوم دون الغد فتتركك ملوماً مخذولاً.

وقع أحد السلاطين أسيراً في يد غريمه في إحدى المعارك. كان في معتقله عندما قُدم له طعامه في وعاء ذي عرى. فعجل إليه كلب وراح يلعق طعامه فأحرقت سخونة الطعام لسان الكلب فابعد رأسه عن الوعاء فتعلقت العروة بعنقه، فحمله معه وهو يعود أدراجه. ارتسمت البسمة على شفاه السلطان الأسير. سأله عدوه: ماذا يضحكك وليس في الموقف ما يضحك؟ أجاب: تضحكني سرعة زوال العهد. بالأمس كان طباخي يقول: اربعمائة ناقة لا تكفي لحمل أدوات طبخ الملك. أأمر أن يزودوني بمائة ناقة أخرىٰ. واليوم يحمل الكلب معه كل طعامي ومطبخي.

صدق الله العظيم في كل ما أتاه في قرآنه الكريم حيث قال:

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقىٰ﴾[٢].

وفي خطبة له قال أبو ذر الغفاري (ره):

«يا مبتغي العلم، كأن شيئاً من الدنيا لم يكن شيئاً إلّا ما ينفع خيره

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٣١، الحديث ١٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها.

٢ ـ سورة الأعلى، الآيتان ١٦ و ١٧.

ويضر شره إلّا من رحم الله. يا مبتغي العلم! لا يشغلك أهل ولا مال عن نفسك، أنت يوم تفارقهم كضيف بتّ فيهم ثم غدوت عنهم إلى غيرهم. والدنيا والآخرة كمنزل تحوّلت منه إلى غيره. وما بين الموت والبعث إلّا كنومة نمتها ثم استيقظت منها. يا مبتغي العلم! قدّم لمقامك بين يدي الله عز وجل. فإنك مثاب بعملك كما تدين تُدان يا مبتغي العلم»[١].

قد يشغل بالك حب الزوجة أو الأولاد، تغرم بمسكوكاتك ذهباً وفضة، تفكّر بقطيع غنمك أو بساتينك أو ممتلكاتك. ولكن أمعن التفكير فيما يقول ربك إنه يعدد لك هذه النعم ثم ينوه لك بأن كل هذه النعماء لا قيمة لها إزاء نعمه الأزلية:

﴿زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب﴾[٢].

الورد لما يفرغ بعد تبسمه عندما يباغته نسيم الخريف ويعيث بريعانه. ربما الشاب كذا لم يُشبع نظراته إلى الدنيا فإذا بترانيم الرحيل تتناهىٰ اليه، وأنت أيضاً قد لا تكون استوعبت معنى الحياة جيداً وإذا بك تجد نفسك على تركها مرغماً.

إياك أن تأذن لقلبك لتستهويه مثل هذه المفاتن الفانية. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٣٤، الحديث ١٨.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٤.

«ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثلها كمثل الراكب رفعت له شجرة في يوم صائف، فقام تحتها ثم راح وتركها»[١].

(رابعاً): أن لذة الدنيا وإن تحققت بتمامها، ما أزهدها! فلو أقيم لك بستان على مساحة مدينة كاملة وكان لك فيه أبنية متراصة وأنهار كثيرة وقصور فخمة، فكم زهرة لك أن تُنعم بها بصرك في اللحظة الواحدة؟ وفي كم منزل، لك أن تُقيم في الساعة؟ وإلى كم نهر يمكنك الجلوس؟ فليقنعك نهر واحد ومنزل واحد وروضة أزهار.

فاستيعابك المادي من هذه الدنيا زهيد، ولكن تمتعك في دار الآخرة كثير وفير:

يقول عز وجل:

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل﴾[٢].

«ثري مات يتضور جوعاً»

كان هنالك رجل يهودي يدعىٰ «داود ساسون» له من مجوهرات الذهب والمال والثروة ما جعلهم يعتبرونه رب ذهب العالم بأسره. بلغ إمعانه في الاهتمام بالمال والثروة درجة أصابته بحالة مالخولية،

---

١ ـ المصدر السابق، الحديث ١٩.

٢ ـ سورة التوبة، الآية ٣٨.

نصحه الأطباء أما أن يقلل من أمواله بالبذل والأعمال الخيرية أو أن يحتفظ بها مجتمعة في خزان ليلملم شتات فكره بتركيزها.

قال الرجل: لا طاقة لي بأولاهما. سأمعن في لمها.

صنع خزان من الحديد والرصاص، وحوّل أمواله كلها إلى مجوهرات اختزنها فيه وله باب عملاق يقفله ويضع مفتاحه ليلاً تحت وسادته ويخلد للنوم بارتياح وهو يقول: هكذا لوّعت قلب الناس بحسرة هذه الأموال.

كان بين فينة وأخرىٰ يأتي خزانه فيشرف على أمواله ويلتذ برؤيتها حتى جاءها يوماً فانكسر مفتاحه في القفل وهو بداخل الخزان، فصار سجيناً في خزانه. لم يلتفت أحد إلى أنه بداخله مهما جهد في الدق على الباب بما أوتي من قوة. ولما فتحوا الباب بعد مضي شهر تأنف الجميع بمناديلهم لنتن تعفنه، فوجدوا إلى جانبه خطاباً جاء فيه:

«تنبهوا أيها الناس فربُّ ذهب العالم مات يتضور جوعاً».

***

فإن كنت راغباً في العزة، فربك يمنحك العز على قدر ما يشاء، ولو كنت تريد المال دون العز، فما نفع مالك ووجوده؟ فإلى متى تريد التشبث بنعيم الدنيا غافلاً عن نعيم الآخرة؟

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1].

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٧.

وعن جابر، قال: دخلت على أبي جعفر (ويقصد الامام الباقر عليه السلام)، فقال: يا جابر، والله إني لمحزون، وإني لمشغول القلب. قلت: جعلت فداك، وما شغلك؟ وما حزن قلبك؟

فقال: يا جابر! إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عما سواه، يا جابر! ما الدنيا؟ وما عسى ان تكون الدنيا؟ هل هي الإطعام أكلته أو ثوب لبسته أو امرأة اصبتها؟! يا جابر! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر! الآخرة دار قرار والدنيا دار فناء وزوال ولكن أهل الدنيا أهل غفلة وكأن المؤمنين هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يُصمتهم عن ذكر الله جل اسمه ما سمعوا بآذانهم، ولم يُعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم ففازوا بثواب الآخرة، كما فازوا بذلك العلم.

واعلم يا جابر أن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة، تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكروك، قوّالون بأمر الله قوّامون على أمر الله، قطعوا محبّتهم بمحبّة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة مليكهم ونظروا إلى الله عز وجلّ وإلى محبته بقلوبهم واعلموا أن ذلك هو المنظور إليه، لعظيم شأنه، فأنزل الدنيا كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، إنّي (إنما) ضربت لك هذا مثلاً، لأنها عند أهل اللّب والعلم بالله كفيء الظلال»[1].

فما بال الإنسان يضطجع في فراش واحد وتملأ جوفه عدة لقمات

---

١ ـ المصدر السابق، الحديث ١٦، ص ١٣٢.

وتكسيه عدة أمتار من القماش وتسكن ظمأه جرعة ماء، يحشّد الجيوس ويريق الدماء بقساوة ويُغير على البلدان بضراوة؟ فماذا يروم وماذا يريد أن يغتنم؟

يروىٰ عن أبي ذر الغفاري (ره) أنه قال:

«جزى الله الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير أتغذى بأحدهما وأتعشى بالآخر،وبعد شملتي الصوف أتّزر بإحداهما وأتردّى بالأخرىٰ»[1].

وتذّكر كذلك أية سعادة عظمى يُسلبك تهافتك وراء حب الدنيا. فبه لا يبقى لك من حديد قوتك إلّا القراضة، وما يزيدك لحياتك الأزلية الهانئة إلّا نأياً وبُعداً، فتنتهي حياتك وأنت منشغل بألعوبة.

يُروىٰ أن النبي سليمان ﷺ كان يمر مع جنده من الجن والإنس بصحراء فلقي عابداً من بني اسرائيل انشغل بذكر المحبوب. انبهر العابد بسليمان وسلطانه. فحذّره النبي سليمان ﷺ أن يُعجَب بهذا السلطان والجاه، وأردف ﷺ يقسم له بعزّة ربه أن تسبيحاً من تسابيحه لأفضل مما وهب داود وسليمان. فسلطان الدنيا فانٍ وعبادته هو باقية.

ومن أين لك ان تعلم اي مورد عظيم سوف يكون يومها نصيبك من ربك حيث يقول الله تعالى:

﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ومُلكاً كبيراً﴾[2].

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٣٤، الحديث ١٧.

٢ ـ سورة الدهر «الإنسان»، الآية ٢٠.

ويقول كذلك:

﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾[١].

انخدع السذج ببهرج الدنيا وثملوا بخمرها وافتتنوا برغيفها.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«مَثَل الدنيا كمثل حيّة لين ملمسها والسم الناقع في جوفها يهوى إليها الغرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل»[٢].

من هنا لا مفر لمن استهوته من تذوق سمها وتجشم آلامها:

﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾[٣].

***

فيا ايها العزيز!

تنبه أن العمر درة لا تثمن بسعر. فالكون كله لا يليق ثمناً لا للعمر كله بل لساعة واحدة منه. فبم تتقايض ما تهدره منه؟ فليس في الدنيا ما يستحق انفاق العمر من أجله؟ فلتصرفنه في هذه السوق لإعداد زادك الأبدي. فبمثل هذا فقط لن يذهب عمرك سدى.

فإن اقتنعت بهذا المتاع الزهيد بدلاً من النعيم الأزلي، فوا حسرتاه على خسرانك!

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، باب ذم الدنيا، الحديث ٢٣.

٣ ـ سورة النحل، الآية ١٠٧.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل﴾[١].

يروىٰ أن رجلاً جلس إلى ساحل البحر ممسكاً بصندوق مجوهرات وأخذ يرمي بمجوهراته حبة حبة في البحر مبتسماً. سئل: ماذا تفعل؟ أما تعرف ماذا تحمل في يدك؟ قال: أعلم، ولكنني ألتذ بصدى الماء، فالقي إليه شيئاً لأسمع صوته.

فهذا الرجل هو الإنسان وساعات عمره حبات المجوهرات يلقي بها في بحر العدم ليلتذ للحظات، لا أكثر، من الدنيا.

إياك أن تكون ممن يصبون اهتمامهم كله في كلامهم وفعالهم بالحياة الدنيا فقط. فقلوبهم تتناغم على مر اللحظات بحب الدنيا كأنهم ولدوا من الدنيا بداية ويعودون إليها خاتمة. وقد وصفهم الله تعالى بقول:

﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾[٢].

إذاً، حذارِ أن تغرك الدنيا أو يخدعك محبوها. إنفر منهم كما تفرّ من الحية السامة. فلا حيلة لك غيرها، إن كنت طالباً لحسن العقبى:

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت، ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾[٣].

١ـ سورة التوبة، الآية ٣٨.

٢ـ سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

٣ـ سورة الأنعام، الآية ٧٠.

(خامساً): ان المسؤوليات تتعاظم على قدر ازدياد النعم. أنت لا تحمل أعباء أية مسؤولية إزاء الآخرين ما زلت تملك على قدر حاجتك فقط. ومن استزاد من دنياه نعماً زاد تعهداً. أما تعلم أن الإنسان إن دفع ديناراً من كل عشرة يملكها، في سبيل الله، فإنه يكون عند الله كمن تبرع بمليون من عشرة ملايين تمثل مجمل ملكهما. ولكن النفس الإنسانية تميل لمنح خمسة دنانير إن ملكت عشرة منها. ولكنها لو ازدادت ملكاً حتى العشرة ملايين يصعب عليها بذل عشرة آلاف منها، حيث يقول النبي عيسى ابن مريم عليه السلام:

«مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»[١].

ربما كان بمقدورك العيش هانئاً بما تملكه ولكنك إن مددت ساقيك خارج غطائك كما يقال، فإنك لن تعثر على ضالتك المنشودة، بل تعمق فجوة مأساتك المحتومة. فما يخيل إليك مدعاة الهناء، إسأل ممن يملكونها هل هم سعداء؟

«سلطان يبحث عن إزار السعادة»

يروىٰ أنه كان هنالك ملك وفر في قصره ما في الدنيا من نعماء، له من كل منها متعة ولذة ولكنه مع ذلك كان يشعر بالتعاسة والشقاء.

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٣٦، الحديث ٢٤، باب ذم الدنيا والزهد فيها.

فيقضي أيامه في الجلوس حزيناً باكياً إلى جانب ترعة ماء. احتار الأطباء جميعاً في أمره وهم يرونه معافىٰ تماماً في جسمه. وهو نفسه لا يعلم مِمَ حزنه وهمه؟ جدّ في تقصي العلاج ولم يتوصل إليه أحد حتى جاءه حكيم يعالجه. فسأله عن حاله، وبعد تفحص واجتهاد، قال له: ايها الملك! علاجك يكون في ارتدائك ليوم كامل إزار رجل سعيد.

عجب الملك من هذا العلاج، ومع ذلك أمر أن يعثروا على رجل سعيد ليشتروا منه إزاره.

مرت عدة أيام دون أن يعثر رجاله على رجل ينعم بحظه الكامل من السعادة.

وجّه الملك عتابه إلى الوزير، فقال الوزير: الجميع مجدون في البحث. لم يبدِ أي منهم تقصيراً حتى الآن.

انقضت أيام أخرى ولم يُعثر على الرجل المنشود، وهكذا مرت الأشهر والإزار صار غاية بعيدة المنال.

استشاط الملك غضباً، فكتب إلى جميع مواليه في المملكة: إنني سوف اقيلكم جميعاً ما لم تعثروا على رجل سعيد.

مرت سنة كاملة والغاية لم تتحقق، والملك يعاني من أسى العلاج المفقود.

دقوا كل باب لاحت لهم السعادة منه وهم يكشفون ان التعاسة خيّمت على الجميع حتى ليلة لجأ فيها إثنان من رجال الملك إلى القرب من خرابة، بعد أن أضناهما بحثٍ يومهما وأرهق بدنيهما. كانا

جالسين طلباً للاسترخاء، فإذا بهما يسمعان صوت رجل يقول داخل الخرابة: أشكرك إلهي! حمداً لك يا رب فقد بذلت لي جميع نـعمائك. فهل هنالك عبد أسعد مني؟

سارع الرجلان إلى دخول الخرابة مندهشين مبهوتين، ولكن الظلام حال دون أن يريا الرجل نفسه، ولكنه كان قد أوقد ناراً فأتوها. رأيـا شبحاً يجلس إلى النار وهو يتناول طعامه من سفرة بسطها أمامه.

سألاه: يا رجل! هل كنت جاداً فيما قلت أم مازحاً؟!

قال الرجل: لا مزاح مع الرب. إنني رجل عامل غريب. أنعم بسلامة جسمي. وأعمل كل يوم ولي من ربي وفرة من الرزق، وفي صباحي ومسائي كفاف من الطعام وترياني الآن كشأني كـل ليـلة أخـلد إلى الراحة والنوم في هذه الخرابة حتى الصـباح. عـرفت ربـي مـنذ أول عهدي وآنست بعبادته. فهل لي أن أغتم بعد ذلك؟

تبادل الرجلان النظرات فرحين. قال أحدهما:

ـ يا رجل! بعنا إزارك ندفع لك سعره ضعفين.

قال الرجل:

ـ أمالكما عينان تبصران بهما؟

فلما تقدّما نحوه رأيا عجباً، إنه لا يكتسي إزاراً.

أنبىء الملك بأنه قد تم العثور على الرجل السعيد ولكنه لا يملك إزاراً.

تملكت الملك الدهشة، فعرض الأمر على الحكيم. أردف الحكيم:

العبرة كانت في مثل هذا تحديداً. فأنت تتقصى السعادة في وفرة النعم والرجل في القناعة وتقدير الجميل. سوف تكون من السعداء متى ما حصلت لديك فكرته.

فيا ايها العزيز!

لا تتقص النقائص. فإنك لو عددت ما أغدقه الله عليك من نعم، فإنها ليست قليلة، إحمده عليها. عندها تأمل نفسك. سوف تلاحظ إلى أي مدى تشعر بالهدوء والسعادة.

إنك باستزادة المال تكثر من مسؤولياتك ومعاناتك وانشغال فكرك. والهناء تجده في الهدوء. وأنت تعلم أن المال الزائد والهدوء خصمان لدودان.

ترى سعادتك وهناءك في زيادة المال بينما يعتبرها ربك، صاحب النعمة، مبعث هلاك وعذاب:

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليُعذِّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[1].

(سادساً): لو فتحت الدنيا أبوابها في وجهك تتحامل عليك منها آلاف الذنوب. فللفقر باب واحد نحو الألم ومائة نحو السلامة، وللثراء باب واحد نحو السلامة ومائة نحو الألم.

فكم من شخص تعرفه كانت السلامة والصفاء يخيمان على حياته

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٥٥.

ما دامت الدنيا لم تقبل عليه، ولما تبسمت له أسكره الغـرور العـاتي، فضلً عن درب الدين الهادي باتّباع الهوى النائي. وكم شخص تعرف، جاءه الفقر فاصطحبه إلى ديار الله تاركاً عالم الغرور والخـديعة وراء ظهره.

ايها العزيز! الفقر للعبد حقيقة مرّة والغنى للمعبود غرور محض. فإن كنت في مثل غنى النبي سليمان ﷺ واغـتررت بـغناك فـما أعـمق جهلك! فليس الثراء الواقعي والذات الغنية إلّا له هو. فأنّى للعبد الترابي ان يتبجح بالغنى؟!

يقول الإمام علي بن الحسين السجاد ﷺ:

«مولاي يا مولاي! أنت الغني وأنا الفقير. وهل يـرحـم الفـقير إلّا الغني».

ليس للتكبر سبيل إلى قلب الفقراء. فكل ما تلمحه من تكبر يظهر لك عند من اقبلت عليه دنياه إلّا من اتصل منهم قلبه بالمعرفة، وعلم يقيناً أن المالك الحقيقي هو الرب، وأن التكبر خليق بـه لا بـالإنسان المحتاج إليه.

فالتزم القناعة، وإياك ان تتخطى حدودك فتتهاوى فـي ألف شـرك وشرك.

يقول الإمام الصادق ﷺ:

«من رضي من الله باليسير من المعاش، رضي الله منه باليسير من

العمل»[١].

وكذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله:

«طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً»[٢].

لو كنت من مثل هؤلاء الأشخاص، إحمد الله ولا تستزده متاعاً ونعمة فقد أوصدت في وجهك أبواب الف فساد ونقمة. ألم تقرأ من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده، لبغوا في الأرض ولكن يُنزِّل بقدر ما يشاء﴾[٣].

(سابعاً): الإنسان يأمن حسد الخلائق ما دامت الدنيا لم تقبل عليه. فما أن تبتسم له الدنيا يصبح محط حسد الجميع. وإني لأعجب لأمر سكان هذا العالم لا يحسدون رجال الله وقد تملكوا الدنيا والآخرة وجنتهم حلت بهم في دنياهم، ويحسدون أهل الدنيا على ما أثقلت به أعتاقهم من أعباء والله لو تزاح الحجب عن الأبصار لابتلي الالهيون بحسد جميع المخلوقات.

يقول أحد العظام أن الملوك لو التفتوا لما للعرفاء من ملك لتحاملوا عليهم بجيوشهم! فلله الحمد أنهم لا يلتفتون إلى ذلك.

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٣٨، الحديث ٣

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٤٠، الحديث ٢، باب الكفاف.

٣ ـ سورة الشورى، الآية ٢٧.

تنبه أيها العزيز! أدنى فضل الفقر هو أنك تأمن من إصابة العين فقد تُركت وشأنك. وهذا فضل من ربك لَعَظيم. ثم أنك لست مكلفاً بمسؤولية إزاء أقاربك وجيرانك، فلا زكاة تبقى في ذمتك ولا خمس تغفل عنه، لا زوال مالك يقلقك ولا حفظه يرهقك. فلا عن ضريبة الحكومة إليك ينساق خبر ولا لإغارة اللصوص في دارك أثر. أنه عين فراغ البال، بل ثروة ومال. فلو عرفت قدره لم تتهافت على مخدوم إجلالاً ولا على خادم إكباراً، لا تحملن وزراً لأحد ولا تثقلن بوزرك كاهل بشر.

يروىٰ أن رسول الله ﷺ مر ذات مرة براعي جمال، فطلب منه أن يسقيه فردّ عليه أن لبننا إنما هو فطور أهل القبيلة وعشاؤهم. فدعا له النبي ﷺ بأن يزيده الله مالاً وولداً.

ثم مر ﷺ براعٍ آخر وطلب منه السقاية فملأ أوعية عدة من لبن حلبه تواً، فجاء بها إلى الرسول ﷺ ومعها خروف أيضاً. فتضرع النبي ﷺ إلى الله أن يرزقه على قدر حاجته.

سأله أصحابه لماذا دعا للأول مع خبثه بمثل ذاك الدعاء، وبهكذا دعاء للثاني مع كرمه. فرد ﷺ عليهم بأن قليل يكفيك لأفضل من كثير يخدعك.

(ثامناً): كم وقع الموت يسير مع زوال التعلقات وخلافاً لذلك ما أشد وقع الوداع على غريق مدلهمات التعلقات. ربما ارتخى أحد أسنانك، ومع مضغك الطعام سقط في فمك، ولم تشعر بسقوطه. ولكن

مع رصانة جذورها يصعب قلعها حتى بجهود الطبيب.

حكاية أخرى

«التعلق بمال الدنيا والاحتضار»

كان أحد محبي الدنيا يشهد طور الاحتضار بينما، إلى جانبه، الورثة لنيل منالهم في انتظار. الأيام في انقضاء وهو مع الموت في اصطراع. جسمه كان ما يزال يحتفظ بدفئه والطبيب يعدهم بالغد موعداً ولا أمل في حلول ذلك الغد. أبناؤه حفروا قبراً وأحضروا كفناً وأعدوا لازدراد الإرث جوفاً دون أن يكون لانتظارهم ختام.

لمن يجمع المال البخيل وقد رأى مصارع من قد كان بالأمس قد جمع[1]

جلس الطبيب إلى جانب فراشه مندهشاً لحاله، فأراد أن يسقيه دواء فاذا بالمحتضر يقفز من مكانه ويدفع يد الطبيب ثم عاد ليتهاوى على سريره ثانية.

سأل الطبيب أبناءه: ما باله تشوش هكذا.

أجابوه: لقد جمع جميع مجوهراته ومسكوكاته في صندوق يضع مفتاحه تحت سريره وكأنه يربط قلبه بالسرير. يفيق من سكرته كلما لامست الفراش يد.

قال الطبيب: وأين الصندوق؟

---

١ ـ ارشاد القلوب، ج ١، ص ٩٦.

قيل: حيث ترى المريض يشد عينيه ناحيته بانتظام.

قال: ادعوا لي عدداً من الحمالين.

ولما حضر الحمالون، هتف: احملوا هذا الصندوق إلى الخارج. وما أن فرغوا من حمله انتزعت روح المريض من جسمه وفارق الحياة.

فالقدم يتيسر انتزاعها ان انغمست في الأوحال، فالوحل ليس موطئاً للقدم. ولكن هل بالامكان قلع الأشجار بعد انقضاء فترة من غرسها في الطين؟ السبب يعود لميلها في البقاء.

فما دمت تعرف أن البقاء لا يتحقق أبداً علامَ تشد قلبك بمثل هذه التعلقات؟ ولتعلمن أنك كعضو في قافلة ما أن يتناهى صدى جرسها إليك لا حيلة لك إلّا التأهب للرحيل.

فأول نذير للانتقال يحمله إليك الشيب. فهل شددت رحالك؟

إنـــي أرى رقـــم البـــلاء   في قـود رأسك قـد نـزل

وأراك تـــعثر دائـــماً   فـــي كـــل يـــوم بـالعلل

والشـيب والعـلل الكـثيرة   مـــن عـــلامات الأجـــل

فاعمل لنفسك ايـها المَـغـ   رور فـــي وقت العـمل[1]

نهضة النياق آذنت برحيل جيرانك. هل تعلمن أنك سوف تتبعهم لا محالة.

طوبى لمن أعد المستلزمات وانعتق من التعلقات وانطلقت جناحاه

١ ـ ارشاد القلوب، ج ١، ص ٩٨.

وتأهب للتحليق:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون﴾[١].

(تاسعاً): أن الله لا يمنحن الفضائل والمبرات إلّا للصلحاء والأبرار، ولو كانت للدنيا فضيلة لكان حظ الأنبياء منها أوفر، ولتمتع بها أولياء الله أكثر بينما يشهد تاريخ الأنبياء أنهم كانوا فقراء يعتزون بفقرهم. وقد قال رسول الله ﷺ: «الفقر فخري»، فهذا الاكتفاء ليفتح أمامك أبواب المعرفة الالهية.

لما حضر عزرائيل ليقبض روح النبي نوح عليه السلام عجب من مسكنه وراح يتساءل أنه عاش ألف سنة في هذه الدنيا ولم يبنِ لنفسه إلّا مثل هذا المسكن. فاقسم النبي نوح عليه السلام انه لو كان يعلم أنه (عزرائيل) سوف يعاجله بالمنية لما بناه حتى هكذا.

سأله عزرائيل فما كان يفعل لو كان من أبناء أمة آخر الزمان وليس منهم من يحيا لأكثر من ستين أو سبعين عاماً. أجاب عليه السلام بأنه كان سوف يقضي حياته كلها في سجدة واحدة.

تزود من الدنيا فإنك راحل وبادر فإن الموت لا شك نازل
وإن امرأً عاش ستين حجة ولم يتزود للمعاد فجاهل[٢].

---

١ ـ سورة المنافقون، الآية ٩.

٢ ـ ارشاد القلوب، ج ١، ص ٩٦.

أما ترى النبي موسىٰ ﷺ ولّى ظهره للرفاه في قصر فرعون فـاراً، وإلى طريق الفقر والسير إلى الله ملتجئا. فلما وصل مدين مرهقاً ومن الجوع متضوراً ناجىٰ ربه:

﴿ربِ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾[١].

وهو الذي تقبل العمل راعياً عند النبي شعيب ﷺ سبع سنين مفضلاً كوخه البسيط على عمارة شاهقة لطاغوت مصر البليد، فقد كان له في هذا الكوخ نور إلهي، وفي ذلك القصر نار جهنمية.

وألم تسمع عن النبي يوسف ﷺ ألقي في السجن غريباً بعد أن كان في قصر عزيز مصر كريماً، خاطب ربه قائلاً:

﴿رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه﴾[٢].

وكذا النبي ابراهيم ﷺ قضىٰ فترة من أيام شبابه راعياً. إنك لا تجد بين أنبياء الله ورسله ﷺ من كان من أهل الدنيا.

وإن كنت تتساءل عما أحيط به النـبي سـليمان ﷺ، فـاعرف أن شؤون الدنيا لم تغالبه لا في جسمه ولا في نفسه، فقد كان يدبر أمور معيشته من صناعة السلال. وإن طربت نفسه لمشاهدة جواد، عاد فوراً إلى ربه حتى سماه أواباً:

﴿ووهبنا لداود سليمان، نعم العبد، إنه أواب﴾[٣].

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٢٤.

٢ ـ سورة يوسف، الآية ٣٣.

٣ ـ سورة ص، الآية ٣٠.

يروى أن الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إلى مصطفاه محمد ﷺ بأنه سوف يحوّل له الحصى كلها ذهباً إن طلب منه ذلك فأبى ﷺ أن يطلب مثل هذا، ذاكراً أنه يفضل أن يقضي يوماً صائماً وآخر مفطراً يتناول الطعام.

فيا أيها العزيز! لأحبائه عنده رزق من نوع آخر يصيبهم من مائدة حبه، يرقى على مستوى هذا المُلك والمال. ألم تسمع قوله بأن الدنيا لعب ولهو وأن الأطفال يُشغلون بألعوبة.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«إذا تخلّى المؤمن من الدنيا سما، ووجد حلاوة حب الله، وكان عند أهل الدنيا كأنه خولط[1] وإنما خالط القوم حلاوة حب الله، فلم يشتغلوا بغيره»[2].

---

١ ـ خولط: أي أفسد عقله بما خالطه من المفسدة.

٢ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٣٠، الحديث ١٠، باب ذم الدنيا والزهد فيها.

«انطباعات خاطئة مستوحاة من الآية (٧٧) من سورة القصص»

يجهد البعض من عشاق الدنيا لتبرير فعالهم بذرائع قرآنية واهـية. إنهم غضوا أبصارهم عن كل ما آتيتك به من الآيات بل تشبثوا بالآية:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[١].

يقولون: أوصانا الله تعالىٰ بان لا نتخلى عن نصيبنا من الدنيا، فلابد لنا من الالتذاذ في الأكل، وفي النوم، وفي الادخار، وكذلك في الترفيه عن النفس.. وكلها لذات دنيوية.

فكم من جاهل ضلّ عن درب السواء بمثل هذه التحليلات الخاطئة لآيات القرآن الحكيم. ايها العزيز! وأنت تتلو آيات القرآن تبصّر فـيها كما أدلُّك:

الآية تتحدث عن قارون حيث يسبقها قوله تعالى:

﴿آتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة﴾[٢].

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٧٧.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٧٦.

يرى هؤلاء أنه من المؤكد أن ثروة قارون كان ما يزال بها نقص مما دعا قومه ينصحونه أن ينعم بنصيبه من الدنيا فليس له حتى بهذا الادخار كفاف.

بهذا كان مثلهم كمثل من يقول لذي شهية عظيمة يجلس إلى المائدة: لا تنس حظك من الطعام.

ايها العزيز! لو قيل لطالب جامعي في جلسة امتحان: لا تنس نصيبك من هذه الجلسة، فمؤدى الكلام أن هذه الجلسة مصيرية بالنسبة لك، فاستغل الوقت حتى المقدور.

نصيبك من هذه الدنيا هو أن تستغل فرصة العمر القصيرة لنيل السعادة الأبدية. نصيبك منها أن تترك الهبوط لتتمكن من العروج وتحقق الوصال المفقود.

ولك أن تنال نصيبك من الدنيا في القبر أيضاً. فالمحرومون هم من خلت أيديهم من الحسنات في هذا المنزل. اتل معي الآية التالية:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾[1].

فالجاهل من يغض الطرف عن كل هذه الأدلة والبراهين، ويصر على التمسك بكلمة تحللها نفسه كيفما تشاء لتجرفه بهكذا تحليل إلى حيث تريد.

يفسر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام نفس هذه الآية بحسب ما روي

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٨٣.

عنه في كتاب معاني الأخبار بقوله:

«لا تنس صحتك وفراغك وشبابك ونشاطك ان تطلب بها الآخرة».

وبكلامه هذا أتمّ عليك حجة دامغة.

«لا تذم الدنيا»

ذكرنا حتى الآن أموراً في ذم الدنيا ولتعلمن أن الدنيا قـد تكـون حميدة على قدر ما يمكن ذمها.

دعني أقول لك أن الله أحسن خلق الدنيا وما فيها وأضفى عـليها جمالاً، ولابد لك أن تكسب منها الحسن والجمال.

أيها العزيز! إن فُرض عليك الحج ولم يكن لك إلى بيت الله الحرام سبيل في البر والبحر، فإنك مرغم على السفر جـواً فـحتى بـافتراض بعيد، إن لم تتوفر لك طائرة تسافر بها وعقدت العزم على شراء طائرة بمثل مبلغها الباهظ وجهدت لأجل ذلك فإن عناءك وثروتك الحاصلة كلها لا تنعت بالدنيوية لأنها جميعاً إنما كانت لأجـل رضـا خـالقك العالِم.

أما إذا قيل أن شرب الخمر يتطلب توفير قدح صغير لتكرع به فإنه يكفيك أن تبذل الجهد خمس دقائق، لتدفع بالأجر الذي تـتلقاه إزاء ثمن القدح. فهذا الجهد، لا بل حتى عزمك وشرائك كلها تنساق فـي

مجرى المساعي الدنيوية.

آتيتك بهذين المثالين لتتأمل في شؤونك.. الإنسان بحاجة الى الغذاء في دنياه ليأمن به قوة بدنه، وكذلك طاقة جسمه على عبادة محبوبه. ويلزمه كذلك مسكن يركن فيه إلى التفكير والدعاء و... بفراغ بال، وألبسة تحفظه من البرد والحر. والزواج أيضاً ضروري بالنسبة له ليسكن الى زوجته، وينأى، إلى جوارها، عن الحرام. ادع الله ان لا يحبطنّك في طلب أي منها، فإنها ليست مما تذم باعتبارها دنيوية بل كلها مطالب دنيوية حميدة.

فإن صار لك من مكسبك مالُ حلالٍ فلا تأذنن لنفسك قط بالبخل.

فهذا العالم ساحة تجلى المحبوب، وكل ما تراه مظاهر أسمائه وصفاته وأفعاله. فأي جاهل لا تسكر قلبه كل هذه المؤشرات ولا يتوله حباً بهذا العالم!

فعندما يبتسم ثغر الآفاق سَحَراً إنما يحدثك عن «يا من أضحك»

ولما تنهمر الأمطار من مدامع الغمام فإنها تظهر لك تجليات «يا من هو أبكى»

والقمح عند إثمار سنابله يحدثك عن «يا جواداً لا يبخل»،

والسماء عندما ترفع بصرك إليها عن «يا عظيماً لا يوصف»،

والمجرات عندما تتأمل عظمتها عن «يا كبيراً لا يصغر»،

وظلال الأشجار الوارفة في حرارة الصيف عن «يا من لطفه ظاهر»،

ولسان حال أوراق التاريخ البالية يلهج بذكر «يا من ملكه قديم»،

أما تطلعت بأنظارك الى السماء ليالي الخريف مع عودة الغربان من رحلة الاغتذاء.. إنها تملأ السماء أحياناً. فهي تسرح مع الصباح الباكر إلى الصحراء وتعود إلى مضاجعها ليلاً. هذا دأبها كل يوم.. صباحاً تغادر جياعاً ومساء تعود شباعاً. هلا أدركت سر نعيقها العجيب في الليل وفهمت بم تنادي أهل الكرة الترابية؟ إنها تقول: استوعبوا كلام المحبوب: «يا من فضله عميم».

العالم كله كتاب الحق تعالىٰ. والآفاق، إجمالاً، تجليات اسمائه. تعمق في صفحاته البديعة واستوعب حقيقة آياته:

«يا من آياته برهان للناظرين. يا من كتابه تذكرة للمتقين».

خلق الليل من دورة الأرض الوضعية، وجعل لك الأرض مضجع ليلك، والقمر مصباحك، والشمس ضياء نهارك، والنهار موعداً لعملك وكسبك.. أدرك هذه المفاهيم فإنها تحدثك عن خالق رؤوف:

«يا من جعل الأرض مهاداً. يا من جعل الشمس سراجاً. يا من جعل القمر نوراً. يا من جعل النوم سباتاً».

تمهل ليلقى سلطان الحب ظلال شجرته الوارفة على رأسك وترى نعمها قد أغدقت عليك فتقول عندئذ: «يا من لا تعد نعماؤه».

وفيما لو وفقت لأداء شكره تعلم أن شكره نعمة ومدعاة فخر واعتزاز، وتقول «يا من شكره فوز للشاكرين».

بل أنك ترى كل ما في العالم تجل من تجلياته فتترنم مع نفسك:

«يا من في الأرض آياته ويا من في كل شيء دلائله».

وأنت قد تردد مع إشراقة الشمس في كل صباح: «يا نوراً قبل كل نور» ومع غروبها كل يوم: «يا نوراً بعد كل نور».

إنك ترى الذرات في كل ركن من أركان هذا العالم منسجمة مع ترانيمك وهي تسبِّح خالقها الواحد الأحد. فمن ذا يجرؤ على القول بأن هذه الدنيا منفورة مذمومة مغضوب عليها. كل ما فيها يترنم معك وأنت معها والملائكة جميعاً. وكل من ينفر من مثل هذه الدنيا بعيد كل البعد عن الذوق السليم.

الأغنياء يحسنون السلوك مع الدنيا، وعبدة الدنيا يتمادون في تزيينها وتجميلها، وأحباء الله يتأملونها ويلتذون من محاسنها. إذاً، الجميع في الواقع خدم للزمرة هذه.

عساك أن لا تنسى حظك من نعماء الدنيا، لا أن تصرف في خدمتها قواك وتجمع خيرها لسواك. فأنت تعلم أن رياض الأزهار لا يلتذ بها أصحابها بقدر المحرومين من تملكها، ولا ينعم بذخائر عبدة الدنيا إلّا ورثتهم.

الدنيا مذمومة إن أنت تماديت في تعلقك بها حتى تُنسيك ذكر آخرتك أو إذا جعلتك حمّالاً للآخرين تهدر عمرك في حمل أثقالهم فتغفل عن حقك وعن ربك.

فكل من حمل زاداً لآخرته تزود به في دنياه، والعرفاء عرفوا ربهم من ايحاءات نفس هذه الدنيا، وعَبَدَه المخلصون ها هنا، في نفس هذا المكان، وما تعلم العلماء علومهم إلّا فيها. فَلِمَ ذم الدنيا على هذا النحو؟!

أولم يكن لرسول الله ﷺ عدة زوجات في نفس هذه الدنيا وكان يقول لزوجته عائشة «كلميني يا حميرا».

أما إذا انصرفت بكلك إلى حياتك الدنيوية، فتنبأ بمصيرك وعقباك من قوله تعالى في الآية:

﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خَلاق﴾[1].

أما إذا كنت ممن يدعون الله أن يغنيهم في دنياهم على قدر تلبية حاجاتهم، وكان همهم عقباهم ودار آخرتهم، فمآلك إلى ما ذكره الله تعالىٰ في الآية:

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾[2].

وإن كنت في شك من أنك من أهل الدنيا أم الآخرة فانظر فيم تنفق ساعات ليلك ونهارك. فبأي وادٍ أثقلت موازين جهودك ومساعيك، كنت أوفر حظاً من أُكلها. فقد قال عز وجل: ﴿اولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾.

ولا تنسَيَن أنه لولا ثروة الأثرياء لما فُرض الخمس والزكاة، ولما سُدِّدت نفقات كل هذا العمران في المساجد والمدارس والموقوفات والإرشاد و... ولكن تعمق في أن المال الحلال لا تتحقق وفرته دوماً ولكن الكفاف منه يضمنه الله عز وجل شرط بذل الجهود والمساعي..

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

٢ ـ البقرة، الآيتان ٢٠١ و ٢٠٢.

ابذل ما بوسعك من جهد في طلب الرزق فقد أكد رسول الله ﷺ أن ثلثي العبادة طلب الرزق الحلال.

فسعيك لاكتساب مثل هذا الرزق هو عبادة بعينها، فلا تتخلف عن مثل هذا المجهود فتصبح كَلًّاً على الناس. فقد وصف النبي ﷺ الفقر بقوله: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

ولكن حذارِ من الانغماس في طلب المال والمنال حتى تنسى ربك المتعال. فطلب الرزق هدفه تأمين معيشتك، وهدف عيشك عبادة ربك. فإن حصرت بها نيتك، فاعلم أن اكتساب الرزق من مستلزمات عبادتك بل عبادة بحد ذاتها. والعيش لأجل كسب المال هلاك بعينه وفرصة للشيطان لينشر شراكه. وسوف يكون لنا حديث طويل حول هذه الشراك.

ختاماً لبحثنا هذا أنقل إليك حديثاً للإمام علي عليه السلام رواه الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد:

سمع أمير المؤمنين علي عليه السلام رجلاً يذم الدنيا دون أن يدرك حقيقة ما يقول فقال رداً عليه:

«ايها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها، أهي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم علّلت بكفّيك، وكم مرَّضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، وتستوصف له الأطباء، غداة لا يُغني عنهم دواؤك، ولا يجدي عليهم بكاؤك. لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تُسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه

بقوتك! وقد مثَّلت لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك.

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عـنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بـها. مسـجد أحـباء الله، ومصلى ملائكة الله ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله. اكتسبوا فـيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة. فمن ذا يذمها وقد آذنت بـبينها، ونـادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها؛ فـمثَّلت لهـم بـبلائها البـلاء، وشـوَّقتهم بسرورها إلى السرور؟! راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيبا وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخـرون يـوم القـيامة. ذكَّـرتهم الدنـيا فـتذكَّروا، وحـدَّثتهم فـصدَّقوا، ووعـظتهم فاتعظوا»[1].

---

١ ـ نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ١٣١.

الذنوب الكبرى

«الشرك بالله»

ايها العزيز! الآن وقد ميزت محاسن الدنيا عن مساوئها، إليك مني حديث عن الذنوب، لتحدد ذنوبك، فتختار الطريق الأصلح للنأي عنها واجتنابها. فبذلك تلتفت إلى الداء والدواء معاً، وتتولد عندك رغبة في الدواء والعلاج، وتخلف مقام التخلي وراء ظهرك بفراغك من «التزكي» وتخرج نقياً متنزهاً من مصفى السلوك لترد منهل «التحلي» بعد ذلك بعون الله.

وقد صنفت الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، ولكن إعلم أن سميت هكذا على نحو نسبي إزاء بعضها فإن استوعبت حقيقة ضآلة شأنك وعظمة ربك، تعلم أن الذنوب جميعاً في حضرته كبيرة لا تجدن فيها صغيرة ولكنها قياساً إلى بعض وقعت عليها هذه التسمية. فالنظر إلى المحارم ذنب عند الله تعالىٰ ولأنه تمرّد على أوامره فإنه العظيم. ولكن النظر أقل وطأة من اللمس، واللمس هكذا قياساً إلى التقبيل والتقبيل إزاء الزنى

والزنى العادي إزاء الزنى بالمحصنات ولكنها جميعاً ذنوب وتمرّد على أمر الله.

الآراء تختلف حول عدد الذنوب الكبيرة ولكننا نستشف أمرها من القرآن الكريم والأحاديث الموثقة بحسب ما جاء في بعضها:

قال تعالىٰ:

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم وندخلكُم مدخلاً كريماً﴾[١].

يقول أحد أهل بيت العصمة والطهارةعليهم السلام أن الكبائر هي التي حدد الله عز وجل نار جهنم عقاباً لها.

وفي حديث آخر ينسب إلى الإمام علي عليه السلام في رده على كتاب شخص يسأله فيه عن عدد الكبائر، حددها عليه السلام بأنها سبع وهي: قتل النفس وعقوق الوالدين والربا والتعرب بعد الهجرة ورمي المحصنات بالزنى (اتهامهن بالزنى)، أكل مال اليتيم والفرار من جبهة الجهاد.

وذكر في رواية أخرىٰ أن الشرك أعظم الكبائر إذْ لم يبق الله سبحانه وتعالى للمشرك من شيء في الآيات:

ـ ﴿من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّة﴾[٢].

ـ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يُشرك بالله

---

١ ـ سورة النساء، الآية ٣١.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٧٢.

فقد افترىٰ إثماً عظيماً﴾[١].

ومثل هذه الآيات كثيرة عديدة يستوحى منها أنه لا يفوق الشرك بمثل مرارته وفظاعته ذنب. واعلم أن هـذه الآيـات تـرتبط بـالشرك الجلي أي أن يؤمن المشرك أن هنالك إلهاً آخر غير الله تعالىٰ. والأمر ينسحب على كل من لا يؤمن أساساً بوجود الله. فقد يرىٰ أن الطبيعة والدهر هما خالقا الكون. وهذا هو الشرك الجلي.

سبق لي أن نوهت لك أنك لن تنتشل نفسك من براثن الشرك ما لم تفرغ من مراحل سلوكك وكنت أعني الشرك الخفي. وقد حدثتك ان كل ذنب يستبطن شركاً خفياً قد يتجلى من خلال كلامك فـي مـثل قولك:

ـ لولا الطبيب فلان لكنت لقيت منيتي!

ـ لولا الدواء الفلاني لكان الألم أهلكني حتى الآن!

ـ لو لم يسعفني فلان بهذه النقود لكنت قضيت جوعاً!

ـ لو لم يحل زيد عقدة هذه المشكلة لكنت أهيم على وجهي طوال حياتي!

ـ لو لا المرتب الذي تدفعه لي الحكومة من أين كنت أنفق عـلى مأكلي؟!

كم من عبارة مماثلة انساقت حتى الآن على لسانك! فاستعذ بالله وطهر لسانك. هل تعلم انك تقدمت على «آزر» أيضاً. فإن كان «آزر»

---

١ ـ سورة النساء، الآية ٤٨.

ينحت وثناً في كل شهر فأنت تنحت لنفسك مائة منها يومياً! إحـمل فأس النبي ابراهيم عليه السلام وحطم هذه الأوثان قائلاً:

ـ ﴿إني لا أحب الآفلين﴾[1].

ـ ﴿اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا مـن المشركين﴾[2].

ومن أنماط الشرك الخفي الأخرىٰ أن تعطي الأولوية لرضا الناس إزاء رضا الرب فتتهاون في استرضاء الله طلباً لرضا الناس فيجعلن الله نفس هؤلاء الناس أعداء لك.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من طلب رضا الناس بسخط الله جعل الله حامده من الناس ذاماً».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«كتب رجل إلى الحسين عليه السلام: «عظني بحرفين» فكتب إليه:

(من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرَعَ لمجيء ما يحذر).

ويروى عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله:

«لا دين لمن دان بطاعة مَن عصى الله، ولا دين لمن دان بقربة باطل على الله، ولا دين لمن دان بجحود شيء من آيات الله».

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٧٦.

٢ ـ سورة الأنعام الآية ٧٩.

على أية حال، قضايا الشرك الخفي ومظاهره كثيرة واسعة المعالم ولكنها مستترة يتطلب كشفها تحليق السالك المتبصر إلى ذروة الرقي في مسالك سلوكه ليُشرِفن من أقاصي تلك الآفاق على تفاصيل فعال الشيطان ووساوس ذاته ليريح نفسه من هذه الشراك. وأنت ما لم تتصل بمعرفة التوحيد الحقيقي الخالص، وتلتفت إلى التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي لا تتخلص من هذه الشراك.

سوف آتيك بحديث عن هذا التوحيد لاحقاً في مبحث «التجلي» إن شاء الله.

في الحقيقة لا طاقة لنا على الانعتاق من مهالك الفتن إلّا بتوفيق من الله.

الآن وقد عرفت الكبائر احذر من المداومة على الصغائر لأنك تحسبها صغيرة وكل صغيرة تتحول بمداومتك عليها إلى كبيرة.

قال رسول الله ﷺ:

«لا كبيرة مع إستغفار ولا صغيرة مع إصرار»[١].

فاسترسالك في ارتكاب الذنوب الصغيرة قد يؤدي إلى حرمانك من تقبل طاعاتك وعباداتك من قبل الله. فقد روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ١١، ص ٣٦٧، باب تحريم الاصرار على الذنب و...

معاصيه»[١].

الآن وقد عرفت معنى الشرك سوف أحـدثك عـما ذكـره الإمـام علي عليه السلام، في الحديث الآنف، من ذنوب باعتبارها الكبائر:

---

١ ـ أصول الكافي، باب الاصرار على الذنب، الحديث ٣.

«قتل النفس»

على رأس قائمة الذنوب السبعة من الكبائر ينوه الإمام علي عليه السلام إلى قتل النفس. قد تقول في نفسك: انني لست ممن يقترف هذا الذنب. استعذ بالله من الشيطان، فأنت لا تعلم ماذا يحدث مستقبلاً؟ هل تعلم أن بعض الأمهات والآباء ولتأمين رفاههم يفكرون في إجهاض نطفة منعقدة، فيرتكبون هذه الجريمة في حق أقرب الأشخاص إليهم. فأنىٰ لك أن تحدد من سيكون هذا الطفل مآلاً؟ قد يصبح أحد العباقرة العظام أو عارفاً فهيماً أو عابداً مخلصاً يكون له بليغ المنفعة لك. قد تقترف هذه الجريمة أحياناً باعتبارك تنقذه من فقره وأنت تتصور نفسك رزّاقه. لَخيالك هذا شرك وذنب عظيم آخر.

استمع إلى خطاب ربك يحذّرك في الآية :

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق، نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خطأً كبيراً﴾[1].

---

١ ـ سورة الإسراء، الآية ٣١.

فإن عدلت عن رأيك وقررت ان ترعى ولدك، انظر اليه في طـور رشاده، وفكر مع نفسك. سوف تدرك ما أعتى القرار الذي كنت بصدد تحقيقه عندما كان جـنيناً فـي جـوف أمـه! وإن اخـتارت الأمـهات لأولادهن الرقاد في المقابر دون الحياة، بم سوف يجبن ربهن غداً عند استجوابهن في حضرة الإله:

﴿وإذا الموؤدة سئلت: بأي ذنب قتلت﴾[1].

احترس كذلك من تحولات النفس. فأنت الذي إن سـحقت نـملة بقدمك سهواً يؤلمك ايذاؤك لها، تتحول أسـداً كـاسحاً يـفتك بأقـرب الناس إليه في حالة غضبك. فليس هنالك من قاتل يصبح قاتلاً قـبل ارتكاب جريمة القتل. ولربما كان بعضهم اشخاصاً يتسمون بـالرأفـة والهدوء. من هنا لا تتوثق من نفسك بانك لن تقترف أي ذنب بل واصل مراقبتك لنفسك فإنها لا تأبه من أية خطوة قد تخطوها.

---

١ ـ سورة التكوير، الآيتان ٨ و ٩.

«عقوق الوالدين»

أقرب أناسك إليك في عالم المُلك والمادة هما أبواك. فنكران جميلهما أوضح دليل على كفر الشخص. فمن لم يشكر المخلوق كيف له أن يشكر الخالق؟ ومن لم يزدن بالوفاء لأبويه لمن سوف يكون وفاؤه؟

قال تعالىٰ:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾[1].

فكّر في الآية الآنفة. إنها توضح أن الله قد اختار لنفسه في الحمد شريكاً. فأمرك أن تشكر له ولوالديك مما يبين عظمة مكانة الأبوين عنده، وإلّا فإنك قد أدركت مدى نفوره من الشرك.

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ١٤.

ابو يزيد البسطامي وإحسانه لأمه:

يروى أن أبا يزيد البسطامي كان تعهد برعاية أمه في أيام شبابه. كان ذات ليلة نائماً إلى جانب أمه في الصحراء وقد غاب عن باله أن يضع إناء الماء إلى جانبها. في منتصف الليل استيقظت الأم من النوم عطشى فلم تجد الماء بالقرب من فراشها. أيقظت أبا يزيد وأخبرته أنه ما وضع إناء الماء إلى جانب فراشها.

قفز أبو يزيد من فراشه وخرج حاملاً جرة يطلب لها ماء. سحب الماء من البئر، فجاء أمه به، فوجدها قد خلدت ثانية إلى النوم. فكّر فيما يتوجب فعله فإن يترك لها الماء وينصرف لأمره قد تستيقظ أمه فلا تلتفت إلى وجود الماء إلى جانبها فتبقى عطشى حتى الصباح، وإن أيقظها قد يحرمها من سباتها الهانيء؟ هكذا ظل واقفاً إلى جانب فراشها يحمل الجرة بيده حتى بزغ الفجر. فلما استيقظت الأم لأداء فريضة الصبح وجدت ولدها يقف عندها ممسكاً بجرة الماء.

قالت الأم: لا أرانيك الله هكذا يا ولدي! إنك تلقي نفسك في المتاعب لأجلي.

رد عليها أبو يزيد أنه ما جهد هكذا لأجلها بل ارضاء لربه الذي أمرنا ﴿أن اشكر لي ولوالديك..﴾ ولكنه يتعذر أداء الشكر لربين وقد تخلف ليلته عن نافلة الليل.

قالت الأم: فيا ولدي! عُتِقْتَ في سبيل الحق ورفعت عن ذمتك حقي. فكن لله.

خلص أبو يزيد في سلوكه لربه وبلغ ما تعرف من مقام في قربه.

أويس القرني:

اشتد شوق أويس القرني لرؤية رسول الله ﷺ ولما كان قد سمع الآية ﴿ان اشكر لي ولوالديك﴾ وكانت أمه لا تأذن له بزيارة خاتم الأنبياء ﷺ لم يترك أمه فبارك الله له في نفسه حتى صار رسول الله ﷺ يلتفت، وهو بمكة، نحو اليمن (محل سكنى أويس) فيشتم من ناحيته شذى الحب.

روى الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله! أوصني.

فقال:

لا تشرك بالله شيئاً وإن حرّقت بالنار وعذّبت إلّا وقلبك مطمئن بالإيمان، ووالديك فأطعهما، وبرّهما حيين كانا أو ميتين. وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، فافعل فإن ذلك من الإيمان»[1].

ألم تقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾[2].

---

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٥٨، باب البر بالوالدين، الحديث ٢.

٢ ـ سورة الاسراء، الآية ٢٣.

وقد فسر الإمام الصادق ﷺ لفظة الإحسان في هذه الآية بقوله:

«الإحسان أن تحسن صحبتهما، وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنين»[١].

فلتتذكرن ما كان لك في صباك من عجزك، وفيم كنت، والى مَ صرت بفضل تربيتهما وتنشئتهما لك؟ الضعف والهرم أصاباهما ليُكسبا القوة والشباب صبيهما. ترهلت قواهما لتزدهر قواك بفضلهما. انحنىٰ ظهراهما ليستقيم ظهرك.

عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم ﷺ أنه قال (عندما سُئل: ما حق الوالد على ولده؟): «لا يسميه باسمه ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله، ولا يستسب له»[٢].

أيها العزيز! قد لا تجدن أبويك أو أحدهما على قيد الحياة فتتحسر على انك غير قادر على أداء حقهما من الشكر، فتمعَّن في الحديث التالي تلتفت أن الفرصة ما زالت مفسوحة أمامك:

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ:

«ما يمنع الرجل منكم أن يبرّ والديه حيين وميتين، يصلي عنهما، ويتصدق عنهما ويحج عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي لهما، وله مثل ذلك. فيزيده الله عز وجل ببرّه وصلته خيراً كثيراً»[٣].

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٥٧، الحديث ١.

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٥٨، الحديث ٥.

٣ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٥٩، الحديث ٧.

فخدمتك لهما في حياتهما تكون ذات طابع دنيوي فانٍ، وما تؤديه في حقهما الآن أخروي باق. ولا محالة أنهما يقدِّرانه أكثر فأكثر. والأحاديث في هذا السياق كثيرة.

ولكن واظب أن تنفذ أوامرهما في كل حال إلّا فيما يراد منه ترك الواجبات وإهمال حقوق الله فقد قال عز وجل:

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾[1].

فلتعلمن أن أقرب أرحامك إليك هما أبواك، فلو لم تؤد حقهما في ذمتك فأنت لِحقٍّ مَن مؤدٍ؟ فأوجب الشكر على المخلوق شكره لأبويه، فإنهما الأكثر عناء من أجله.. فأنت لو عزفت عن شكرهما فمن تشكر دونهما؟

من هذا المنطلق ينبغي أن لا تتوقع، ممن لم يرض أبويه، الصفاء والوفاء والشكر.

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ١٥.

«الربا»

من الذنوب الأخرىٰ التي يحددها الحديث باعتباره من الكبائر «الربا». وهو إقراض المال أو المتاع إلى الآخرين شرط استعادة ما هو أكثر من المقروض بعد فترة معينة.

وفي هذا الخصوص نقرأ في القرآن الكريم:

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المس﴾[1].

ويقول العلامة الطباطبائي في ذيل تفسيره للآية ٢٧٥ من سورة البقرة: «أقول، وقد ورد في عقاب الربا روايات كثيرة، من طرق الشيعة وأهل السنة. وفي بعضها أنه يعدل سبعين زنية يزنيها المرء مع أمه»[2].

ونطالع في تفسير القمي ذيل هذه الآية:

قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

٢ ـ تفسير الميزان، المجلد ٢، ص ٤٢٤. (البحث الروائي)

«لما أُسري بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه. فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً يقولون: ربنا متى تقوم الساعة والوعيد»[١].

ويروي صاحب تفسير «مجمع البيان» عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«لعن رسول الله في الربا خمسة: آكله وموكله وشاهديه وكاتبه».

وعنه عليه السلام:

«إذا اراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيها الربا».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«الربا سبعون باباً أهونها عند الله كالذي ينكح أمه».

فمن دلائل حرمة الربا أنه يضيف شحيح الفقراء إلى جيوب الأثرياء بما فيها من مال وفير فيأكل الغني حق الضعيف، ويصبح الشغل الشاغل لمجموعة بطّالة غير عاملة من الناس جمع الثروات إلى الثروات.

والإسلام خص «قرض الحسنة» بكل هذا الثواب ليبادر من خلاله أبناء المجتمع الإسلامي إلى سد حاجة بعضهم. فيصبح الجميع في غنى عن دفع الربا.

---

١ ـ نقلاً عن مجمع البيان، ذيل الآية.

«التعرب بعد الهجرة»

كان التعرب بعد الهجرة مصطلح يطلق في صدر الاسلام على المرتدين بعد الهجرة إلى مذهبهم السابق وقد يصدق إطلاقه في عهدنا الحالي على من يعمل في سلك الإرشاد والتوجيه ثم يتخلى عن وفائه للشريعة المحمدية متهافتاً في أحضان الكفر.

«رمي المحصنات المتقيات»

ومن الكبائر الأخرى اتهام النساء المحصنات بالزنى. فكم من دماء تراق وعوائل تتفكك بمثل هذه الأباطيل. وهل تعلمن أن القول بمثل هذا لا يجوز إلّا بعد المشاهدة بأم العين. وليس بوسع المرء إثارة مثل هذه الفتن والبلايا بحسب الظن والاحتمال.

«أكل مال اليتيم»

سادس الكبائر المذكورة في الحديث هو أكل مال اليتيم. وقد أعتبر من أشد المعاصي حتى قال الله عز وجل بأن ما يؤكل منه ليس مالاً بل ناراً تضرم في الاحشاء:

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا﴾[1].

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠.

ويحذّر بشدة من أدنى تصرف في مال اليتيم إلّا بنية الإحسان كما في الآية:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن﴾[١].

واعلم أن اليتيم بما أنه لا سند له، فسنده الله وهو في حصنه. ومن يتعد على مال اليتيم فقد تحامل على حصن الله وهتك حرمته. وقد يلاقي جزاءه في نفس هذه الدنيا. وإني شهدت بنفسي حكاية عدة أشخاص بُددت حتى أموالهم بعد تعديهم على أموال اليتامىٰ.

«الفرار من جبهات الجهاد»

ومن الذنوب الكبرى الأخرى الفرار من جبهة الجهاد. فبارتكاب مثل هذه المعصية من قبل المجاهدين يهيمن الكفار على البلاد الإسلامية. فينهالون بمعاول هدمهم على كيان الإسلام من أساسه.

هذه الذنوب الكبرى هو ما جاء عدّه في الحديث المشار إليه وإلّا فإن هنالك من صنفها إلى أكثر من هذا.

وأنت أيها العزيز!

نوهت لك قبل هذا أن تحذر الذنب أعمه فمعصية الله من الكبائر لأن الله كبير ومعصيته لعظيم ذنب. وللتعرف على سائر الذنوب الأخرى أرفقني لأحدثك عن بعض الذنوب.

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

«ذنوب أخرىٰ»

ايها العزيز! أنت وقلبك وعيناك وأذناك وبقية أعضائك جميعاً هي أنت نفسك ومنقادة إليك. فإن صلحت أعضاؤك كان صلاحها منك وإن جنحت فجنوحها منك. والايمان أيضاً يسري من نفسك نحو جـميع أجزاء بدنك. واستقامة أي منها مبعثه استقامتك. فـالايمان ليس أمـراً خارجاً عن وجودك والمعرفة لا تنفك عن كيانك.

والذنب هكذا أيضاً. فإن زل لسانك أو عينك أو يدك أو سـاقك و قلبك فأنت المذنب.

ولتتفهم هذا السر أكثر فأكثر تعمق في مفهوم هذا الحديث:

يروى عن أبي عمرو الزبيري أنه سأل الإمام الصادق ﷺ عن أي الأعمال أفضل عند الله، فقال: ما لا يقبل الله عملاً إلّا به. فسأله: وما ذلك؟

قال: «الايمان بالله، الذي هو أعلى الأعمال درجة وأسناها حـظاً وأشرفها منزلة.

قال: أخبرني عن الايمان، أَقَولٌ وعمل أم قول بلا عمل؟

قال: الايمان عمل كله. والقول بعض ذلك. العمل بفرض من الله بيّنه في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له الكتاب ويدعوه إليه.

قال: صف لي ذلك حتى أفهمه.

فقال: إن الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه».

***

الآن وقد عدت أدراجك نحو ربك، اجعلن نفسك قاضياً عليها كل ليلة، فاحكم في أمر قلبك وأذنياك وفرجك ويدك وساقك. فإن التفت إلى خروج أحدها عما يوجبه لها الايمان بربها، إشغلها بما حسن من الفعال لتتدارك خسرانها على الأقل. فإن كان لسانك قد هفا ألهجه بذكر الله، وآنس عينيك بقراءة القرآن وقلبك بذكر الحبيب لساعة، وهكذا...

وفي هذا البحث سوف أحدثك عن هذه الهفوات بما لا يخرج عن إطار الايجاز والاختصار.

لما كان القلب سلطان الجسم لنبدأنّ أولاً به. بعد استتباب أوضاع قلبك على الايمان بالله ونجاحك في إصلاح نيتك، وأنت تعلم لولا نقائها وصفائها لما نال أي عمل القبول وسوف يطول حديثي معك عن النية الصالحة والقلب السليم في بحث «التحلي» بعون الله. إجهد أن توصد أبواب قلبك دون الأفكار الخاطئة والأخلاق الذميمة فإنها تمنع

استقامتك. فلنعرض بايجاز لمجموعة من هذه الزلات:

الرياء:

تحدثنا عن الشرك إلى حد ما. فتعرفت على الشرك الجلي والشرك الخفي. فلتعلمن أن الرياء نوع من أنواع الشرك، ومعناه أن ترغب في إظهار حسن فعالك للآخرين. واشباع هذه الرغبة يكون هدفك في أعمالك وفي ما يتفوه به لسانك أو تكتبه في قرطاسك. فإن صليت مختلياً بنفسك صليت على نحو ولو صليت على مرأى الناس صليت على نحو آخر.

جاء في إحدى الروايات أن التوحيد لا يتم مفهومه إلّا إذا صار الناس عندك، من حيث وجودهم وغيابهم، بمنزلة الجمال (والمثل يُضرب ولا يُقاس). فأنت إن صليت وإلى جانبك جمل لا تغير نمط صلاتك لأجله. فلو صليت مفرداً وجميع الخلق يرقبونك لا يؤثر ذلك في مسار فعلك.

إن التفت إلى أنك تؤدي عباداتك وحسناتك ومبراتك دون عمل حساب خاص للناس، وأنك تتوجه إلى خالق السماوات والأرض بقلب سليم اعلم أنك بعيد عن هذا الخطر، وإلّا فإنك مبتلى بمرض الرياء تريد به أن تستر عيوبك عن أنظار الناس وتريهم فنونك دون معايبك.

إحرص على علاج دائك. فكّر في نفسك: أي من هذه الخلائق لها أن تؤثر في حالك يوم ترحل عن الدنيا. فإن أنت وفدت على ربك

بسريرة نقية نزيهة وجدَّ الناس جميعاً في عدائك أو وردت عليه متدنساً والجميع أحباؤك المخلصون، فما عسىٰ الناس أن يفعلوا؟ فوالله أمر الله يجري في جميع الأحوال والوضع بالنسبة له سيان. فكن إلهياً واخلص نواياك، في فعالك، له وحده. فالموحد يؤدي صلاته لا يبالي إن كان لذلك في ساحة المدينة فاعلاً أو هو في الغار منفرداً.

يقص الشاعر سعدي الشيرازي حكاية رجل وجهت إليه دعوة للإفطار فبالغ متظاهرا في صلاته والجميع على مائدة الإفطار له في انتظار. ولما جلس إلى المائدة ما تناول إلّا لقمة واحدة. ولكن عند عودته إلى الدار أمر بإحضار الطعام. فقال الابن: ابتاه! أعد الصلاة أولاً ثم عليك بالطعام. فلا للصلاة أديت ولا بالطعام أفطرت.

فلنستعذ بالله من هذا المرض الخفي الذي يفني الأعمال ويأخذ الحسنات ويهدر الثروات.

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«.. إياك والرياء، فإنه من عَمِل لغير الله، وَكَّلَه الله إلى من عمل له»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إجعلوا أمركم (أي أمر مذهبكم) هذا لله ولا تجعلوه للناس، فإنه ما

---

١ ـ الكافي، باب الرياء، الحديث ١.

كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله»[١].

الإنسان يرغب بطبيعته أن يكون محبوباً عند الناس، الجميع يذكرونه ويطرون عليه مما يلجئه إلى الرياء. ولكن اعلم ان ظاهرك لا يخدع الناس أكثر من مرة أو مرتين. فسرعان ما يتنبهون إلى حقيقتك. ولكن إن تقصيت رضا الله في أعمالك، فإن الله يعزّك ويرفع شأنك ومكانتك في هذه الدنيا أيضاً. فإن لمحت شيئاً من مؤشرات الرياء في وجودك تبصر في حديث الإمام علي عليه السلام:

«ثلاث علامات للمرائي:

ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويُحب أن يُحمد في جميع أموره»[٢].

ايها العزيز! لكل من الناس ذوق خاص، فأنّىٰ لك أن تساير كل هذه الأذواق. إن أردت أن تفعل يصير أمرك كل يوم في شأن، ووجهتك مصوبة نحو جهة وشراعك يميل مع كل نسمة وتتهافت مع كل رغبة وكأنك سعفة. فإلى الحق صوب وجهك تتحول سعفتك إلى نخلة بل إلى جبل شاهق، وحالك من تهافت إلى ثبات. فإن نويت على فعل الخير، إجهد حتى المقدور لإخفائه والإبقاء على خفائه.

قال الإمام الصادق عليه السلام وهو يحادث بعض أصحابه:

«الإبقاء على العمل أشد من العمل.

---

١ ـ الكافي، باب الرياء، الحديث ٢.

٢ ـ الكافي، باب الرياء، الحديث ٨.

قال أحدهم: وما الإبقاء على العمل؟

قال: يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكُتب له سراً ثم يَذْكُرُهَا وتُمحى فتُكتب له علانية ثم يَذْكُرُهَا فتمحى وتكتب له رياء»[١].

١ ـ الكافي، باب الرياء، الحديث ١٦.

«الغرور»

من أمراض النفس الأخرى: الغرور والتكبر. فما بال الإنسان، وهو لا يتجرد عن فقره ولا يذوق غنى واقعياً حتى للحظة واحدة في حياته، تجده يركب صهوة الهيمنة والتكبر والاغترار بالذات؟

أنت بحاجة إلى الماء والهواء والتربة والشمس والأمطار والأرض،

كما أنك غير مستغن عن النباتات والجمادات والحيوانات،

غذاؤك أجساد الحملان والأبقار والدواجن والأسماك.

تُغير على بيوت النحل بِلا هوادة.

والآن ينعدم وجودك لو تعطل نشاط خلايا جسمك. أَوَ ما تعلم أن هذه الخلايا لا ترى بالعين المجردة. فكيف لك أن تنظر إلى نفسك باغترار وبصرك يعجز عن رؤية محافظيك حتى مع الإمعان؟ ثم ان ربك يُذكّرك:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾[١].

يوم تقرر لك الوجود والحياة الإنسانية لم تكن أكثر من حيوان منوي ذكري يبلغ درجة من الدقة بحيث لو تستجمع حيوانات منوية بعدد سكان الأرض في كشتبان واحد لما ملأت أكثر من نصفه. ثم فكّر في حجمك يوم كنت نطفة تسبح في ماء آسن:

﴿ألم يك نطفة من مني يُمنىٰ. ثم كان علقة فخلق فسوّى﴾[٢].

وهل تعلم في حضرة مَن، تتظاهر بالكبرياء؟

﴿أولَمْ ير الإنسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾[٣].

فكيف غفلت عن أصلك ومنشئِك؟ ثم أنك لو تمر عليك أيام معدودة بعد وفاتك يعجز حفرة القبور أن يردوك في لحدك لشدة نتنك؟ فبدايتك استهللتها هكذا وقد تختتم نهايتك بمثل ذاك المصير. فعلامَ كل هذا التفاخر؟!

﴿ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾[٤].

أَوَ فكرت في عجزك يوم قدومك؟ ماذا كنت تملك يومئذ؟ هل كنت تصحب شيئاً من استحقاقات الرئاسة؟ أم كان لك ذخر من

---

١ ـ سورة الدهر «الانسان»، الآية ١.

٢ ـ سورة القيامة، الآيتان ٣٧ و ٣٨.

٣ ـ سورة يس، الآية ٧٧.

٤ ـ سورة لقمان، الآية ١٨.

مستلزمات القوة؟ كل نصيبك لم يتعد نزراً من مكـونات الدم، طـعاماً وركناً في ظلمات ثلاث، مسكناً:

قال تعالىٰ:

﴿قُتل الإنسان ما أكفره. من أي شيء خلقه. من نطفة خلقه فقدَّره ثم السبيل يسَّره﴾[١].

هذه الحكاية بدايتك.. وأما مصيرك ومآلك فإنه (عز وجل) يخبرك عنه في الآية:

﴿ولقد جئتمونا فُرادىٰ كما خلقناكم أول مرة وتركتم مـا خـوّلناكـم وراء ظهوركم﴾[٢].

إنك تدرك حقيقة نفسك حتى لو جهلها الجميع:

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾[٣].

فكم من مرة عصيت الله على مر حياتك؟ وكم من مرة ظفر الشيطان باستعبادك؟ وكم من مرة سخّرتك الأفكار الخاطئة وأنت تـعبد ربك؟ هل تجردت عن انزلاقات الفكر ولو في ركعة واحدة من صـلواتك؟ وهل كانت لك في حضرة ربك الحق تعالى ولو سجدة خـاشعة فـي خلواتك؟ إن أزيح عن وجهك جـلده فأنت فـي نـجاسة الدم سـوف تسبح، ولو شق جدار بطنك فمنه التلوث سوف يـنضح! ربك السـتّار

١ـ سورة عبس، الآيات ١٧ ـ ٢٠.

٢ـ سورة الأنعام، الآية ٩٤.

٣ـ سورة القيامة، الآيتان ١٤ و ١٥.

غطى معايبك. فإن كشف عن سجل ما يستقبح من أعمالك سوف يفر الجميع من فعالك. فبمثل هذا الخزي ماذا تنسج في خيالك؟ وبم تفاخر الخلائق؟

﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾[١].

لك أن تشعر بالفخر والاعتزاز يوم تصرع شيطانك في نفسك؟ يوم تغدو عبداً مخلصاً لربك.

فهل تعلم أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من في قلبه مثال ذرّة من كِبر»[٢].

فبم تتفاخر؟ أبمال الدنيا؟ لا يخيل إليّ أنك بمثل غنى قارون فقد قال تعالىٰ:

﴿إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة﴾[٣].

هل تعلم حكايته؟ قرأت دون شك تفاصيلها في القرآن الكريم. أعرفت كيف ابتلعت الأرض خزائنه جميعاً؟ وكيف باغتته المنية وسط أمواله وممتلكاته؟

كان فرعون متفاخراً بمصر وبالنيل فابتلعه النيل بأمواجه؟ وتفاخر الشيطان على آدم الترابي الخلقة، بخلقه من نار وسوف تحرقه لهيبها مآلاً! فعلى أي مسند تتكىء في تفاخرك، فإنه سوف ينهار على رأسك

١ـ سورة الانفطار، الآية ٦.

٢ـ الكافي، باب الكبر، الحديث ٦.

٣ـ سورة القصص، الآية ٧٦.

أخيراً. فالعزة والكمال مدعاة فخر واعتزاز ولكن ليس لي ولك بل لرب العزة والجلال.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«العز رداء الله، والكِبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبَّه الله في جهنم»[١].

فالإنسان يعلم أنه ولد فقيراً لا يصحب ثراء، وسوف يرحل فقيراً لا يحمل معه غناء. فكيف يا ترى يجرؤ على التفاخر بمال لا يلقى منه عند الرحيل وفاء، ولا يستوفين منه عند الابتلاء بمشكلة مستعصية أو بمرض عضال شفاء، ولا في ظروف تعرضه لفتن القضاء والقدر رجاء للخلاص.

وما يدريك قد تصبح نفس هذه الثروة مدعاة حسرتك في دنياك وآخراك، فلا يأتيك منها إلّا التأسف والعناء.

تعمق في مفهوم الحديث التالي:

يقول الإمام علي عليه السلام:

«الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميّز المتواضعين منهم من المستكبرين. فقال (سبحانه) وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إني خالق بشراً من طين فإذا

١ـ الكافي، باب الكِبر، الحديث ٣.

سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلّا ابليس..﴾[١].. اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه»[٢].

أواه من نيران تضرمها مسكوكات الذهب والفضة في وجود الأثرياء يوم تعرض للخلائق قبائحهم في حضرة الحق المتعال:

﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[٣].

ربما تتحول الرحمة نقمة والدواء سماً أو داء ويستجلب الغناء لك العناء، والبحث عن قمة السعادة وقوعك في وادي التعاسة. فإلى أي قدح أنت متهافت؟ فمتى ما اجترعت قدحاً من وله الحبيب تغفل عن الدنيا وما فيها. فمالك والمال؟! تقص الوصال. فوالله الأشواك تتحول عند وصاله أزهاراً والأكواخ قصوراً.

أم قد تكون مختالاً فخوراً بعلمك. فإن كان التكبر والغرور واردك من علمك فيا مرحباً بالجهل فهو الأفضل بالنسبة لك، بل أنه الجهل بعينه من حيث لا تدري. فمن مردودات العلم الواقعي وآثاره خشوع النفس الإنسانية لربها.

قال تعالى:

١ـ سورة ص، الآيات ٧١ ـ ٧٤.

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٣ـ سورة التوبة، الآية ٣٥.

﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[١].

قال فهيم: نسبة معلومات الإنسان إزاء مجهولاته كنسبة شعاع الدائرة إلى محيطها. فكلما كبر الشعاع كبر المحيط. وعِلم الانسان هكذا أيضاً. فكلما ازداد، اتسعت دائرة مجهولاته. فأنت حتى لو كنت قد أحرزت أعلىٰ مؤهل علمي لن تستغن عن الخباز لإعداد خبزك وعن البنّاء لإشادة دارك وعن الكناس لتنظيف زقاقك و..

فأي غنى واستغناء هذا؟ لا سيما وأنك تعرف أن العلوم مئات الأصناف، ولكل صنف فروع اختصاص هي مع بعضها على اختلاف. وأنت لم تحرز أكثر من فرع واحد! فبأي شيء من دنيا العلم تتفاخر؟!

لا تسحبن أذيال رداء غرورك على الأرض وترمقن ببصرك هذا وذاك عساهما أن يلقيان عليك التحية. علمك غايته فناؤك ومحوك في الله لا سهوك وتبخترك.

قال تعالىٰ:

﴿لا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾[٢].

فليس هنالك أعلم من النبي المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ. ألم تسمع أنه كان يفترش الحصير نائماً وهو بلقمة الخبز قانعاً وفي المشي أحياناً حافياً، وحتى للأطفال في طريقه محيياً ولنصرة المنكوب

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ٢٨.

٢ ـ سورة الإسراء، الآية ٣٧.

مسارعاً؟

ولتعلمن أن العلم ربما صار آفة للعالم ذاتـه! فـمكتشف جـرثومة مرض الاسهال الدموي قضىٰ بنفس هذا المرض.

والعالم «كوخ» مكتشف جرثومة السل صارع هذا المرض لأعوام وأعوام حتى وافته المنية بنفس هذا الداء.

فعلمك إن لم يزدك خشوعاً، فأنت لَبَعيد عن دنيا العلم كل البـعد. وقد يتفاخر جميل بجماله. فقل له: أتدري من صاحب الجمال؟ أين كان جمالك يوم كنت نطفة خاملة أو سيؤول أمره يوم تكون في القبر جثة هامدة؟ إذاً، فكّر، والتفت أن الجمال للجميل لا لك. فَلِم تـعلقك بهذا الجمال الزائل؟ فلكل ربيع خريف يعقبه ولكل شباب هرم ولكل قوة ضعف وعجز.

فهل تعلم بأي مظهر سوف تُبعث يـوم القـيامة. أمـهلني أروي لك حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن المتكبرين يُجعَلون (ويقصد يوم القيامة) في صور الذَّرِّ يتواطأهم (أي يسحقونهم بأقدامهم) الناس حتى يَفرَغ الله من الحساب»[١].

فكم من صاحب جمال صار جماله وبالاً عليه وتحول شراكاً وقع أخيراً فيه.

وأنت لم تكن خالق جمالك ليكون لك منه فخر واعتزاز بل وهبت ما وهبت من ربك، والحري بك أن تكون له شاكراً لا عـلى خـلائقه

١ ـ الكافي، باب الكبر، الحديث ١١.

متفاخراً متبجحاً.

يروىٰ أن عائشة زوجة النبي ﷺ وصفت امرأة بقِصَرها فأشار عليها رسول الله ﷺ بأنها قد اغتابت المرأة وما كان ذلك منها سوى لفخرها بقامتها، وإلّا ما كانت تقول هكذا إن كانت قصيرة القامة.

وأنّى للجمال أن يكون مدعاة تفاخر وهو الذابل بأدنىٰ مرض وسقم. فالبشرة الحسناء تعيث الحصبة بحسنها، والوجنات الجذابة تبيد «حبة حلب» جمالها، والتورد يفنيه اليرقان من ملامحك فيبعث على اصفرارك. فمن أين تحدس ما سيؤول إليه مصيرك؟ وعلى أي وتر سوف تعزف الحياة لك أنغامها؟

ثم أنك تتبجح وتتفاخر بما منحك الله من قوة أو مقدرة، حتى لو أحرزت بطولة ما بين أبناء مدينتك أو وطنك.. ومع أن بعض الشباب تسوّل له نفوسه إن كان الشخص الأقوى من بين ثلاثة أن يتفاخر عليهم، فأنت فكر مليّاً من منحك هذه القدرة؟ فكم من مرة لهج لسانك يذكر «لا حول ولا قوة إلّا بالله»؟ فهل ما زلت غير ملتفت إلى أن هذه القدرة ليس لك بل لمصدرها الحقيقي.. وأحياناً قد تسلبك جرثومة لا تُرى بالعين المجردة هذه القوة.

لقيت بطلاً من أبطال العالم لحمل الأثقال يقول: صرت إلى حال لو أحمل كيلوغرامين من البرتقال إلى منزلي تأخذ يداي بالارتعاش. فأنّى لك أن تفخر بقوى ساعديك وأنت على هذه الحال؟

***

يروىٰ أن بطلاً للمصارعة ورد مدينة وراح يصارع أبطالها الواحد تلو الآخر وهو ينادي: «لمن الملك»، فلم يبق على أحد من منافسيه. مرّت عدة أيام لم يلقه فيها أحد. توجه منافسوه إلى دار الضيافة لزيارته وتقصي أحواله، فوجدوه يقبع في ركن من حجرة وقد أخذت منه لوعة الغربة والمرض مأخذاً. أيام انقضت وهو على هذه الحال، لم يزره فيها طبيب. شحب لونه وكان الجوع يغالبه. سأله المنافسون عن أحواله. فقال وهو يشير إلى قدمه: أكثر ما يعذبني هو هذا. فلما أزاحوا الغطاء عن قدمه وجدوا مجموعة من الفئران تقضم أصابع قدمه وليس لديه حول وقوة ليخلص نفسه منها.

فمثل هذه القوة تتحول عجزاً بمثل هذه السرعة، وتذبل في المقابر مآلاً. فإن تعطل عصب من أعصابك بقطر لا يتجاوز قطر الحبل يعجز الانسان عن الحركة؟ فهل للمتوقفة قواه على حبل ان يتفاخر ويتبجح بقواه؟!

وأي فخر للإنسان وهو يرىٰ الأبقار والحمير والجياد والأكثر منهم الوحوش تسبقه إن هي بارته في القوة. الفخر لا يليق بك إلّا إذا تحليت بإرادة تصرع بها شبح باطنك، وتخمد بها نار غضبك وتغلب شيطانك، على ان يكون فخرك شكراً لنعمة لا غروراً وتكبراً.

وقد يبتلى الجاهل بداء التكبر باستزادة العبادة وهو كبر يترشح عن الجهل لا غير.

سمعت وقرأت الكثير عن عبودية النبي محمد ﷺ والإمام علي عليه السلام، فأين تقوانا من تقواهما؟ فانظر في شأنهما واعلم ما كان لهما فخر

إلّا عبوديتهما لله وخشوعهما إزاء كبريائه.

فاقرأ عن الشاعر سعدي الشيرازي يقول:

«كل من الانفاس يمنح الحياة عند سحبه وينفّس عن الذات عند طرحه. إذاً، في كل نفس نعمتان. وكل نعمة تستوجب شكراً. فمن ذا الذي يمكنه أن يحسن أداء حق شكره بيديه ولسانه؟!

إنه لبوسعك أن تؤدي حق الشكر له على انفراد، هل صليت ركعتين حتى الآن دون أن يشرد ذهنك قط إلى غيره؟ هل كانت عباداتك خالصة لوجهه، ألم يتسرب شيء من مال الحرام أو الشبهات إلى مسكنك وملبسك وطعامك؟

فإن وفقت إلى أداء عبادة ما فاشكر الله على إغداقه عليك بالصحة والفرصة والتوفيق لأداء العبادات لا أن تمن على الله لما فعلته ففي ذلك ذنب أعظم من ثواب العمل نفسه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك، فلإن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه»[1].

وقد قال رب العزة والجلال: ﴿فلا تزكّوا أنفسكم﴾[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قوله:

---

١ ـ الكافي، باب العجب، الحديث ٤.

٢ ـ سورة النجم، الآية ٣٢.

«أتى عالِمٌ عابداً، فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يُسأل عن صلاته، وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا؟

قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي.

فقال له العالِم: فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مُدِلٌّ. إن المُدِلَّ لا يصعد من عمله شيء»[١].

وقد قرأت في بحث التوبة ما أعظم وَلَه الله تعالىٰ بالتائب مع أنه عائد من جادة الخطيئة، بينما ترى مبلغ نفوره من المتكبر وقد يكون شذ عن درب الطاعة.

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق. فخرجا من المسجد والفاسق صدِّيق والعابد فاسق. وذلك أنه يدخل العابدُ المسجد مُدِلاً بعبادته يُدِلُّ بها فتكون فِكرَته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندمِ على فسقه ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب»[٢].

إعلم أن الغرور يوصد أبواب القلب، فلا سبيل له بعد ذلك إلى الملكوت الأعلى لينعم فيه ولا للنور ليتطلع إليه. هكذا يتعذر خلاصة فيختمه الله بختم لا ينفتح أبداً. ألم تقرأ قوله تعالى في الآية:

﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[٣].

---

١ ـ الكافي، باب العجب، الحديث ٥.

٢ ـ الكافي، باب العجب، الحديث ٦

٣ ـ سورة غافر، الآية ٣٥.

وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال الله لداود عليه السلام: يا داود بَشِّر المُذنبين وأنذر الصديقين. قال: كيف أبشر المذنبين وأُنذر الصديقين؟ قال: يا داود، بَشّر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب. وأَنذر الصديقين ألا يُعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أَنصبُهُ للحساب إلّا هلك[1].

ومن الغرور والتكبر ما يترشح عن منصب الرئاسة. أمعن في أن أعلى منصب رئاسة في عالمنا المادي هو منصب السلطنة أو الملكية. فلتعلمن أن السلطنة أو الملكية لم تدم لأحد. إنك لا تعثر على متنعم بديمومتها ولو تقصيته على مدى التاريخ. وما أكثر الملوك الذين لم يهنأوا بالجلوس على عرش الملك إلّا أياماً أو أشهراً معدودات.

قال تعالىٰ:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[2].

وفي عهدنا الحالي أَوَ يأمن الملوك وأصحاب الجاه على مصيرهم حتى لساعة أخرىٰ؟ ألم تر فريقاً من المقربين إلى أمثال قارون، كانوا يطمحون في يومهم إلى مثل جاهه ومنصبه وثروته وصاروا يتهامسون في غدهم مع أنفسهم:

---

١ ـ الكافي، باب العجب، الحديث ٨.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٨٣.

﴿لولا أن منّ الله علينا لخسفَ بنا﴾[١].

ومن أين لك أن تعلم ما يفعله حب الرئاسة بأمور دينك؟ وما هي آفاته التي تعيث بحياتك وبمصيرك؟ فإن كنت راغباً في معرفة ذلك، إصغ إلى الإمام علي عليه السلام يقول:

«ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤُها، أحدُهما في أولها والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم»[٢].

لا تتبجح بأن الرئاسة لا تؤثر فيك، فكم من أصحاب نفوس عظام تهاووا في المهاوي هكذا.

يروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن يوسف عليه السلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام، دخله عِزُّ الملك، فلم ينزل إليه فهبط جبرئيل عليه السلام، فقال: يا يوسف، ابسط راحتك فخرج منها نور ساطع، فصار في جو السماء، فقال يوسف: يا جبرئيل! ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نُزعت النبوة من عَقِبك عقوبة لِما لَم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عَقِبك نبي»[٣].

فالغرور والتكبر للإنسان الفقير إلى ربه لا يتأتى إلّا من توهمات

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٨٢.

٢ ـ الكافي، باب حب الدنيا والحرص عليها، الحديث ٢.

٣ ـ الكافي، باب الكبر، الحديث ١٥.

وتصورات خاوية. والتوهم عارٌ على الصاحي المتيقظ. وأكثر الغرور بطلاناً ما قام منه على أساس الحسب والنسب.

أتتفاخر بمن تفسخت أبدانهم وتحولت تراباً في القبور؟! فأين هم مفاخرك لتعرف إلى أين يؤول مصيرك أنت المتطفِل عليهم؟!

«الحسد»

ومن أمراض النفس الأخرىٰ التي يغفل المبتلى بها عن نفسه، ويصبح الآخرون شغله الشاغل، هو الحسد. فالحاسد ليضني نفسه بانشغالها بعذاب نعمة المعارف. فالله يحب أن يظفر عبده بنعمة، والحاسد يريد للعبد أن تسلب منه النعمة، ولكن الله لا يسد أبواب نعمه بوجه عباده قضاء لرغبة الحاسد. كن واثقاً أن الحاسد لا يتحكم بأبواب نعمتك. الآخرون يبتهجون لنعماء الله شكراً منهم والحاسد يأسف ويتحسر كفراً منه. دعه يتلوع بناره على مر حياته. فالحسد، بحد ذاته، جزاء الحاسد. فعذابه يحرم صاحبه من الراحة حتى للحظة واحدة لأن الله عز وجل لا يكف عن تنزيل نعمه قط.

يقول الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسودِ

إنه أكثر إيذاء وإضراراً من الأفاعي والعقارب حيث يروق له أن يرىٰ الجميع تعساء بؤساء فقراء وتؤلمه سعادة الآخرين وتأخذه

الحسرة على ما يهنأون به من نـعم. ألا تـرى ربك يأمـر رسـوله أن يستعيذ به من شر الحاسد في الآية:

﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾[1].

ألا تعلم أن الأرض كانت منزهة من الآثام والخطايا. وأول ما ظهر فيه كان من نتاج الحسد، حسد انبثق في قـلب قـابيل فأزهـق روح هابيل ولوث الأرض بدماء هذا المظلوم. ولم يذق قابيل بعد ارتكاب خطيئته طعم الهناء أبداً. وهكذا دواليك، ما زال القـابيليون يـرزحـون تحت وطأة إرثه حتى الآن.

وهذا المرض النفسي عينه يدفع الحاسد إلى استساغة الظلم والجور والغيبة والكذب وحتى القتل.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[2].

فإن عزم أي شخص على تركيز الاهـتمام بأمـور دنـياه وآخـرته ليجدن أمامه انشغالات لمن الكثرة تشغله عن الأغيار.

فقد ينتهي اكتئابه وخموله إلى حرمانه بالتالي من النـعم فـيتحسر على ما يناله الآخرون بالمجاهدة والسعي. فبدلاً من أن يـدفعه حب النعم لبذل الجهود والمساعي يستنقص نفسه متأوّهاً ويـزداد حسـرة متألماً.

١ـ سورة الفلق، الآية ٥.

٢ـ الكافي، باب الحسد، الحديث ٢.

ومن علامات الحاسد بحسب ما يذكره الإمام الصادق عليه السلام في حديث له (نقلاً عن لقمان ناصحاً ولده): اغتياب الغائب والتملق للحاضر والتشمت بالمحسود عند نزول البلاء.

واعلم أن الحاسد إنما يتحدى الله بأن لماذا أعطى لفلان كذا ولبهمان كذا. على هذا فإنك لا تجدن حسوداً يستسلم لرضا الله قط.

واعلم أن الحاسد في قرارة نار تحرق قلبه قبل أن تأتي على وجوده بكله فتبيده. والأتعس من هذا أنه بعمله هذا يصرف حسناته أيضاً إلى المحسود.

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الحاسد يضر نفسه قبل أن يضر بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقايق العهد والاصطفاء. فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقل ميزان المحسود والرزق مقسوم. فماذا ينفع الحسد الحاسد وماذا يضر المحسود الحسد»[1].

فما أتعس الحاسد! دنياه نكال وذخره لآخرته مصروف للآخرين في تلك الدار. يحرق نفسه بنار حسده ويثقل بألف ذنب آخر كاهله. ألم تسمع أن نفوس اخوة يوسف استرضت قتل أخيهم حسداً له. وما كان لهم من سلوكهم معه إلّا ضرارا وليوسف الفوز بالحكم والرسالة مآلاً. دلو سقاية انتشله من عتمة بئر وانتهى به إلى عزّ قصر، فلم يلحقه

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٤٨، في الحسد.

من الحسد وبالاً.

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام: يا بن عمران، لا تحسِدنَّ الناس على ما آتيتُهم من فضلي، ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ذلك، ولا تُتبعه نفسك، فإن الحاسد ساخط لنعمي، صادٌّ لقَسْمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني»[1].

الآن وقد عرفت هذه المقامات، فإنك إن تجد في أعماق نفسك ولو ذرة من حسد سارع إلى علاجه.. وأول علاجه أن تشعر بالأسىٰ من جهلك.

من به نعمة فإنها أما بلغته من كسب حلال وكانت حقاً له فأكرمه الله بها. ولو كان ذا كمال وصاحب ذخر من فضل، فتعمق بأية معاناة اكتسبها. وإن كان الجمال نعمته، فإنها من الله هبة، علامَ تعاديه أنت فيها؟

وإن كانت قد صارت إليه من كسب حرام وليست حقاً له، فإنها ليست نعمة بل نقمة.. وأنت تحسده على الوبال والعناء.

ثم فكّر مع نفسك قد يكون منشأ حسدك من الكبر والغرور، فأنت تريد أن تكون الأفضل والأمثل بين الجميع. فاذهب وعالج غرورك، فقد طال حديثنا في هذا المقام على هذا الصعيد.

وقبل كل شيء، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأحدها الحسد،

---

١ ـ الكافي، باب الحسد، الحديث ٦.

فمحبو الدنيا ومهما بلغت ثروتهم فإنهم يحسدون الأكثر ثروة منهم فلا مال يشبعهم ولا ثروة تكفيهم. وقد تحدثنا معاً عن هذا العيب أيضاً.

«الغبطة، لا مانع منها»

ايها العزيز! إن كنت من أهل الغبطة، فإنها لا تمنع سلوكك إلى الله. ومفهومها أن تتمنى أن ينعم الله عليك بمثل نعمة المتنعمين لا أن تزول نعمهم. ولتحظىٰ بمثل هذه الرؤية توجه بطلب الخير للآخرين أولاً أثناء دعائك ثم انظر في حاجتك. وحري بالسالك إلى الله إن كانت به غبطة أن يوجهها للأمور الأخروية والروحية لا المادية. فمن الحكمة بمكان أن يغبط الإنسان الأبرار الحقيقيين على ما نالوه من سعادات وحب وثمالة في سبيل الحق.

إلهي! أكرمنا بما وهبت أحباءك وألق إلينا تلك النظرات التي شرّفت بها أولياءك وصالحي عبادك واصقل نفوسنا من الحسد واعتق قلوبنا منه بمنّك وكرمك.

«طول الأمل»

لما كان موعد رحيل الإنسان عن هذه الدنيا غير محدد، ينبغي له أن يكون على استعداد لحلوله في أي ساعة دون امتعاض، بل يستقبله بترحاب. ألم تسمع قوله تعالى:

﴿إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾[1].

إذاً، أحد مؤشرات حبّك لله هو أن لا تنفر من الموت لأنك، بذلك، تحسبه بوابة لقاء الله، بوابة ميمونة. ولكن أنّىٰ للمتعلقين بهذه الحياة أن يغضوا الطرف عنها؟

ايها العزيز! يحدث أن تستضيف شخصاً تحبه في دارك. فإن أنت كنت مسروراً بقدومه تعدّ له المائدة أو تبسط الصوان وتأخذ أهبتك فتجلس في انتظاره. ولكنك إن لم تعد نفسك ولم يكن في منزلك ما تستقبله به، مائدتك خاوية. لا تملك إلّا الفقر والعوز والحاجة فيحل

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية ٦.

عليك ضيفك على حين غرّة، كيف تكون حالك في مثل هذا الموقف؟

ولكن ضيفك هذا سوف يحل عليك دون دعوة، فإن أوصدت الأبواب في وجهه يأتيك متسللاً من النافذة بل من ثغرة. لا حاجة له بطرق الباب. هل أعددت نفسك لمثل هذه الضيافة:

﴿قُل إن الموت الذي تفرون منه فإنه مُلاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[1].

تقول: أنا مستعد للموت وهل لي حيلة غير ذلك؟ من مؤشرات الاستعداد هو أن لا تتمادى في التخطيط للمستقبل. وإن فعلت يكون ذلك على سبيل الاحتمال. لا سيما إن كنت متقدماً في السن. فأنت لا تعلم مبلغ تأثير طول الأمل في نأيك عن عالَم الأمر[2]. ألم تقرأ قول مولى المتقين الإمام علي عليه السلام في فقرة من فقرات دعاء «كميل»:

«وحبسني عن نفعي طول أملي».

فهذه الآمال تكون لك قيوداً وسلاسلاً تكبل جناحي تحليقك. فأنّى لك بمثل هذه الأثقال المثبطّة أن تكتسب حيوية وانتعاشاً تسلك به إلى المحبوب؟!

ويمسي المرء ذا أجل قريب ... وفي الدنيا له أمل طويل
ويعجل للرحيل وليس يدري ... إلى ماذا يقرّبه الرحيل

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية ٨.

٢ ـ عالم الأمر: هو ما وجد عن الحق بغير سبب وأداة وواسطة بعكس عالم المُلك أو عالم الملكوت.

ونصح رسول الله ﷺ أبا ذر بالقول:

«... يا أبا ذر! إياك والتسويف بأملك، فإنك بيومك ولست بما بعده، فان يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم.. وإن لم يكن لك لم تندم على ما فرطت في اليوم..»[١].

وعنه ﷺ أيضاً:

«إنما أخاف عليكم اثنتين اتباع الهوى وطول الأمل.. أما اتباع الهوى فإنه يصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»[٢].

فأنت أيها العزيز! إن كنت في عنفوان الشباب زر المقابر وانظر كم من شاب رقد في قبورها دون اتمام سني شبابه!

تحدَّثنا عن حب الدنيا وأحد آثاره طول الأمل. ومن البواعث الأخرىٰ لطول الأمل هي الغفلة، التي تؤول حتى بالشيوخ للتخطيط لمائة سنة أخرىٰ. تجد صاحب الآمال الطويلة يتعاظم تشوشه لشدة تفكيره بشؤون الدنيا ولكنه فيما يخص الآخرة يعوّل أمره إلى كرم الله وغفرانه.

فأنت تلعب فخوراً في صباك وتتبع أهواءك في شبابك وتنشغل بالزوجة والأطفال في هرمك. ثم لتبدأن في زرع علائق أخرى في نفسك مع أحفادك. فماذا تفعل بالموت إن حل بك موعده اليوم؟!!!

بالأمس أجَّلت مهمتك الى اليوم، واليوم إلى الغد وهكذا الأيام

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٧، ص ٧٥، ما أوصى به رسول الله (ص).

٢ ـ الكافي، باب اتباع الهوى، الحديث ٣.

المقبلة، والأيام تواصل انصرامها. فمتى يحل موعد هذا الغد؟ فما أكثر الذين قضوا في ليلهم ولم يشهدوا وقت السحر أحياء أو أفـاقوا بـعد شروق الشمس ولم يتسن لهم مواصلة الحياة حتى غروبها! وكم مـن طعام أعد ولم يـتناوله صـاحبه، ولبـاس لم يـمهل المـوت صـاحبه بارتدائه. فالموت أمر محتوم مفروغ منه أكثر من أي وقـع وحـدث آخر، وقد قال الإمام علي عليه السلام:

«الزهد في الدنيا قُصر الأمل».

تـزود مـن الدنـيا فـإنك راحـل   وبادر فإن الموت لا شك نـازل

وعن الامام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من تعلق قلبه بالدنيا تعلق منها بثلاث:

ـ هم لا يفنى،

ـ وأمل لا يدرك،

ـ ورجاء لا ينال»[1].

***

ويروى ان هارون الرشيد قال للفضيل بن عياض: ما أزهدك؟!

قال: أنت أزهد مني...

قال: كيف؟

---

١ ـ الخصال.

قال: لأني أزهد في الدنيا وهي فانية وأنت تزهد في الآخرة وهي باقية.

***

قال الشاعر:

يمد المنى للمرء آمال نفسه وسهم الردى من لحظ عينيه قد نزع
لمن يجمع المال البخيل وقد رأى مصارع من قد كان بالأمس قد جمع

قال تعالىٰ:

﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد﴾[1].

وفيما يخص هذه اللحظات العسيرة يقول الإمام علي عليه السلام:

«يفكر فيم أفنىٰ عمره واذهب دهره».

وا أسفاه على الإنسان يوم تهزأ به آماله وهي تعرض أمام عين قلبه، الواحد تلو الآخر. عندها يدرك الإنسان ما أعظم نعمة قلة الأمل.

ففي تلك اللحظات المريرة تتعالى الأنات والآهات من الألم، من ألم لا يدرك كنهه أحد إلّا في تلك اللحظات.

يروىٰ أن رجلاً من الملحدين سمع أن «تارك الصلاة يموت ظمآناً»، فردّ قائلاً: وهل أصلي طوال حياتي من أجل جرعة ماء؟ سوف أطلب الماء في تلك اللحظات لأمنع عن نفسي العطش.

---

١ ـ سورة ق، الآية ٢٢.

المسكين تصور أن العطش هو الظمأ الظاهري للماء ولكن غاب عنه أن ذلك العطش ليضرم في وجود الإنسان ناراً لا تخمد أبداً.

فيا أيها العزيز! إدرأ عن نفسك هذا المأزق في تلك الساعات. فاشطب الآمال البعيدة من بالك، لا سيما في كهولتك.. لا تجعلن قلبك ألعوبة في يد الآمال. كن في انتظار منيتك على مر الأيام فسمفونية رحيلك إن لم تعزف اليوم سوف تسمع ترانيمها غداً.

يا أيها المطلق آماله   من دون آمالك آجال

عندما تكون هنالك جثة مطروحة على الأرض، إجلس إلى جانبها وتأمل ساعة مع نفسك. اية آمال كان صاحب هذه الجثة يفكر بتحقيقها؟ وما هي خططه التي أفنىٰ سنيناً من عمره لتنفيذها. وهذا ما تتجلى أكثر فأكثر في حالات الوفاة المباغتة. فعندها تتبين قيمة حديث وضاء يروى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث قال:

«لو ظهرت الآجال افتضحت الآمال».

إذاً، شد رحال سفرك الأخروي متبنياً القناعة نهجاً وابعد عن بالك الآمال البعيدة المنال نائياً. فذوو الأعباء الخفيفة أسرع وصولاً إلى محطاتهم النهائية في هذا المسار. كن على استعداد للرحيل دوماً لتمنع عن نفسك الارتباك عند حلول أجلك بل تُقبِل بكلك على لقاء ربك.

«الحقد»

اعلم أن الغاضب لما كان عاجزاً عن صب نار غضبه على عـدوه لابد له أما أن يخمد النار أو يودعها في قلبه. وهذه النيران المـودعة تسمى «الحقد».

إنك تهاب النار في الدار. فكيف تجعل لها في القـلب قـرار؟ الود والمحبة رياض وبساتين ورياحين، والغـضب والحـقد نـيران خـفية وجحيم. أطفىء وهج غضبك. وبمفتاح التسامح أوصد بـوجه الحـقد أبواب قلبك. فهذا رسول الله ﷺ وهو أسوة الخلق في العفو والتسامح يقول:

«إنما اللبيب من استسلَّ الأحقاد».

ولربما تولّدت عن الحقد ذنوب أخرى، أحدها الظلم. فالحاقد يجيز لنفسه ظلم المغضوب عليه إن تسنى له ذلك، فيلقى بـنفسه فـي ذنب أعتى. وإن تعذر عليه ذلك لتأتي النار على نفسه فتأكلها وتعذبها.

ومن مردودات الحقد الحسد. فالحاقد يحسد المغضوب والحسـد

يصرع الحاسد ويحرق كيانه قبل أن يلوح مناوئه بضرر، وقد سبق لنا الحديث عن الحاسد.

ومن فعاله الأخرى الاستغابة والولوج في ذنب آخر.

وأحياناً قد تسول له نفسه الاستهزاء به. وهذه نار أخرى يلقي نفسه فيها

وأخرى: يميط اللثام عن اسراره فيخزيه لعله يخمد نار حقده. فإن كان من أقاربه حرمه من صلة الرحم وترك معاشرته، ولربما أهدر ماله وأوضاع حقه إن فسحت له الفرصة لذلك.

فيا حبيب الروح! ما بالك؟! ألا تعلم أن عود ثقاب مشتعل قد يؤجج الحريق في دار بأكملها، ومن بذور الورد تقام الرياض؟

بمنجل الحب اقلع جذور الحقد من قلبك وانثر فيه بذور الصداقة لتتزين نفسك وترتاح بالأزهار والرياحين، لا أن تتوخز بالأشواك.

وأنت تعتزم اليوم على «التخلي» انظر إن كان للذمائم موطىء قدم لديك. شدّ حزامك واستأصل كل حقد في قلبك على أي شخص كان، سارع إلى نصرته، اتخذه صديقاً واحتضنه، قبّل جبينه واطلب الصفح منه ثم انظر إلى قلبك، وشاهد آثار الورد والريحان فيه. أمعن التفكير في الحديث النبوي الشريف:

«لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة ايام».

على من تصب نار غضبك وأنتما سواسية عند الفناء والزوال. وكلاكما يرقد قريباً في أعماق التربة متجرداً تماماً عن نفسه الزكية؟

والحق يقال أن الإنسان ينسى أنه راحل زائل!

هل لمحت الخراف المصفوفة في المذابح استعداداً للذبح، تـجدها في بعض الأحيان تتشابك وتتناطح بقرونها مع بعض وهي بـعراكـها مشغولة وعن الذبح غافلة. فلنقل هذه خراف. فكيف بـالإنسان وهـو يصارع أمثاله ويحقد عليهم متناسياً أنه أسير في قبضة الموت؟!

علاج الحقد

ايها العزيز، تأمل في انقضاء الدهر وتحولاته، فكّر في نفسك: من أكون أنا؟ ومن تكون أنت؟ حتى إن كان للجانب الآخر تـقصير فـي حقك أو ظلم، هل تأذن لنفسك أن تظلمه؟ الأشرار لا يتولد عنهم إلّا الشر، فهل رضيت لنفسك أن تكون مبعث شر؟ كن من أهل النور ودع الناريين يفعلون ما يروق لهم.

إن عاشرت حنظل الطباع كن شراباً عـذباً تُـطفىء مـرارة غـضبه وتخفت لوعة حسده.

ألا تعلم أن السلام حيناً والكلام آخر، الأريحية في بعض الحالات والزيارات في حالات غيرها قد تزيل ضباب الحقد عن القلب وتنعشه بنسمة الود. إلتق من تغضب عليه وتحسده، وجّه له التحية، إحمل معك له هدية، استقبله بابتسامة ثم أنك عندما تتركه تفحص قلبك لتجدن ما كانت به من نار تحولت الآن الى نور.

قال رسول الله ﷺ:

«تهادوا، فإن الهدية تغسل السخائم (الأحقاد)».

وعنه ﷺ أيضاً:

«الهدية تجدد الأخوة وتذهب الضغينة».

النار لا تخمدها النار بل تزيدها اندلاعاً. ينبغي أنْ تصبَّ على نار غضب الآخرين ماء. وأين ما تعشعشت أشواك الحقد في زوايا قلبك استأصلها وألقها بعيداً فإنها سوف تدميك وتفنيك قبل عدوك.

فنار الحقد هذه أحرقت حتى الآن مدناً، وهدّمت دوراً على رؤوس أصحابها، وأشعلت فتناً وأضرمت نفوساً. إحذرها بشدة. وإن كنت سرّبتها إلى نفسك حقيقة، إنهض الساعة وعاشر محسودك فبمعاشرته تخفف عن آلامك وهمومك.

آفات اللسان

اعلم ايها العزيز! أنك إن طلعت على سجل أعـمال بـني الإنسـان لتجدن أغلبية سكان نار جهنم انساقوا إليها بفعل اللسان. ما قرأته حتى الآن كان حول آفات النفس الإنسـانية. وهـنا حـديثنا يـدور حـول تجليات الباطن ومظاهر الطـبيعة الإنسـانية. فـمعالم بـاطنه يُـظهرها اللسان. لك أن تعرف أي شخص رغبت في معرفته بالتعمق في كلامه:

سوف أحدثك أولاً، ايها العزيز عن الكذب:

١ـ

«الكذب»

الكذب هو ذكر ما يخالف الحقيقة والواقع، سـواء كـان ذلك فـي الكلام أو الكتابة أو الإيماء والإيحاء. وهو من الذنوب الكبرىٰ التي قد تثير الفتن وتؤجج النيران وتهدم الدور.

إذاً، احترس من الكذب، صغيره وكبيره.

كان الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يقول لولده:

«إتقوا الكذب، الصغير منه والكبير، في كل جد وهزل. فإن الرجل إذا كذب في الصغير إجترأ على الكبير. أما علمتم إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صديقاً وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كاذباً»[١].

وأبشع الكذب الافتراء على الله ورسوله. فإنه من مبطلات الصوم. وقد يجر صاحبه إلى البدعة والكفر. فكم من مرة رأيت جهلة الفقه وأصول الدين والتفسير يبدون آراءهم في الشريعة بل يدلون بنظريات في هذا السياق فيتخذون الدين ألعوبة ويجعلونه موضع نقاش؟!

يقول تعالى:

﴿فمن أظلم ممن كذّب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه، أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾[٢].

وأحد أنفر أنماط الكذب الأُخرى هو الهدام منها، كأن يُفسد علاقة زوجة مع الزوج أو يثير النزاعات بين قبيلة وأخرىٰ. وقد تراق الدماء إثره.

يرى الإمام محمد الباقر عليه السلام أن الكذب مفتاح كل شر، فاستمع إلى قوله:

---

١ ـ الكافي، باب الكذب، الحديث ٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٣٢.

«إن الله عز وجل جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب. والكذب شر من الشراب»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إن الكذب هو خراب الإيمان»[٢].

فهذا الكذب وإضافة إلى دوره في إذلالك بين أبناء المجتمع فإنه يُفقدك ثقتهم فيك ويجعلك محط استخفافهم وهو يُطمر لذة الإيمان في القلب ويُطفىء نوره في الوَجه. فتعمَّ القلب بذلك عتمة وظلام.

قال الإمام علي عليه السلام:

«لا يجد عبد طعم الايمان حتى يترك الكذب، هزله وجده»[٣].

ألا تعلم أية أزهار يانعة يمكنك أن تنميها في سجل أعمالك بهذا اللسان؟ تنصح، تتوسط، تصلح ذات بين، تأمر بمعروف، تنهى عن منكر، تنشر علماً، تسري عن هم، تشاطر هماً، تداري يتيماً، تدلي شهادة، والأهم من كل هذا تذكر الله. أليس من المؤسف أن يتحول اللسان وهو بمثل هذه الفائدة العظمى إلى مجلبة للشر وأداة لاقتراف الإثم. ونفس هذا الكلام هو بحد ذاته ميزان معرفة الأشخاص.

ولربما كُشف باللسان عن الأسرار الإلهية ووُجِّه تائه في وادي التوحيد الى طريق الحقيقة السريع. فكلام البعض يكون كالعَلَم مبيّناً

---

١ ـ الكافي، باب الكذب، الحديث ٣.

٢ ـ الكافي، باب الكفر والايمان.

٣ ـ الكافي، باب الكذب، الحديث ١١.

وكأشعة الشمس هادياً، وهو يدل إلى النور والهدى. وكلام فريق آخر كأنه ألسنة نيران دأبها الحرق والإفناء.

تعمق في هذه الأحاديث:

أما الإمام محمد الباقر عليه السلام فإنه يقول في حديث له:

«إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«وقال عيسى ابن مريم: من كثر كذبه ذهب بهاؤه»[٢].

ومما قاله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا السياق:

«ينبغي للرجل المسلم أن يتجنب مواخاة الكذاب، فإنه يكذب حتى يجيء بالصدق فلا يُصدَّق»[٣].

حالات الكذب المأذون بها

ما دمنا قد تحدثنا عن الكذب لابد أن ننوه أن الكذب ربما يؤذن به للمسلم عند الضرورة الحتمية. من هنا لا تسارع لاتهام الآخرين بالكذب، فإنه يجوز في حالات، منها:

١ ـ خداع العدو في معارك المسلمين.

---

١ ـ تحف العقول، ص ٢٩٨ وميزان الحكمة، الحديث ١٨١٦٨.

٢ ـ الكافي، باب الكذب، الحديث ١٣.

٣ ـ المصدر السابق، الحديث ١٣.

٢ ـ الكذب لمنع إراقة الدماء ظلماً.

٣ ـ لاصلاح ذات البين بين مسلمين متنافرين.

٤ ـ وعد الأسرة بما لا يمكن تحقيقه.

ونحن نحدد الكذب المصلحي المأذون به شرعاً بهذه الحالات. وقد كتب الشاعر سعدي الشيرازي في كتابه «كلستان»: «الكذب المصلحي أفضل من الصدق المثير للفتن»، وهو ما أشرنا إليه في حالة منع إراقة دماء الأبرياء.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلّا (كذباً) في ثلاثة:

ـ رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه.

ـ أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما،

ـ أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم»[1].

وأنت لو التفت إلى كذب مخاطبك لا تألُ كلامه اهتمام أذنك فلا نفع ولا طائل للأذن من الكذب. وما دام لسانك لا يرتدع عن لغو الحديث والكذب، واذنك عن الإصغاء إليه لا حظ لآذان قلبك أن تظفر بسماع صدى الالهام الرباني؟!

والكذب الأقبح هو القسم أو اليمين الكاذبة، ومردّه اتخاذ اسم الله سبحانه وتعالىٰ ألعوبة. قال تعالىٰ:

---

١ ـ الكافي، باب الكذب، الحديث ١٨.

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾[١].

فقسمك بالله على هذا النحو سيما اليمين الكاذبة إنما يوحي باعتبارك الله الموجود الأكثر عجزاً من كل شيء في مذهبك.

وفي هذا المضمار نشير إلى حديث خاطب به الله عز وجل نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام قال:

«أنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إياكم واليمين الفاجرة، فإنها تدع الديار بلاقع من أهلها».

أي أن الكذب يُغيب النعم والبركات عن المدن والبيوت. فالله تعالى يمنع رحمته عن القوم المستخفين به.

وهذه الظاهرة مشهودة في الأسواق على وجه الخصوص. فهنالك من يخيل اليه أن بإمكانه تسيير شؤون معاملاته واستحصال الربح بالكذب وهو لا يدري أن المال قد يكون قليلاً وفيه بركة وربما كان كثيراً ولكن لا بركة فيه.

ايها العزيز! لتعلمن أن الصدق هو السبيل إلى الله. ونحن نطلب من الله تعالى الاهتداء إلى هذا السبيل يومياً ونحن نقرأ سورة الحمد في صلواتنا. فتقدم بخطاك على طريق الحق مع الأبرار الصادقين. فالانحراف يضلك عن الطريق فيتخلى عنك زملاء رحلتك. فلا سبيل أمامنا للقاء الله سواه ولا طاقة لنا بالمضي في غيره من مسالك.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٢٤.

٢ـ

«الغيبة»

قال تعالىٰ:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله، إن الله تواب رحيم﴾[1].

جاء الله بهذا المثل لأن الإنسان لشديد النفور من أكل لحم أخيه المتوفى، فيبيّن بأن الغيبة هكذا منفورة ليتنبه عباده لمدى قبح العمل. فأنت لما تعزم على إطلاق لسانك في استغابة أحد، فكّر: هل أنت نفسك متجرد عما تعيب الناس عليه؟ وإن لم يكن فيك، ألم يعكر وجودك عيب آخر؟ أَوَ ترضى أن يتحدث الآخرون أيضاً عن عيبك؟!

في بحث حق الناس ذكرنا أن الغيبة أيضاً تطاول على حقوق الناس والتوبة عنها تتطلب استرضاء الطرف الآخر. وطلب الصفح عن الغيبة لأصعب من طلب العفو عن السرقة. فالسرقة تعدٍّ على أموال

---

١ ـ سورة الحجرات، الآية ١٢.

الناس والغيبة عليهم هم أنفسهم. والإنسان فيما لو عمل حساباً بأنه لابد له أن يذكر للشخص نفسه يوماً بأنه أخزاه ذات مرة وخانه في غيابه بكذا أقوال، فإنه سوف لن يبادر أبداً لمثل هذا العمل المذموم.

يقول رسول الله ﷺ:

«الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه»[١].

الغيبة أساساً هي أن تذكر شخصاً في غيابه بما لا يرتضيه فإن كنت صادقاً، فكلامك غيبة وإن كاذباً فبهتان واتهام.

وقد تنساق الغيبة على اللسان أو تنفذ بالإيماء أو من خلال الكتابة. على أية حال: كل فعل يدرك منه مشاهدك أو مخاطبك أمراً لا يرتضيه صاحب الأمر فإنه غيبة.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾[٢].

جاء عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾».

ومن مبرات الدين والايمان أنهما يوحدان صفوف المؤمنين، ويولدان الأنس والألفة في القلوب، ويثيران أنسام الحب في رياض أفئدة المتمسكين بهما بينما الغيبة كالسموم الفتاكة تعيث بهذه الرياض،

---

١ ـ الكافي، باب الكفر والايمان.

٢ ـ سورة النور، الآية ١٩.

وتذبل براعم الحب والاتحاد، وتفتت أواصر الألفة.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته. فيقول: إلهي! ليس هذا كتابي! فإني لا أرى فيه طاعتي؟

فيقال له: إن ربك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس.

ثم يؤتىٰ بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي! ما هذا كتابي! فإني ما عملت هذه الطاعات!

فيقال: لأن فلاناً اغتابك، فدفعت حسناته إليك»[١].

بلغ الحسن البصري أن رجلاً اغتابه فأنفذ إليه بهدية. فقال له: والله مالي عندك يد، فقال: بلىٰ، بلغني أنك تهدي إليّ حسناتك فأحببت أن أكافئك.

وقال رسول الله ﷺ:

«إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنى، لأن الرجل يزني ويتوب فيتوب الله عليه. وإن صاحب الغيبة لا يغفر له إلّا إذا غفرها صاحبها»[٢].

إذاً، يا عزيز النفس! إجعلن حسابك مع الخالق لا الخلق. تعلمن أن الخلق يتهافتون في يوم التغابن على الحسنات ولن تنجو من إغاراتهم على حسناتك إن كنت مستغيباً لهم.

واعلم أن الاستماع للغيبة والتزام الصمت إزاءها بحد ذاتهما معصية.

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٥.

٢ ـ مجموعة ورام، ١/١١٥؛ والترغيب، ٣: ٥١١.

فالحضور في مجالس المعصية خطيئة، إلّا إذا أنكرت فيها القبيح، ومنعت إهدار سمعة المسلمين.

قال رسول الله ﷺ:

«من رد عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله عز وجل أن يرد عن عرضه يوم القيامة ويعتقه من النار»[١].

طوبىٰ لمن أكثر انشغاله بشؤون مصيره وبنظره في معايبه وباستئصال منابت العيوب من بستان القلب بمنجل الاصلاح. والانشغال بالنفس يحول دون الإمعان في عيوب الآخرين. فأنت إن انهكت قواك في التربص لهذا وذاك، فهل تتبقى لك فرصة لتترصد فيها نفسك؟!

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[٢].

يروىٰ أن إبراهيم أدهم دعي إلى مجلس حضره، فلما جلس سمع رجلاً يغتاب مسلماً فنهض فوراً دون أن يتناول طعاماً وهو يقول بأن نفسه استدرجته إلى مجلس يُغتاب فيه مسلم. ثم صام ثلاثة أيام كفارة لخسرانه.

يقول أحد العظام بأن الإنسان ينفع الآخرين بثلاثة أنحاء:

ـ أن يكف الآخرين ضرره إن عجز عن نفعهم.

---

١ ـ تنبيه الخواطر ونزهة الناظر، ابو الحسين ورام، المجلد ١، باب الغيبة، ص ١٢٧.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ١٠٥.

ـ أن لا يتسبب في حزنهم إن عجز عن إدخال السرور إلى نفوسهم.
ـ أن لا يذمهم لو لم يمتدحهم.

ولازيدك يقيناً فيما يخص قبح الغيبة ألفت انتباهك إلى الأحاديث التالية لتعود إلى هذه الصفحة وتلقي عليها نظرة تذكيرية كلما سوّلت لك نفسك باستغابة الآخرين.

ذكرنا قبل قليل حديثاً لرسول الله ﷺ، قال فيه:

«من رد عن عرض أخيه كان حقاً على الله ان يعتقه من النار»[1].

وعنه ﷺ أيضاً:

«طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ومنشأ الغيبة في الصدور الحسد والغضب. فإذا نفاهما الرجل عن نفسه قلّت غيبته للناس»[2].

كما منع ﷺ في حديث آخر له عن استغابة المسلمين وتقصي أسرارهم.

وفي هذا المضمار أكد الإمام الصادق عليه السلام ان الغيبة تأتي على ما يقدم الشخص لنفسه من ثواب كما تأتي النار على الحطب. وفيما روى النبي موسىٰ عليه السلام عما أوحاه إليه الله عز وجل عن المغتاب بأنه آخر من يدخل الجنة فيما لو تاب في حياته ولو لم يتب فإنه سوف يرد النار».

وعن خاتم الانبياء والمرسلين ﷺ أنه قال:

«من أذاع فاحشة كان كمبتديها».

---

١ ـ ارشاد القلوب، ١ ٢٣٠.

٢ ـ نفس المصدر.

أَوَ تعلم أن أغلبية المعاصي تتطلب مقدمات معينة أو زمان خاص يمنع عدم توفرها فوراً الوقوع فيها في بعض الأحيان، إلّا الغيبة فإنها تتيسر بمجرد الالتقاء بشخص ما، إنها مبذولة للسانك دون انقطاع. وما أهول النار التي يعدها لنفسه من يضحي بحسناته وقوداً للغيبة في كل من معاشراته! فواحسرتاه عليه!

وقد صنّف الإمام الصادق عليه السلام سياقات الغيبة إلى عشرة، هي:

١ ـ استغابة الآخرين لحل عقد الحقد المتجذرة في النفس.

٢ ـ اسناد الآخرين والتواؤم معهم وتأييد مطاليبهم.

٣ ـ توجيه تهمة اقتراف ذنب ما إلى من يضمر الشخص العداء له.

٤ ـ تأييد خبر سمعه المغتاب فيكرره وينشره دون أن يتبين صدقه.

٥ ـ سوء الظن أحياناً.

٦ ـ محاولة الإساءة للمحسود.

٧ ـ تقليد حركات الآخرين وسكناتهم والاستهزاء بإخوة في الدين طلباً للترويح أو بدافع الاستكانة.

٨ ـ التعبير عن الاندهاش من فعل الآخرين دون الالتفات للنية المستبيتة وراء ذلك الفعل.

٩ ـ فرض مبادىء الذات على الآخرين.

١٠ ـ الإطراء على من تحب بما ليس فيه.

وسهولة اقتراف الغيبة مدعاة الإكثار منها، للأسف، دون أن يكون فيها للمغتاب أية لذة أو فائدة سوى إرضاء وساوس الشيطان المراد بها

إضلال الشخص المذنب.

وأنت أيها العزيز! لا تكتف بتطهير نفسك من هذا الدنس والتلوث، بل بادر في كل مجلس يغتاب فيه أحد الى الدفاع عن المستغاب وردع المغتاب عن الغيبة.. وإن لم يكن بمقدورك ذلك فانهض واترك المجلس.

قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن مرآة لأخيه المؤمن، ينصحه إذا غاب، ويميط عنه ما يكره إذا شهد، ويوسع له في المجلس».

حالات الغيبة المأذون بها

إعلم ايها العزيز، أن الشريعة السمحاء أجازت الغيبة في حالات ما، عند اقتضاء الضرورة، ولربما كانت المبادرة اليها أولى من تركها. ومن أهم هذه الحالات:

١ ـ عند الاستشارة: أي عندما يتوقف على قولك مصير حياة شخص ما أو وضعه المالي أو سمعته. فعندما يستفسر منك عن فتاة تعرفها أو فتى تعرفه في قضايا الزواج لابد لك من الإدلاء بكل ما أنت واثق منه تماماً بالنظر لتوقف مصير شخص ما على أقوالك. أو عندما يتشارو معك شخص يعتزم ايداع ماله أو ثروته عند من ثبت لك عدم تمسكه بأداء الأمانات. عليك في مثل هذه الحالات الإدلاء بالحقيقة للحؤول دون إهدار مال مسلم، وما إلى ذلك من حالات.

٢ ـ غيبة الفاسق: والفاسق هو كل مذنب لا يتوانى عن اقتراف الذنب ويأتي بالخطايا علانية. وقد تكون به رغبة أن يرى الناس فعاله ولربما يفخر بها أيضا. فلا بأس عليك من كشف خطيئته. فأية سيدة لا ترعى شؤون الحجاب في خارج الدار وتعرض نفسها للأنظار، فما الداعي من التحفظ على الكشف عن قبح فعلتها؟

والمرابي يقدم نفسه بنفسه. فلا مانع من استغابة مثل هؤلاء الأشخاص شرط أن لا تتجاوز ذنبه الجلي إلى ذنب آخر.

٣ ـ التحدث عن عيب يعرفه المخاطب فلا يزيده حديثك معلومة جديدة.

٤ ـ التظلم وتأييد المظلوم إزاء الظالم عند من له يد من نصرته سواء كان قاضياً أم شخصاً آخر.

٥ ـ أن يعرف المغتاب بل يكون واثقاً ومتيقناً من أن الإشارة إلى ذلك الذنب تؤدي الى نبذه، ويكون يقينه تاماً بعدم وجود طريقة أخرى يمكن بها الحؤول دون اقتراف الذنب المذكور. فمثل هذه الغيبة مأذون بها ما دامت تقوم على نية القائل في الإصلاح.

٦ ـ التشهير بأصحاب البدع لردع الناس من الخروج عن إطار الشريعة بمعرفة البدع وأصحابها معرفة تامة والامتناع عن الاستهداء بهم والحذو حذوهم.

٧ ـ بيان الخطأ العلمي عند رأي عالم ومناقشته حتى يتبين خطأه باتضاح الحقائق.

٨ ـ عند الإدلاء بالشهادة، عن يقين، عند القاضي.

تأمل في الأحاديث التالية في هذا السياق:

قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس اغتابه ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته».

وعن الامام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله وأما الأمر الظاهر فيه مثل الجدّة والعجلة فلا، والبهتان أن تقول فيه ما ليس فيه».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم كي لا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس، ولا يتعلموا من بدعهم. يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «من ألقىٰ جلباب الحياء فلا غيبة له».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة».

أكتفي بهذا القدر من الحديث عن الغيبة لكي لا أتسبب في مللك. فالكلام عنها لواسع وأطرافه مترامية، والمتخبطون في غمارها كثرة كثيرة. وقد انساق لنا معك حديث في التوبة عن الغيبة خلال بحثنا في موضوع «التخلي».

٣ـ

«النميمة»

النميمة هي نقل الكلام بين شخصين أو التحدث عندهما بما يولد التكدر والضغائن ويؤجج نيران العداء بينهما حتى لو كنت صادقاً وكلامك لا يخرج عن إطار الواقع.

أما إذا كنت كاذباً فيكون ذنبك لأعظم بكثير من الكذب العادي. فالدين الذي يجيز الكذب لتحقيق الوصال والوحدة بين المؤمنين استعظم بشاعته إن كان مبعث الانفصال والعزلة.

ثم أن الشخصين المتفارقين بنميمة النمام سوف يلتقيان يوماً في نهاية المطاف، وتصفَّى الأجواء بينهما، ويبقى الخزي والعار نصيب النمام في مثل هذه المواقف.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله.

قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبُراء المعايب».

وأعلم أنه لا يستذوق التسبب في انفصال الناس ونشوب الخلافات بينهم إلّا كل شاذ منحرف. ألم تتنبه إلى نعتهم من قبل الله بأبناء الزنى في الآية:

﴿ولا تطع كل حلّاف مَهين. همّاز مشاء بنميم. منّاع للخير مُعتد أثيم. عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم﴾[1].

وهذا من أعنف أقواله تعالى بشأن أصحاب هذه الرذيلة. وهو القائل في موقع آخر:

﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾[2].

وربما كان النهي عن إطاعة النمام في سورة القلم يعود لكونه فاسقاً والفاسق لا يرتدع عن اقتراف الغيبة والنميمة. فقس على ذلك تجرأه على الكذب؟ فقد يهدف النمام من وراء تواجده إلى إثارة الخلافات وقصم العُرى بين صديقين. فكيف يمكن إيلاء الثقة بمثل هذا الشخص؟

وقد أكد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

«مُحرَّمة الجنة على القتاتين المشائين بالنميمة».

أيها العزيز! لابد وأنك تذوقت على مر حياتك حلاوة الأنس والألفة وأنت تجلس إلى صديقك أو تندمج مع رفاقك. أَما تعلم مبلغ سرورك

---

١ ـ سورة القلم، الآيات ١٠ ـ ١٣.

٢ ـ سورة الهمزة، الآية ١.

وابتهاجك في تلك اللحظات؟ وأية نار حامية تتلوع بها عندما تواجه عدوك وتستقر بين مناوئيك؟!

كن واثقاً أن المجتمع الذي تسوده الألفة وحب الخير تتولد فيه أجواء، ما أروع جذابيتها! فلو كنت راغباً في تحقيق مثل هذا المجتمع والتنعم بمثل هذه الأجواء، إجهد لصقل التكدرات من القلوب، ولاستئصال الضغائن ونثر بذور التحابب، لا أن تلقي على القلوب صدأ العداء وعتمة الأحقاد وتزرع شتائل المناوأة والكراهية.

يروي الديلمي في كتابه «ارشاد القلوب» عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال لرجل أخبره أن شخصاً يقول كذا وكذا:

«والله ما حفظت حق أخيك إذ خنته وقد استأمنك، ولا حفظت حرمتنا إذ سمَّعتنا ما لم يكن لنا حاجة بسماعه. أما علمت أن نقلة النميمة هم كلاب النار. قل لأخيك: أن الموت يعمّنا، والقبر يضمنا، والقيامة موعدنا، والله يحكم بيننا»[١].

ويُنقل أن رجلاً اغتاب عند أحد الأعاظم صديقاً له، فأشار إليه بأنه قد ارتكب بذلك معاصٍ ثلاث:

الأولى: أفقده ما كان يوليه إياه من ثقة،

والثانية: نقل إليه حديث صديقه واتهمه عنده،

والثالثة: أشغل باله وسلبه هدوءه بعد أن كان يشعر بفراغ بال وارتياح.

---

١ ـ ارشاد القلوب، ج ١، ص ٢٣١.

٤ـ

«البهتان»

البهتان هو أن تنسب إلى شخص أمراً أو تنعته بما ليس فيه. وهو أشد ثقلاً من الغيبة، لأن الغيبة ذكر ما بالشخص بالفعل. والبهتان العظيم يسمى «الافتراء».

فعلى سبيل المثال: لو رأى شخص رجلاً برفقة سيدة لا يعرفها ثم ادّعى أنه شاهده مع مومس يكون قد ألقىٰ عليه بالبهتان والاتهام وإن ذهب إلى أنه رآه يزني، فهذا افتراء.

يقول الإمام الصادق ﷺ: «إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء».

واعلم ان جراح البهتان تفتك بالقلب حتى لا يؤمل له الخلاص منها، وهي مولدة الضغائن والأحقاد في المجتمع وهدّامة لعرى الصداقة وصرح الدور وتُفني العلائق وتفضح المتجرىء على البهتان، ولربما ينتهي البهتان بإراقة الدماء وهو غالباً نتاج العداء والحسد، مما يفترض

نأيهما عن القلب.

قال رسول الله ﷺ:

«من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلٍّ من نار حتى يخرج مما قاله فيه».

سأل رجل الإمام علياً عليه السلام عن حدود الحق التي تفصله عن الباطل، فقال:

«أما إنه ليس بين الحق والباطل إلّا أربع أصابع، الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت».

ينبغي للإنسان أن يحمل فعال أخيه المسلم على محمل طيب حتى المقدور فإن ذهبت احتمالاتك إلى (٩٩) حالة منفورة وواحدة طيبة، خذ الأخيرة بحسبانك.

يروى عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قوله:

«إن المؤمن أخ المؤمن لا يشتمه ولا يحرمه ولا يسيء به الظن».

إضافة إلى هذه الأحاديث تعمق معي في الحديث النبوي الشريف التالي، عساه أن يغدو نبراساً يضيء درب حياتك:

«من روى عن مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقطه من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان».

وفي عظيم نصحه ﷺ في حديث:

«إياك ومواطن التهمة والمجلس المظنون به السوء. فان قرين السوء يغير جليسه».

٥ـ

«النفاق»

إن كان في قلبك ايمان راسخ وعقيدة ثابتة، فنفسك في حصن رصين لا نفاذ للنفاق والتلون فيه. فالشر شر أينما كان وممن بدا، والخير خير أينما شوهد وممن صدر. إياك أن تتطبع بطابع يجعلك تحدث الفاسق عن الفسق والزاهد عن الزهد ويكون حديثك مع العابد عن العبادة ومع الزاني عن الزنى، وفي كل حالة عما يستسيغ محدثك. فقد قال الشاعر:

ولا خير في ودِّ امرىء متلون إذ الرياح مالت مال حيث تميل

أما ما يقوله الشاعر:

حكايت بر مزاج مستمع گوى اگر خواهى كه دارد با تو ميلى
هر آن عاقل كه با مجنون نشيند نبايد گفتنش جز ذكر ليلى[1]

---

١ ـ معناهما:

فإنه سخف بحت. فأهل كل فسق يرغبون أن تواكبهم في حديثهم عن آثامهم، والشريعة تطالبك بالنهي عن المنكر. وكم شهدت موقف اولئك المتبنين في كل لحظة لنظرية، مداهنة للآخرين وانحيازاً لهم، وكأنـهم قذى تتقاذفه كل نسمة هنا وهناك أو أحجار الشطرنج تـتلاعب بـها أصابع كل من هب ودب. كن قمة عملاقة لتلتحق باولئك الذين تصفهم الآية:

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[١].

فهذه خصال المسلم النزيه المتثبت على دينه. أمـا المـتلون فـإنه يختار تارة الظهور وأخرى الخفاء، وأحياناً القرار وأحياناً الفرار، فـي بعض الحالات المدح والإطراء وفي حالات أخرىٰ التكذيب والنكال، مع البعض سلوكاً ومع غيرهم سلوكاً مخالفاً. ولكن سرعان ما يكشف أمره في المجتمع.

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من لقي المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من نار».

واستمع إلى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام:

«بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً

← «تحدث الى مستمعك بما يرغب فيه، إن كنت ترجو رغبته فيك»

«متى ما جالس عاقل مجنوناً، لا ينبغي له إلّا أن يذكر له عن ليلى حديثاً».

١ ـ سورة ابراهيم، الآية ٢٧.

ويأكله غائباً. إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله».

فالعبد الصالح يرى الخير دوماً خيراً، والشر شراً، والسوي سوياً، والشاذ شاذاً، لا صدى لهوى نفسه في أحكامه وأقواله، فهو ثابت سديد في عمله وفكره.

جاء في كتاب الكافي أن الله سبحانه وتعالى خاطب نبيه عيسىٰ ابن مريم عليه السلام قائلاً:

«يا عيسى! ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً. وكذلك قلبك. إني أحذرك نفسك وكفى بي خبيراً، لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان»[1].

**

فهذا التلون، وهو النفاق، صفة المنافقين الذين ذكر الله عز وجل مصيرهم في الآية:

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾[2].

---

١ ـ الكافي، ج ٢٤، ص ٤٣.

٢ ـ سورة النساء، الآية ١٤٥.

-٦

«اللوم والعتاب»

لتعلمن ايها العزيز إنما النصيحة مطلوبة والموعظة تُبذل لمنع تهاوي المسلمين في الشراك أو تخبطهم في متاهات الورطات. ولكن متى ما وقعوا في شرك الخطأ أو داهمتهم ورطة فما جدوى اللوم والعتاب عندئذ؟ الموقف يتحول إلى موقف الاستعانة والإغاثة لا الشماتة والاستكانة. الجراح يُراد لها مرهم، يكون للألم شافياً، لا ملح يكون للجرح لاذعاً. لك أن تسلط في طريق التائه ضياء لا على قلبه سياطاً، فإنه لمتصارع مع محنته، فلا تزيده عذاباً وتنهال على قلبه بالشماتة وخزاً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«من أعان على مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمتي».

الإنسان بحاجة في ظروف ابتلائه وحزنه أن يتحدث عن همومه

إلى شخص ما ليشاطره همه ويخفف عن عبئه باستمالته. وما الحيلة إذا كان بعض المهمومين يتركون قلوبهم ترزح تحت وطأة أحزانهم ويتعذر عليهم التحدث عنها خشية التعرض لوخزات وشماتة ذوي السرائر الخبيثة.

والشاعر سعدي الشيرازي يعرض لهذا العناء في كتابه «كلستان» بقوله:

«تاجر ناله خسران ألف دينار. قال لابنه: حذارِ من التصريح لأحد بهذا الكلام.

قال الولد: ابتاه! أمرك مطاع. لا أقول، ولكني أريد منك الاطلاع على فائدة ذلك. فما وراء هذا الإخفاء من صلاح؟

أجاب: لمنع تثنية المصاب: أحدهما نقصان ذخر والآخر شماتة جار».

وقد أكد الإمام الصادق عليه السلام في حديث له أن لائم المؤمن على ذنب اقترفه، لا يموتن قبل اقتراف نفس ذلك الإثم.

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«العتاب مفتاح التقالي».



«التملق»

إمدح من حَسُنت خصاله ولكن في غيابه إن اردت لبرّه دوام. فلعل مدحك يولد فيه غروراً يقلص من محاسنه ولربما كان لكبريائه مردودات ضارة تفوق فائدة ميزته بكثير. من جهة أخرىٰ ينبغي للإنسان أن يحصن نفسه من أن يلقيه اطراء الناس له في ورطة الغرور، فيمنع انخداع نفسه بهم. فليقولن في نفسه: هؤلاء يرون محاسني وسوف يفرون مني إن حصل لديهم علم بمساوئي.

يتوجب على كل أبيّ النفس أن لا يأذن بانحناء الهامات امامه إجلالاً.

ولَهَجِ الألسن في وصفه مداهنة وتملقاً، وأن يستصغروا أنفسهم إزاءه ليظفروا منه لمطاليبهم تلبية.

فهذا مولى المتقين الإمام علي يرد على من جاء بكلام في مدحه:

«إن من حق من عَظُم جلالُ الله في نفسه، وجَلَّ موضعُه من قلبه،

أن يَصغُر عنده كل ما سواه. وإن أحق من كان كذلك لمن عَظُمت نعمةُ الله عليه، ولَطُف إحسانُه إليه. فإنه لم تَعظُم نعمة الله على أحد إلّا ازداد حقُّ الله عليه عِظماً.

وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس، أن يُظَنَّ بهم حب الفخر، ويُوضَعَ أمرُهم على الكبر، وقد كَرِهتُ أن يكون جالَ في ظنّكم أني أحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست، بحمد الله، كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء..»[١].

وفي موقف آخر لمّا ارتجل القرويون أمامه من جيادهم وأظهروا بالاجماع هياجاً شديداً في استقباله، أمرهم عليه السلام أن يكفوا عن هذه الأفعال فإنها لن تنفعهم وأكد لهم أنهم بتملقهم هذا ما يجنون إلّا إعراض أنفسهم للمشقة والعناء في الدنيا والشقاء في الآخرة.

فأنت تلاحظ من هذا، أن الامام علياً عليه السلام أعرب عن نفوره من المداهنة والتملق. فمن يكون ذا محقاً بأن يأذن للناس بالخشوع له فالعزة لله وحده.

وأنت أيضاً أيها العزيز! لا تنثر بذور الكبرياء والغرور في قلوب الناس. فالشكر والحمد إزاء تلقي الخدمات مبرة. ولكن لا تلقّنهم بأنهم أفضل مما هم عليه في حقيقتهم. فنصف تكبر المتكبرين مردّه مداهنة المتملقين.

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

٨ـ

«التهامس والتناجي»

قال تعالى:

﴿إنما النجوى من الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمنوا﴾[١].

النجوى هو التهامس مع شخص في مجلس بحيث يسمع هو دون غيره كلامك. ومدلول ذلك أنك لم تجد في ذاك المجلس أي شخص كفوء بائتمانه على أسرارك سواه. وهذا ما يولد التكدر والأذىٰ، فقد يتراءى للآخرين أن الحديث يدور بشأنهم، وإن ضَحِك المتهامسان يحسبونه عليهم وكذا لو بدا عليهما امتعاض. والتناجي يفني علاقات المودة، ويزيل الألفة، ويزرع بذور الحقد.

قال الإمام علي عليه السلام:

«إذا كان القوم ثلاثة من المؤمنين فلا يتناج منهم اثنان دون

---

١ ـ سورة المجادلة، الآية ١٠.

صاحبهما، فإن ذلك ما يحزنه ويؤذيه».

ويحدد الله تعالى حالات التناجي المأذون بها بثلاث حالات ذكرها في الآية:

﴿لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾[1].

وحتى في هذه الحالات الثلاث، فإنه بعد فوات فرصتها يسقط الإذن بها في غير حينها.

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١١٤.

٩ـ

«المزاح والسخرية»

ربما يخيل إليك أنك تنفذ إلى قلب الناس بالمزاح، وأنت تجهل أنه ليفقدك مكانتك عندهم أحياناً. وقد تحاول التهكم بشخص لأجل إثارة ضحك مجموعة من الناس. فاعلم أن إضحاك الآخرين لا يزيد من حبهم لك. ولكنك تجعلن المتهكم به عدواً لك.. ولو كان في غيابه فقد اغتبته.

قال تعالى:

﴿ويل لكل همزة لمزة﴾[1].

ولأجل إضحاك الناس تصبح أضحوكة. ألا تعلم أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إياك وكثرة الضحك، فانه يميت القلب، وكثرة الضحك يمحو

---

١ ـ سورة الهُمزة، الآية ١.

الإيمان».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إياكم والمزاح، فإنه يذهب بماء الوجه ومهابة الرجل».

فالواعي لأمر وفاته وحسابه وكتابه ويوم استجوابه يقل ضحكه، فهو المُدرك أن الدنيا ليست دار سخرية وتهكم. أَكثِر من التفكير، فبه يقل ضحكك.

تعمق في الأحاديث التالية:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«القهقهة من الشيطان».

وقال عليه السلام أيضاً:

«كثرة ضحك الرجل تفسد وقاره».

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«إذا قهقهت فقل حين تفرغ: اللهم لا تمقتني».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«لا تمار فيذهب بهاؤك، ولا تمازح فيجترأ عليك».

وقد نهى الله تعالى بصريح قوله عن السخرية وما يؤذي من المزاح في الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسىٰ أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى ان يُكنَّ خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفُسُوقُ بعد الإيمان، ومن لم يَتب فأولئك هم

الظالمون﴾[١].

ولكن حذارِ أن يجعلك هذا الكلام إنساناً فظاً سيىء الخلق. فلا تكن صعباً فتكسر ولا ليناً فتعصر. فقد كان رسول الله ﷺ دمثاً حسن المعشر حتى يخيل لكل من يلقاه أن رسول الله ﷺ يحبه أكثر من أي شخص آخر.

فحتى لو كان قلبك مكتظاً بالحزن، إرسم البسمة على شفتيك.

المزاح غير مذموم في جميع الحالات:

إن وجدت مسلماً غلبه الحزن إجهد لترسم الابتسامة على شفتيه بمزاح رقيق لطيف، ولدينا أحاديث مروية في هذا السياق أيضاً.

قال معمر بن خلاد: سألت أبا الحسن عليه السلام (أي الامام علياً عليه السلام)، فقلت: جعلتُ فداك، الرجل يكون مع القوم، فيجري كلام يمزحون ويضحكون؟ فقال: لا بأس ما لم يكن، «فظننت عني الفحش». ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يأتيه الاعرابي فيهدي له الهدية، ثم يقول مكانه:

أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله ﷺ، وكان إذا اغتم يقول: ما فعل الاعرابي ليته أتانا.

عن يونس الشيباني قال: قال لي الإمام الصادق عليه السلام: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟

---

١ ـ سورة الحجرات، الآية ١١.

قلت: قليل.

قال: لا تفعلوا، فإن المداعبة من حسن الخلق. وإنك لتدخل بها السرور على أخيك.

ولقد كان رسول الله ﷺ يداعب الرجل يريد أن يسره.

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إن الله يحب المداعب في الجماعة، بلا رفث (أي بلا فحش)».

ولنا أن نقول أن هذه الأحاديث لا تتعارض في مضمونها. فمتى ما كان المزاح مدعاة الخِفة والتهكم واللغو والغيبة ينفر منه المسلم بطبيعة الحال، ومتى ما دفع هماً عن قلب مسلم وأَدخَل السرور إلى نفس متألم ورسم ابتسامة على شفاه ذابلة فإنه يعتبر عبادة.

-١٠-

«الثرثرة واللغو في الحديث»

ايها العزيز! أَوَ تعلم ما هو اللغو؟ إنه كل فعل وعمل لا فائدة ترتجىٰ منه، لا دنيوياً ولا أخروياً. قد تقول: لا أفعل مثل هذا. ولكنك لو تعمقت أكثر في كنه الأمور لتجدن أن أغلبية أعمال الإنسان وأقواله إنما هي لغو.

تعلم أن فرصة العمر قصيرة وطريق السلوك إلى الله لطويل جداً. فأنّى لك بلوغ غايتك إن غفلت عن استغلال هذه الفرصة على مر لحظاتك.

نصح رسول الله ﷺ أبا ذر بالقول:

«يا أبا ذر! اترك فضول الكلام، وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك. وان الله عز وجل عند لسان كل قائل. فليتق الله امرءٌ وليعلم ما يقول».

فلربما ادخرت لنفسك الشقاء بكلام ما أو جَعَلَتك عبارة تفوهت بها

تتجرع آلام الندم أياماً وأياما.

يروى عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال:

«كان المسيح ﷺ يقول: لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله. فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسيةٌ قلوبهم، ولكن لا يعلمون».

ونحن نجد أن رسول الله رد على رجل طلب منه ثلاث مرات أن ينصحه مؤكداً عليه في المرات الثلاث أن يحفظ لسانه.

ألم تلتفت أن الله تعالى جعل ترك اللغو أحد متطلبات الفلاح. فهاك استمع إليه يصف المفلحين في الآية:

﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[1].

ومن خصائص الجنة أنك لا تسمع فيها لغواً، فلا يتكدر صفو بالك عبثاً:

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾[2].

وفي وصف شراب الجنة قال تعالىٰ:

﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾[3].

إننا قد نحول حياتنا جحيماً بكلام غير مرغوب فيه، نغتاب، نتحدث بكلام عابث، نثير النزاع بين شخصين، نكذب، ونتبجح بمئات الأنحاء.

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآية ٣.

٢ ـ سورة الواقعة، الآية ٢٥.

٣ ـ سورة الطور، الآية ٢٣.

ألا تعلم أن اللغو يميت القلب؟ تنفق ساعات حياتك في مجالس اللغو فإنك بذلك تهدر ساعات ثمينة من عمرك.. أينما واجهت اللغو أعرض عنه، فقد قال الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[١].

وقال ايضاً:

﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[٢].

اترك مجالس اللغو معرضاً، لا متخاصماً. ولا تعاشرن المسرفين في اللغو، وكفاك أن تعلم أن الثرثار لا يأتي بحكيم البيان.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«من كثر كلامه كثر خطَؤُه، ومن كثر خطَؤُهُ قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

***

هذه هي زلات اللسان عرضتها لك ايها العزيز، ولكن اعلم أن أخطاء اللسان لا تقتصر على هذه العشرة. فزلاته كثيرة تضرم النيران وتحزّ الرؤوس وتفني الإيمان من القلوب.

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٢.

٢ ـ سورة القصص، الآية ٥٥.

حذارِ أن يضر كلامك مؤمناً أو ينال من سمعته أو يلقيه في عناء، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان».

إياك أن تكشف عن أسرار مؤمن بكلامك أو تهتك له حرمة أو تخزيه. فقد روى عبد الله بن سنان أنه لما سأل الإمام الصادق عليه السلام عما إذا كانت عورة المؤمن على المؤمن حرام، أجابه عليه السلام: نعم. ثم سأله: تعني سِفلَيه؟ قال: ليس حيث تذهب. إنما هي إذاعة سره.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم».

ثم إياك وسب المؤمنين عند غضبك أو أن تتفوه في شأنهم بعابث كلامك.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة».

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه».

وسوف نتحدث إن شاء الله في مبحث «التحلي» عن حقوق المؤمن في ذمة المؤمنين ولكني أنوه لك ها هنا أنه ليس بامكان المؤمن أن

يمر على المؤمنين مرور الكرام فإن تهاون في حقهم يؤخذ بذنبه يوم القيامة حيث قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا قال الرجل لأخيه المؤمن: أف خرج من ولايته، وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما، ولا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو مضمر على أخيه المؤمن سوءاً».

إياك والشماتة بالمبتلى واستزادة عنائه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لا تبدي الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك».

وقال: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن».

إحذر من أن تقطع كلام الآخرين بكلامك فإنه من مؤشرات جهل الفاعل.

روى الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشبّه من يقطع كلام أخيه المؤمن بمن يخرش وجه أخيه المؤمن.

وللسان في حياة الانسان شؤون وعداوات وضغائن. فاحسن معرفة هذا العدو، فإنك لشديد التضرر من هذا الثعبان الأحمر القابع في فمك أكثر مما تتعرض له من أي شيء آخر. وهذا ما يتضح لك أكثر فأكثر في غدك، يوم حسابك.

«الصمت»

لتعلمن أيها العزيز أن بوابة كل هذه المعاناة التي عرضتها عليك هو الكلام ومفتاحها الصمت. فإن أردت أن تكف نفسك شر كل هذا البلاء وتمنع عن نفسك كل هذه الآلام والعناء، التزم الصمت أساساً ولا تتخلى عنه إلّا عند الضرورة.

وما أعظم النعم التي تتحقق لك بالصمت. فالذكر الخفي والفطنة والفوز بوصال الله والظفر بصحبة الأعاظم والتفكير والاستئناس كلها من مردودات الصمت. ألم تسمع حديث الإمام علي عليه السلام:

«إذا تم العقل نقص الكلام».

ولكن للأسف نرىٰ أن التعقل في نقصان وتضاؤل. من هنا تجد أن أهل الكلام أكثر عدداً من أهل الصمت. من هنا يقول الامام الرضا عليه السلام:

«من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت. إن الصمت باب من أبواب الحكمة. إن الصمت يكسب المحبة. إنه دليل على كل خير».

والعمل بخلاف ذلك مخالفة للأدب في أغلبية المواقع. من هنا قال

الله سبحانه وتعالى:

﴿وإذا قُرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا، لعلكم ترحمون﴾[١].

ولكن متى ما أفاض فاضل أو عارف علينا بكلامه، فهنالك يكون كلامه فيضان رحمة وكلامنا بركان لعنة ونقمة. افتح بوابة قلبك على مصراعيها لمثل هذه الرحمة لتنال منها لما تبقى من حياتك نعمة.

وحري بكل ذي أدب أن لا يقطع على أحد كلامه قط.

على أية حال، الصمت نوعان: صمت الظاهر وصمت الباطن. وهو المقام الأول. سوف أحدثك في مبحث «التحلي» عن الصمت الباطني، فتتنبهن إلى أن للعبد حالات يتعذر فيها النطق. ولكن وأنت في وضعك الحالي التزم الصمت ولا تنطق بأي كلام إلّا عند الضرورة لتكف قلبك شر لسانك.

إنصح من أراد الابتهاج بالسلامة أن: كن على الدوام صامتاً واحفظ لسانكِ عن كل ما لا يجلب لك نفعاً.

وقد ذكرنا في موضوع اللغو أنه كل حديث لا فائدة منه سواء كان دنيوياً أو أخروياً. وسوف لن تسطع أنوار المعرفة على قلبك ما لم تحبس لسانك عن مثل هذا الكلام.

وينصحنا أحد الفضلاء أن نقلل الحديث مع الخلق ونُكثِر منه مع الخالق ليتسنى للقلب أن يرى الله.

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

«المعاشرة وهفواتها»

في أي مقام تستقر، وبأية درجة من الإيـمان تـنعم، إعـلم انـه لا يسعنك أن تقول ليس للمعاشرة تأثير فـي وجـودي. ألم تـلتفت إلى الشمس عند شروقها تفيض ببركة نورها واشعتها عـلى جـميع ذرات الأتربة والجبال والسهول والآفاق دون استثناء. والأنسام عندما تـمر بالتعفنات تحمل رائحتها معها وتداهم بها مشامك سواء استنشقتها أو امتنعت عن استنشاقها. فنحن نقرأ في ديوان ينسب للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

ولا تصحب أخـا الجـهل وإيـاك وإيـاه

فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاه

لا لبس لديك في هذه القضية. والكلام حول أنواع المعاشرة التـي تصقل قلبك وتضيء أرجاءه بالأنوار الالهية وتعمق وقع الايمان فيه، سوف يأتيك في مـبحث «التـحلي» إن شـاء الله ليـدور كـلامنا فـي الصفحات التالية حول ما لم يُستطَبْ من أنواع المعاشرة ولم تكن في

حينها المناسب. احذر أولاً من مجالس المعصية؟

«مجالس المعصية»

كنت قبل هذا من أهل المعاصي، ولك مع أهل المعاصي أنس وعشرة، ومع الخطيئة اعتياد. فلتعلمن أن نبذ العادات بين أهل تلك العادة محال.

وهذه المجالس على نمطين:

أحدهما أن تشارك في ارتكاب المعصية كأن تجلس بين جماعة من المغتابين تهز رأسك تأييداً وتوافق كلامهم قلبياً. وقد تعمل على مجاراتهم بلسانك، أرضاء لمحدثيك متجرئاً. وربما تجلس إلى غير محارمك من النساء وقد تجردن عن حجابهن. إن دخولك إلى مجالس اللهو واللغو يدخلك دون أدنى شك في زمرة مرتكبيها.

خاطب الإمام علي بن الحسين السجاد ﷺ الامام محمداً الباقر ﷺ قائلاً:

يابني! انظر خمسة، فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق.

فقال الامام الباقر ﷺ: يا أبه من هم؟

قال:

«إياك ومصاحبة الكذاب فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويباعد لك القريب وإياك ومصاحبة الفاسق فإنه بائعك بأكلة أو أقل من

ذلك وإياك ومصاحبة البخيل فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه وإياك ومصاحبة الأحمق فانّه يريد أن ينفعك فيضرك.

وإياك ومصاحبة القاطع لرحمه فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله عز وجل في ثلاثة مواضع: قال الله عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وقال: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ وقال في البقرة: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾.

وفي كلام مطول وجهه الله سبحانه وتعالى إلى النبي عيسى ابن مريم عليه السلام حذره عز وجل من أن مجالسة جليس السوء يأتي عليه بالفناء، فأمره بأن يفكر بأحوال من يعاشرهم وأن يختار لنفسه أصدقاء من المؤمنين فقط.

وتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال:

«المؤمن مرآة المؤمن».

فأنت عندما تنظر إلى مرآة متكدرة ترى صورتك فيها في نفس تلك اللحظة متكدرة.

فيا صاحب النفس الزكية! اعتزل قدر الامكان رفاق السوء. فالوحدة والعزلة لأفضل بكثير من مثل هذه العشرة.

ولا يخيل إليك أن الذين يدعونك إلى مثل هذه المجالس أحباء بل

أعداء. وسوف ينكشف لك غداً ماذا فعلوا بك، وماذا جرىٰ عليك في هذه المجالس؟

هل تعلم أن الصديق الذي دعاك لمجلس المعصية من هو؟ إنه الشيطان.. استضافك لينسيك ذكر الله وقد صار اليوم قرينك.

قال تعالى:

﴿ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نُقيِّض له شيطاناً فهو له قرين﴾[١].

ولكنك يوم تَفِد خاوي اليدين على ربك، وهو اسمى جليس، تعلم جيداً ماذا دهاك بمعاشرة هؤلاء وكيف حرمتك من لقاء الحبيب معاشرتهم. فلتقولن:

﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين، فبئس القرين﴾[٢].

فهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أصدقاء لك ويحسبون أنفسهم من خيرة ناسك، وألسنتهم تلتهج عبثاً ومبالغة في صداقتك هم ألد أعدائك. حيث يقول ربك عز وجل:

﴿وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾[٣].

فإن لبيت دعوة مثل هؤلاء الأشخاص وجلست إلى موائدهم، فاعلم أنه شرك بحد ذاته. وقد حدثتك في هذا السياق:

يقول الإمام علي ﷺ:

١ـ سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٢ـ سورة الزخرف، الآية ٣٨.

٣ـ سورة الزخرف، الآية ٣٧.

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وأنت لو كنت راغباً في تلبية مثل هذه الدعوات، وفضلت رضا المخلوق على رضا الخالق، فركنت إلى رضاهم، هل تعلم كيف سوف تكون معاملة ربك معك؟

تعمق في هذا الحديث للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«من طلب رضا الناس بسخط الله، وَكَّلَه الله إلى الناس».

فلتكن غايتك الأولىٰ في تلبية الدعوات وخوض المعاشرات رضا الله ثم رضا الخلق. يقول الإمام الجواد عليه السلام:

«رضا الناس بعد رضا الله».

كان هذا وصفاً لمجالس قد تتلوث فيها بالمعاصي.

والنوع الآخر من مثل هذه المجالس هو أن تحضر المجلس دون أن تشارك في المعصية. فتواكب مجالسيك بقلبك ويطيب لك في مجلسهم أنساً. يخادعك الشيطان بقوله: لا بأس عليك من مثل هذه المجالس، فإنك لست من أهل المعاصي. فاقرأ إذاً ما يحدثك الله تعالى به حول معاشرتهم:

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا﴾[1].

إنهم علقوا على مشجب الحياة آمالهم، فغفلوا عن حياة قلوبهم. فاعلم أن صحبة أمثالهم تميت القلب.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٠.

«لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره».

وقال ﷺ أيضاً في هذا الصعيد:

«لا ينبغي للمرء المسلم أن يواخي الفاجر ولا الأحمق ولا الكذاب».

سأل رجل ابا عبد الله الصادق ﷺ عن قول الله عز وجل:

﴿وقد نزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذاً مِثلُهم، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[1].

فقال ﷺ: إنما عني بهذا إذا سمعتم الرجل الذي يجحد الحق ويكذب به ويقع في الأئمة فقم من عنده ولا تقاعده، كائناً من كان».

وروي عن الإمام الصادق ﷺ قوله:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس مجلساً ينتقص فيه إمام او يعاب فيه مؤمن».

ومن آيات كتاب الحق تعالى الأخرىٰ في نهيك عن مثل هذا، الآية:

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينَّك الشيطانُ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾[2].

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٤٠.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٦٨.

وقد يكون هذا الخوض لفظياً باللسان أو بفعل آخر. على أية حال الكلام أو الفعل المنهي عن معاشرة أهله هو ما يكمن فيه معصية الله تعالىٰ.

وجاء في كتاب الحلية عن الإمام محمد التقي ﷺ تأكيده على أن أهل الهوى هم الذين يخوضون في آيات الله.

وفي تفسيره لهذه الآية الشريفة، ألحق الإمام الباقر ﷺ الاستماع إلى كلام القصاصين بمثل هذه المجالس. وهذا الحديث يبين شمول الآية لكل مجالس الغفلة واللغو واتلاف العمر.

من هنا، تعمق ايها العزيز في نفسك. فإن كانت توّاقة لهذه المجالس والمعاشرات، إعلم أنك ما زلت أسير الميول الشيطانية، ورغبتك في وصال الله ليست حقيقة. أما إذا كنت نافراً من هذه المجالس والمعاشرات، فاحرص على صحوتك لئلا تستدرجك الشياطين إلى مثل هذه الأجواء.

واعلم أيضاً أن الفرار من مجالس المعصية فريضة على السالك إلى الله. وكل عمل ينجز في مثل هذه المجالس مذموم حتى لو كانت الصلاة، إلّا إذا كان اضطراراً أو للتوجيه والنهي عن المنكر. وإلّا فلا نتاج لهذه المجالس إلّا التلوث والتدنس.

وقد تقول: الرأفة بخلق الله مطلوبة، ومعاشرتهم صلة رحم. نعم هو هكذا، ولكن فيه شرط تسمعه في حديث للإمام الصادق ﷺ حيث قال:

حسن المعاشرة مع خلق الله تعالى في غير معصية من مزيد فضل

الله عز وجل عند عبده. ومن كان خاضعاً لله في السر كان حَسِنَ المعاشرة في العلانية فعاشر الخلق لله تعالىٰ. ولا تعاشرهم لنصيبك من الدنيا ولطلب الجاه والرياء والسمعة، ولا تستقطن بسببها عن حدود الشريعة من باب المماثلة والشهرة، فإنهم لا يغنون عنك شيئاً وتفوتك الآخرة بلا فائدة»[١].

أما معاشرة الأبرار فإنه من فضل الله تعالىٰ ونعمائه، فمجالستهم لا تلقيك في التدنس بالمعاصي قط. بل قد تسلط على قلبك نوراً يحصنك من الذنوب حتى لساعات بعد انتهاء لقائك بهم. تعمق فيما تبقى من حديث الإمام الصادق عليه السلام:

«.. واجعل من هو أكبر منك بمنزلة الأب والأصغر بمنزلة الولد، والمثل بمنزلة الأخ، ولا تدع ما تعمله يقيناً من نفسك بما تشك فيه من غيرك وكن رفيقاً في أمرك بالمعروف، شفيقاً في نهيك عن المنكر، ولا تدع النصيحة في كل حال، قال الله عز وجل ﴿وقولوا للناس حسناً﴾.

واقطع عمّن تنسيك وصلته ذكر الله وتشغلك ألفته عن طاعة الله، فان ذلك من أولياء الشيطان وأعوانه، ولا تحملنّك رؤيتهم إلى المداهنة على الحق فان ذلك هو الخسران المبين العظيم، وتفوتك الآخرة بلا فائدة».

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٦٩.

«معاشرة الموتى»

المقصود بالموتى، ذوي القلوب المستميتة وإلّا ففي معاشرة أهل القبور عبر ودروس، فانها لحب الدنيا مُذهبة ولعاقبة الأمور مُظهرة. أما معاشرة ذوي القلوب المستميتة، فحاصلها التهاوي في الغفلة والتمادي في طول الأمل والتهاون في انقضاء العمر. فما ثمرة ساعاتك التي تقضيها معهم؟ بم خرجت من عندهم؟ فإن لم أقل في معاشرتهم معصية ففيها اللغو. وأنت إن كنت عازماً على تحقيق الفلاح لابد لك من الإعراض عن اللغو أيضاً فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو مُعرضون﴾[1].

وقال عز وجل في موقع آخر:

﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام

---

١ ـ سورة المؤمنون، الآيات ١ ـ ٣.

عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[١].

ايها العزيز! لا تعتزمنّ الالتحاق بمثل هذه المجالس أساساً ولو ابتليت بها صدفة أعرض عنها بأسلوب كريم:

﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[٢].

نبّه الإمام علي عليه السلام شخصاً كان يقول لغواً أَوَ يدري ماذا يملي على كتّاب أعماله؟

ومما نصح به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذر:

«يا أبا ذر! لا تصاحب إلّا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلّا تقي، ولا تأكل طعام الفاسقين».

النفس تريدك أن تعاشر من يضحكك، وله معك مزاح، وتنال منه مدحاً واطراء ومداهنة وتملقاً. وإن كنت تريد لقلبك انعتاقاً، فعاشر من يذكرك بالله وينبهك لمعايبك.

تعمق في حديث للإمام الباقر عليه السلام حيث يقول:

«إتبع من يبكيك، وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش وستردون على الله جميعاً فتعلمون».

---

١ ـ سورة القصص، الآية ٥٥.

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٢.

«معاشرة الأثرياء»

تعلم أن مجالسهم تكون غالباً ثكنات غفلة، فأما تجدهم فيها للأموال يحسبون أو بالمناصب يتباهون وببهارج الدنيا وزخرفها يتبجحون. والشيطان والنفس يستدرجانك لمعاشرتهم لتنسى الله ويوم حسابه.

فأفضل كاشف لحقيقة هذه المعاشرات هو قلبك. فانظر في حاله وأنت تترك كل مجلس فربما لا تعثر فيه إلّا الثبوط والنكبة والغفلة والحزن والهم أو قد تجدنه وقد أفيض عليه بنور إلهي جاء له بالفرج والرحمة والفيض.

قال تعالىٰ:

﴿لا تَمُدَّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتِنهم فيه، ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقىٰ﴾[1].

فالنفس في خضم هذا التلاقي، وهو في واقعه تهاوي، تقول لك: إنها

---

١ ـ سورة طه، الآية ١٣١.

متطلبات التعالي. وأنّى لك أن تعلم أية فتن عظمى تُثار وكم من راحة تُسلب في مثل هذا التداعي.

﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم، إنما يريد الله أن يُعذّبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[1].

كما يروى عن رسول الله ﷺ قوله:

«ثلاثة مجالستهم تميت القلب:

الجلوس مع الأنذال والحديث مع النساء والجلوس مع الأغنياء».

ولآتينك بحديث من الإمام محمد الباقر عليه السلام في هذا الخصوص، فأنصت إليَّ:

«(يا فلان)، لا تجالس الأغنياء، فان العبد يجالسهم وهو يرى ان لله عليه نعمة فما يقوم حتى يرىٰ ان ليس لله عليه نعمة».

وآخر عن رسول الله ﷺ حيث يقول:

«إياكم ومجالسة الموتى، قيل: يا رسول الله، من الموتى؟

قال:

كل غني أطغاه غناه..) وإياكم ومجالسة الملوك وأبناء الدنيا. ففي ذلك ذهاب دينكم ويعقبكم نفاقاً وذلك داء دوي لا شفاء له ويورث قساوة القلب...».

فأنت لو كنت تقدم إجلالك للذهب والدرهم والدينار لكان أفضل. فهذه المساكين لا يعتريها الكبر بإجلالك ولا يخدعها إطراؤك. ولكنك

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٨٥.

بذلك تخدعهم وتلقيهم في متاهات الغرور.

وإياك والحديث في المجالس طلباً لاسترضاء الناس فقد يغضبهم الحق ويسرهم الباطل. لو كانت نيتك ارضاء الله، فأنت على صواب في كل ما تقول وتفعل. ولو كانت ارضاء الخلق فإنه ضرب من ضروب الشرك:

﴿ولا تَلبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[1].

ولما كانت عيناك قرتا بطلعة جمال الحقيقة. فلا تتسترن عليه مداعبة لنفس هذا أو ذاك. إجعل كلامك لله لا لمن قال عنهم الحق تعالىٰ:

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءَهم عما جاءك من الحق﴾[2].

ولا تتكلمن ظناً فقد يخالطن كلامك باطلاً. فالظن أو الاحتمال لا يغني الإنسان عن إدراك الحقيقة.

﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[3].

وخلافاً لما تجدن عليه أغلبية الناس من تهافت على معاشرة أصحاب المناصب والثروات ومن اعتزازهم بذلك، إحرص أنت على معاشرة الفقراء وأضمر لهم الاحترام واهتم باستمالتهم لتنأى عن الشرك وتنير بمجالستهم قلبك، وتخفف من غرورك وكبريائك، وتحسن الظن

١ـ سورة البقرة، الآية ٤٢.

٢ـ سورة المائدة، الآية ٤٨.

٣ـ سورة النجم، الآية ٢٨.

فيما فعل بك ربك الرحيم، وتزداد شكراً له، فإنه الكريم. دعني أتلو عليك شيئاً من كلام الله المجيد:

﴿واصبر نفسك مع الذين يَدعُون ربهم بالغداة والعَشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً﴾[1].

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٢٨.

«المعاشرة وهفوات أخرىٰ»

«الجدال»

اعلم أن الجدال يكبح النور ويفتك بالقلوب ويهبط بك من عالم اليقين. صحيح أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ربما استزادا النور وعمقا وقع اليقين عند الإنسان، ولكن عندما تجد عند مستمعيك آذاناً صاغية وعقولاً واعية تريد بهما الاستهداء الى طريق المعرفة واستزادة العلوم لا أن يتمثلوا بالكلب المتحامل عليه. فمجال التوجيه والإرشاد لعلى اختلاف شاسع مع حلبة المصارعة. فالمسترشد ليتتبعن خطى المُرشد استهداء به. وفي المصارعة يتربص كل من المنافسين بالآخر ليصرعه. فإن كان يخيل إليك أنك لساع في سبيل الله وأنت تتقدم بخطاك في هكذا طريق، فإنك وقعت في فخ التصورات الواهية لا أكثر ولا أقل. فلا سبيل أمامك في مثل هذه المجابهات إلّا طريق النفس.

﴿ولا تُجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يُحب من كان خواناً

أثيماً﴾[١].

ويحدث كثيراً أن تخاطبك نفسك قائلة: إياك والفشل في هذا البحث، ففيه خزيك وذهاب الناس إلى افتقارك للمعلومات. وأنت لا تحل وثاق خصمك محاولاً اشباع رغبتك في المباهاة والتظاهر فتلقي نفسك في الخصام والجدال والصراع. قد تكون لم تسمع هذا الحديث عن الإمام علي عليه السلام:

«إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق».

وإن وجدت شامتهم لا تشم عبر الأزهار ولا تتحسس الروائح الزكيات دعهم يزحفون على أتون التوهمات فأبواب الرياض في وجوه هؤلاء موصدة.

﴿فلا يُنازعنك في الأمر وادع إلى ربك. إنك لعلى هدى مستقيم. وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾[٢].

تعمق في الحديث النبوي الشريف التالي:

«ثلاث من لقي الله بهن دخل الجنة من أي باب شاء:

ـ من حسن خلقه،

ـ وخشي الله في المغيب والمحضر،

ـ وترك المراء وإن كان محقاً».

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠٧.

٢ ـ سورة الحج، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب عن ذكر الله وتورث النفاق وتكسب الضغائن وتستجير الكذب».

ولكن فيما لو لم تبق لديك حيلة في موقع ما، ورأيت نفسك في ساحة النقاش والجدال مرغماً، إحرص على ضبط أعصابك والامتناع عن التفوه بأي كلام بذيء. فإن عرّضوا دينك ومذهبك للاستهانة، فلا ترد عليهم بالتنكيل بأنبيائهم الالهيين، فقد قال الله عز وجل:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن﴾[1].

أما النقاش الأمثل فإنه أمر لا يتمكن منه الجميع بل أصحاب الثقافة والجدارة، فكلا الجانبين لكشف الحقائق مُطالب، ومن الانفعال وإساءة الأدب نافر. وليس للتبجح بالمعلومات والظهور للعيان تحاورهما وهما بالرقة والرأفة يواصلان تحادثهما.

فما دمت لا تواجه مثل هذا المناوىء اعتزل الجدال ولا تخوض السباحة في دوامته. تعمق في كلام الإمام الصادق عليه السلام:

«اجعلوا أمركم لله، ولا تجعلوه للناس فإنه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله، ولا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. وقال: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس، وإنكم

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

أخذتم عن رسول الله ﷺ وعلي ﷺ ولا سواء. إني سمعت أبي ﷺ يقول: إن الله إذا كتب على عبد أن يدخل في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره».

«ما العمل مع أرحام السوء؟»

إياك وأن تختلط عليك الأمور وأنت تـقف عـلى مـفترق طـريقي الامتناع عن معاشرة من لا يرتضي الله سلوكهم من جهة والنهي عـن قطع صلة الرحم. فما العمل مع هذا التعارض؟ تواجهك هذه القضية إن كان بين أرحامك مذنبين آثمين. فامعن فيما تسمع من أحكام الشريعة السمحاء التي تنهى عن قطع الأرحام حتى تذكر جزاءها العسير فـي الآية:

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويُفسدون في الأرض، اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[1].

وأحد مصاديق الخطايا التي تشملها الآية باللعنة على مقترفيها هي قطع ما أمر الله به أن يوصل أي الأرحام. دعني أعرض عليك مشهداً آخر في هذا المضمار:

ذات مرة دار نقاش بين الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بـن الحسـن

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ٢٥.

حتى بلغ حد إثارة الضجة فاجتمع الناس اليهما فافترقا. فإذا بالإمام الصادق ﷺ يأتي إلى دار عبد الله بن الحسن صباح اليوم التالي، فخرج له عبد الله فقال: يا أبا عبد الله ما بكّر بك؟ فقال: إني تلوت آية من كتاب الله عز وجل البارحة فأقلقتني.

قال: وما هي؟

قال: قول الله جل وعز ذكره: ﴿الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾.

فقال: صدقت. لكأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله جل وعز قط. فاعتنقا وبكيا.

لعلك تتساءل: ولكني أقف في قمة حُسن المعاشرة مع أقربائي ومعارفي. ولكني لا ألاقي منهم وفاء. مع ذلك كن أنت من أهل الوفاء فلا يكون من المؤمن جفاء.

وللإمعان في التنويه، آتيك برواية أخرىٰ، تأمل فيها:

روى عبد الله بن سنان بانه قال للامام الصادق ﷺ: إن لي ابن عم أصِله فيقطعني حتى هممت لقطيعته إياي أن أقطعه. أتأذن لي قطعه؟

قال ﷺ: إنك إذا وصلته وقطعك وصلكما الله عز وجل جميعاً. وإن قطعته وقطعك قطعكما الله».

وللتوثق مما في قطع الأرحام من ذنب لَجَدُ عظيم أروي لك مجموعة من الروايات والأحاديث الأخرىٰ:

ـ جاء رجل إلى رسول الله فقال له:

«يا رسول الله! أهل بيتي أبوا إلّا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة. فأرفضهم؟

قال:

«إذاً، يرفضكم الله جميعاً.

قال: فكيف أصنع؟

قال ﷺ:

تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، فإنك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير».

ـ وقال رسول الله ﷺ أيضاً:

«لا تقطع رحمك وإن قطعتك».

***

«وعن أبي حمزة الثمالي قال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة: أعوذ بالله من الذنوب التي تُعجل الفناء. فقام إليه عبد الله بن الكوّاء اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين أو تكون ذنوب تُعجل الفناء؟ فقال: نعم، ويلك قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم أتقياء».

***

إلى هنا حدثتك عن صلة الأرحام ولتعلمن أن الأحاديث فيه كثرة كثيرة حددنا ذكرها على هذا القدر للايجاز، ولكن نعود ونقول: فما حيلتنا مع الآية:

﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[1].

تنهى الآية عن إقامة علاقات ألفة مع من يناوىء الله ورسوله وإن كان الأبوين أو الأخوة أو الأبناء والمعارف.

الموضوع هنا يدور حول الألفة والمحبة. والمحبة أمر يتعلق بالقلب لا اللسان. أنت كن معارضاً لفعل هؤلاء المعارف من الملحدين لما في أمرهم من مجابهة الله ورسوله، لا تضمر لهم حباً. هذا هو بحث «التولي»، فلا يكون بوسع المؤمن الخروج عنه. ولكن بامكانك التظاهر بعدم قطع أواصر القربى فتكون مرناً في تعاملك معهم عند معاشرتهم لتتحدث إليهم عن الله ورسوله وتنوّه بمساوىء أعمالهم ومضارها لعلك تهديهم السبيل إلى الصراط المستقيم. وتوحي لهم بأنك لم تقطع وصلك معهم طاعة لأمر الله ورسوله، وإلّا فإنك لست ملتزماً بأعمالهم بل تنفر منها. إذاً الأمر بصلة الرحم لا علاقة له بتقوى أولي الأرحام وعدمها. أما المتقون من أولي الأرحام، فإن لهم عليك حقين. استمع إلى الرواية التالية:

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال:

---

١ ـ سورة المجادلة، الآية ٢٢.

«تكون لي القرابة على غير أمري (أي عقائدي ومبادئي) ألهم عليّ حق؟

قال: نعم حق الرحم لا يقطعه شيء. وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم وحق الاسلام».

وأما في حالة تعارض صلة الرحم مع النهي عن الالتحاق بمجالس المعصية الذي عرضنا له مسبقاً في مثل هذا الموقف، يكون ذكاؤك ايها العبد الصالح علاج حيرتك. تقص في أي مواعيد تنعقد هذه المجالس لتصل أرحامك في غيرها، وتتذرع بحجة ما لغيابك عنهم في تلك المجالس. ذكاؤك وفطنتك كفيلان بأن تمنع نفسك الاصطلاء بنار معاشرتهم في تلك المجالس، وكذا قطع الأرحام.

وإن قلت: لا يمكنني ذلك أبداً، فمعاشرتهم في ساعات عمرهم كلها تنتهي الى المعصية، كمعاشرة أقارب لك من المحارم تأبىٰ نساؤهم الالتزام بالتستر والحجاب. هنا تكون مرغماً على قطع مثل هذه الأرحام. ولكن ابعث لهم نداءك بأنك لم تعلن حرباً ضدهم ولا تجابههم، ولكن تكره هذه المعصية وتأمل تخليهم عنها ليتسنىٰ لك استئناف هذه السنة الحسنة معهم لاحقاً.

«العزلة»

مع كل ما تقدم من كلام، لا حيلة لك إلّا أن تعتزل الكثير من الناس، فليس لك في معاشرة الأدنياء من حاصل إلّا الوبال والتدنس بالآثام. فهل تعلم ماذا يجري على قلبك في مثل هذه المعاشرات؟! ففي مجرى من تريد لقلبك أن ينساب؟ إنك في عالم الرحمن لا منزل الشيطان.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«المؤمنة أعز من المؤمن والمؤمن أعز من الكبريت الأحمر. فمن رأى منكم الكبريت الأحمر؟!».

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«المؤمن أصلب من الجبل، تستقل منه. والمؤمن لا يستقل من دينه شيء».

ألم تر الماء النقي، في أي إناء يصب يكتسب لونه ومعاشرة البهائم تلقنك خصائصها؟ وأنت الآن غدوت كالماء النقي الصافي فلا تعكر صفوك بمجالسة المتلوثين. والقرآن يتحدث عن أغلبية فاسدة وأقلية

طاهرة متزكية، حيث لا تخلو سور هذا الكتاب السماوي من عبارات توحي بهذه الكثرة، منها:

﴿أكثرهم لا يُفلحون﴾ و ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ و ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

ويحدد الأبرار بالقلة كما في:

- ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[١].

- ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خُسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[٢].

وتعلم أن «إلّا» هذه تستثني القلة، و «الخسران» يعم الكثرة.

فعن قوم النبي نوح عليه السلام يقول الله تعالى:

﴿وما آمن معه إلّا قليل﴾[٣].

ويقول كذلك:

﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾[٤].

والآيات كثيرة على هذا الصعيد، وما عليك إلّا أن تتقي معاشرة أكثرية الناس.

قال الإمام الكاظم عليه السلام يحدث أحد أصحابه:

«يا سماعة!... أما والله لقد كانت الدنيا وما فيها إلّا واحد يعبد الله

١ـ سورة سبأ، الآية ١٣.

٢ـ سورة العصر، الآيات ١ ـ ٣.

٣ـ سورة هود، الآية ٤٠.

٤ـ سورة ص، الآية ٢٤.

ولو كان معه غيره، لأضافهُ الله عز وجل حيث يقول: ﴿إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً وما كان من المشركين﴾...

أما والله إن المؤمن لقليل وان أهل الكفر لكثير».

جئتك بهذه الموضوعات هنا لتجهد في استزادة تقواك، لا أن تتفاخر وتتبجح بانك المؤمن دون غيرك. ولكن احذر فان كفر الأعادي كريح صرصر تذهب بالايمان المقلقل أو يصب دنسه في وجودك. فأنت إن اتممت معرفتك بدينك فلا ضير عليك أن تشد أزرك لعبادة الرحمن ربك ولا تتفانى إلّا في خدمته طوال عمرك.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«من مات وهو عارف لامامه لم يضره، تقدم هذا الأمر أو تأخر».

ويقول فضيل بن يسار أنه زار الامام الصادق عليه السلام في أوان مرضه، فقال له عليه السلام:

«يا فضيل، اعرف امامك، فانك اذا عرفت امامك لم يضرك، تقدم هذا الأمر أو تأخر».

وقد نصح الإمام الصادق عليه السلام حفص بن غياث أن يجهد ليفعل ما ينبغي عليه أن يفعله حتى لو لم يحظ بمديح الناس، ولا يهمه أن يذمه الناس لو كان هو على ما أمر الله تعالى حتى اذا كلفه ذلك ان يبقى مغموراً غير معروف.

***

ولربما كان استئناسك بخلق الله نتاج جهلك.. تمهل حتى تختبرهم في الفرصة المناسبة. وتعلم اياً منهم يتوافق لسانه مع قلبه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«خالط الناس تخبرهم، ومتى تخبرهم تقلهم».

فإن أردت لقلبك مؤنساً فلا أنيس له سواه فلأحدثك عن «يا مؤنس كل وحيد». لا علم لي كم من مرة انحنيت حتى الآن امام كعبة قلبك إجلالاً له. فإن كنت عارفاً بقلبك تجده موقعاً لله تعالى.

اختل بنفسك. فهذه الخلوة والعزلة تنفعك مآلاً يوم تودع وحيداً في قبرك ويتركك الجميع. فإن لم تكن مستأنساً بنفسك فما أعظم استيحاشك من نفسك يومئذ.

لا أعرف ماذا فكرت حول الآية:

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. اولئك هم الفاسقون﴾[1].

فنسيان النفس هذا إنما هو التغافل عن القلب. وهو بدوره كما مر بنا تغافل عن الحق تعالىٰ. فأنى لك وأنت تتوسط مثل هذا الجمهور أن تنظر في قلبك وتفكر في نفسك؟

أسمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول:

«تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

فإن كنت راغباً في التفكير والتدبر فالخوض فيه متعذر وأنت تتوسط الخلق. ولتعلمن أن معرفة النفس ومعرفة الحق تعالىٰ إنما هي

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ١٩.

ثمرات التفكير والتفكير ثمرة الخلوة. فأنّى لك أن تحقق الجلاء دون اختلاء. فإنه من جهة يسدد في وجهك باب الكثير من المعاصي مثل الغيبة والكذب والنظر إلى غير المحارم والنميمة والبهتان و... ومن جهة أخرى يفسح أمامك المجال للانشغال بنفسك.

فأعتى ما يداهم البال من تشوش يتعلق بشؤون المعاشرة. وفي الاختلاء يتعاظم حظك من تركيز البال، وامكان ظفرك بصلاة وذكر مع التركيز.

روى سفيان الثوري قال:

قصدت جعفر بن محمد عليهما السلام فأذن لي بالدخول، فوجدته في سرداب ينزل اثنتي عشرة مرقاة، فقلت: يا ابن رسول الله! أنت في هذا المكان مع حاجة الناس إليك. فقال:

«يا سفيان! فَسَد الزمان، وتنكر الاخوان، وتقلّب الأعيان فاتخذنا الوحدة سكناً، أمعك شيء تكتب؟ قلت: نعم، فقال: أكتب.

لا تجزعن لوحدة وتفرُّد ... ومن التفرّد في زمانك فازدد

فسد الإخاء فليس ثمّ إخوة ... إلّا التملق باللسان وباليد

وإذا نظرت جميع ما بقلوبهم ... أبصرت ثمّ نقيع سم الأسود

فإذا فتشت ضميره من قلبه ... وافيت عنه مرارة لا تنفد[1]

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل بن زياد:

---

١ ـ ارشاد القلوب، الديلمي، المجلد ١، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

«تبذَّل ولا تشتهر، ووار شخصك ولا تذكر، وتعلم واعمل، واسكت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار، ولا عليك إذا علمت معالم دينك أن لا تعرف الناس ولا يعرفوك.

ومن ألزم قلبه الفكر، ولسانه الذكر، ملأ الله قلبه إيماناً ورحمة ونوراً وحكمة، إن الفكر والاعتبار يخرجان من قلب المؤمن عجائب المنطق في الحكمة وتسمع له أقوال يرضاها العلماء، وتخشع لها العقلاء، وتعجب منها الحكماء»[1].

وجاء في كتاب «بحار الأنوار» عن أمالي الصدوق:

«أوحى الله إلى بعض الأنبياء: إن أردت لقائي غداً في حظيرة القدس فكن في الدنيا غريباً محزوناً ومستوحشاً كالطير الوحداني الذي يطير في الأرض المقفرة، ويأكل من الأشجار المثمرة، فإذا كان الليل آوى إلى وكره، ولم يكن مع الطير استيحاشاً من الناس واستيناساً بربه»[2].

ارسم في بالك مشهد يوم تبعث من قبرك وحيداً فريداً، تركك الأهل والمعارف وشأنك، وقد ذهب عنك مالك ومنالك، فما اعظم رزيتك إن لم يكن مع العزلة استئناسك؟!

قال تعالى:

﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خوَّلناكم وراء

---

١ ـ المصدر السابق، ص ١٩٧.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٠، ص ١٠٨، الحديث ١.

ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾[١].

هنا منزلك وهذا مصيرك، فإن كان لك في هذه النشأة انشغال مع ربك فلا بأس عليك في تلك النشأة حيث يروى أن العبد المؤمن لما يوضع في قبره ويعود أهله إلى منازلهم يألم العبد وتصيبه الوحشة فيشتكي وحدته إلى الله فيأتيه الخطاب أن: يا عبدي! تركوك وحدك ومضوا فاستوحشت، ولكن لا تغتم، فأنا مؤنسك وجليسك.

دعني أذكر لك شيئاً عن دعاء الإمام السجاد عليه السلام وتضرعه ضمن دعاء أبي حمزة الثمالي لتكتظ عيناك دمعاً ويزداد قلبك نشاطاً.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«الهي!..

إرحم في هذه الدنيا غُربتي وعند الموت كربتي وفي القبر وحدتي وفي اللحد وحشتي وإذا نشرت للحساب بين يديك ذُلَّ موقفي واغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي وأَدِم لي ما به سترتني وارحمني صريعاً في الفراش تقلّبني أيدي أحبتي وتفضّل عليّ ممدوداً على المغتسل يقلبني صالح جيرتي وتحنن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي وجُد عليّ منقولاً قد نزلت بك وحيداً في حفرتي وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي حتى لا استأنس بغيرك يا

١ـ سورة الأنعام، الآية ٩٤.

سيدي...»[١].

والخلوة تستحسن متى ما كان أنس الإنسان في عزلته مع ربه، وفي ذكره وعبادته. فلربما يخلو حولك وأنت في سكوت مطلق وفي باطنك تندلع مائة ضجة وضجة. لا تجد شيئاً فيما حولك، وآلاف المغازل تواصل الغزل في نفسك. ولربما ترى الواعون وهم يتوسطون الجماعة وقلوبهم مع الله مع أن عيونهم ترى سواه. آذانهم تستمع للأصداء وقلوبهم تكشف الأسرار. تسرح أبصارهم مع الناس وقلوبهم في ديار الحبيب. وهذا ليس مقام المبتدئين. على هذا سوف أرجيء الحديث عنه إلى مبحث آخر.

المطلوب منك في خلواتك أن تصارع نفسك وتعتقلها لتترهل وتتراجع قواها.

يروىٰ أن راهباً سئل: هل أنت راهب؟

قال: لا، بل حارس كلب.

قيل: لا نجد في دارك كلباً!

قال: ولكنني اراه في باطني. إنه لا يوذيني على الدوام وقد جعلت نفسي حارساً له لأحفظه في زنزانته.

فالانقضاض على شبح النفس هو الخطوة الأولىٰ والأهم. فما سواه من اعمال فانجازها سهل سريع.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام:

١ـ مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

«عليك بذات نفسك ودع ما سِواها».

ايها العزيز! أنت تواق للشهرة والمعروفية. وأنّى لك أن تعلم أن غير ذي صيت وشهرة له عالَم آخر ينعم به وهدوء أفضل يهنأ في ظله.

قال الإمام علي النقي عليه السلام:

«إن رضا الله وطاعته لا تُقبل ولا تُوجد إلّا في عباد غُرباء».

يروىٰ أن الشبلي كان يحذر الناس على الدوام من الإفلاس. فسئل عما هو الإفلاس، فأكد أنه الأنس مع الخلائق.

***

وسئل عارف: متى تصح العزلة؟ فأشار أنها تصح متى ما تم اعتزال النفس.

ولما تقتضي مشيئة الله أن يقربك إلى نفسه يزيد من استئناسك بالوحدة والانقطاع من الخلق وانشغالك بذكره.

وتعلم ان النبي محمد صلى الله عليه وآله قضى الأيام والليالي (قبل البعثة) مختلياً بربه بغار حراء، معتزلاً الخلق حتى قالت عنه قريش: (أن محمداً عشق ربه).

وتعلم أيضاً ما جرى على موسىٰ في ميقات ربه التي قص عليك ربك حكايته في الآية:

﴿وواعدنا موسىٰ ثلاثين ليلة واتممناها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين

ليلة﴾[١].

يروى أن النبي موسىٰ بن عمران عليه السلام كان قد اعتزل الخلق في هذه المدة وترك الأكل والشرب وانهمك في العبادة حتى نال شرف لقب «كليم الله».

***

وفي هذا السياق قال تعالى يخاطب نبيه وحبيبه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾

وأخيراً أُكثِر التركيز في حديث للإمام الصادق عليه السلام يجمع فيه ملخص ما جاء في هذا البحث:

«صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالىٰ ومتحرس بحراسته، فيا طوبىٰ لمن تفرد به سراً وعلانية.

وهو يحتاج إلى عشر خصال:

علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فإن الغفلة مصطاد الشيطان، ورأس كل بلية، وسبب كل حجاب وخلوة البيت عما لا يحتاج إليه في الوقت»[٢].

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

٢ ـ مصباح الشريعة، الباب ٤٥.

«ماذا عن تعاليم المعاشرة»

ربما يتساءل ذهنك: تؤكد على صلة الأرحام وتلح في خدمة الأنام، فكيف يتم كل ذلك مع الاعتزال والاستئناس بخالق الأنسام؟

فلتعلمن أن بعض الرفاق فضلوا المعاشرة، فمثلاً في أداء صلاة الجماعة بما فيها من ثواب. وقد أكد رسول الله ﷺ ان من لا يكون همُّه اصلاح أمور المسلمين ليس بمسلم.

والحج إجراء اجتماعي من الواجبات. وفروض مثل صلة الرحم وعيادة المرضى والكثير من المبادرات الاجتماعية الأخرىٰ كالجهاد ضد الظالم وكسب العيش، كلها تتطلب الاختلاط بالناس ومعاشرتهم.

وفريق آخر يرىٰ أن الذكر والتفكر ومعرفة النفس لا تتحقق من جهة إلّا في الخلوة والعزلة ومن جهة أخرىٰ يأمن الانسان عند اختلائه من آفات المعاشرة مثل الكذب والغيبة والنميمة والحسد وإضاعة فرصة العمر باطلاً. وفيما ذكرنا مسبقاً قرأت حديث الإمام الصادق عليه السلام يخاطب حفص بن غياث قائلاً:

«إن قدرت أن لا تعُرف فافعل»[١].

وهذا دليل أرجحية عدم المعروفية على الشهرة. فأويس القرني كان يقطن اليمن ورسول الله في مكة المكرمة ولكنه اشتم شذاه. وربما نفر منه معارفه وهم على مقربة منه. هذا هو فعل القلب لا الجسم. واختلاف الرؤىٰ على هذا النحو متواصل حتى الآن. أما إذا أردتني أن أطلق لك حكماً عاماً في هذا المجال، فلا يمكن ذلك. فإن تحكم أن الاسلام لا يريد الاعتزال لابد أن تذيل ما انساق من حديث في هذا البحث بختم البطلان وإن ذهبت إلى استحباب العزلة في الاسلام، فلابد من غض الطرف عن كل هذه التعليمات الاجتماعية!

إن في هذا التكليف الاسلامي دواء وأنت مصاب بالداء. فماذا يمكن القول؟ ففي كل دواء علاج لداء. فلابد لك أن ترى ما هو الداء ومن هو المتداوى؟ وأن تحدد زمان المداواة ومكانها قبل أن تكتب وصفة الدواء.

أنت تعمق علامَ خرجت من دارك؟ إن كان لإرضاء الله فخروجك أفضل، وإن كان للتسلية واللهو والمعصية، فعزلتك المجتمع أفضل.

استمع إليّ أقرأ لك حديثاً عن رسول الله ﷺ:

«الجليس الصالح خير من الوحدة. والوحدة خير من جليس السوء».

إذاً، أنظر من تعاشر، فنور الأبرار لعتمة وجودك مزيل، وجهلك انما هو بمعرفتهم زائل. فمن ذا يفضل الاختلاء على معاشرة الأبرار؟!

---

١ ـ الكافي.

إعرض على الشمس دياجير وجودك واخلط بالأزهار أشواك نفسك، وتعلق بأذيال الأبرار طلبا لعلاج آلام قلبك.

وإن رغبت أن تكشف حقيقة نورهم فانظر في الحديث الشريف التالي:

«المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى لله بشروطه التي شرطها عليه، فذلك مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وذلك من يشفع ولا يُشفع له وذلك ممّن لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة ومؤمن زلّت به قدم ذلك كخامة الزّرع كيفما كفَأَته الريح انكفأ وذلك ممّن تصيبه أهوال الدنيا والآخرة ويشفع له وهو على خير».

فما أعظم جهلك إن انت حرمت نفسك من نعمة مرافقة مثل هؤلاء الأشخاص.

إن وجدت في نفسك نفوراً وكراهية إزاء الأبرار، اعلن الحرب على قلبك، ففيه مرض يجعله نافراً من عالم الأنوار. ولعلاجه إلجأ إلى الأبرار وشمّر عن ساعد الهمة لتخمد بماء الرحمة نار نقمتك؟

فيا أيها العزيز! كن طبيب نفسك قبل ان يفني المرض قواك وينتهي إلى سوء أمرك. هل تعلم أن المرحوم آية الله الحاج هادي السبزواري (ره) ترك الحوزة ومجالس الدرس والبحث وقضىٰ عشرة أعوام من عمره مجهولاً يعمل خادماً يؤدي أعمال التنظيف والنكس بمدرسة «كرمان» فيخدم الطلبة ويحمل أعباءهم. ولما كُشفت هويته بعد مضي عشرة أعوام ترك المدرسة.

كيف تحلل الأمر؟ عالم جليل يرضى بعمل زهيد ويلقي بنفسه في

تعب وعناء كثير، لا علم لي بذلك ولكنني أفهم أنه رأىٰ في نفسه ما كان علاجه في مثل هذا السلوك، وقد أحسن علاجاً.

وقد مر بنا أن إبراهيم أدهم ترك السلطان وراح يعمل لفترة في بستان وتخلى النبي موسىٰ ﷺ عن قصر فرعون وراح يرعى للنبي شعيب ﷺ الخرفان. كل هذه خطوات على طريق علاج الآلام.

صاحب قلبك وتحدث إليه مسالماً. إجهد ان لا تخطو خطوة واحدة في مطاوعة النفس. ولكني أرى الكثيرين يلقون بأنفسهم في كل مرتع للأقذار ويأذنون لها بالالتذاذ بكل لغو، ويقضون أعمارهم في اللهو واللعب وما إليهما من افعال، متشبثين بقول رسول الله ﷺ: «لا رهبانية في الاسلام»، فوالله ما عرف هؤلاء معنى الرهبانية ولا الإسلام، ولا أدركوا كنه معرفة الرسول.

ولأمنع إطالة الحديث أكثر من هذا، اختم كلامي ها هنا على أمل أن يكون قلبك أيها القارىء العزيز! قد «تخلى» عن كل دنس وتلوث، واستأنس بربك، وتخلص من ناره، واهتدى إلى الصراط المستقيم، ونال غفران ربك بالتزكي. استودعك الله وأنا أتوسل إليك أن تدعو لي بالغفران في حياتي وبعد مماتي. عسىٰ أن يوفقني الله بمنّه لأستأنف الحديث معك في مبحث «التحلى». ألتجىء إلى الله ليحفظني وإياكم من شر الشيطان الرجيم ووساوسه والنفس الأمارة وهواها.

«الفهرس»